

مركز دراسات الوحدة العربية

تأملات في التاريخ العربي



شارل عيساوي

تأمـلات
في التاريخ العربي



مركز دراسات الوحدة العربية

تأملات في التاريخ العربي

شارل عيساوي

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٦٩١٦٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

الطبعة الاولى
بيروت، تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٩١

المحتويات

مُقدّمة

نُشرت الأبحاث الواردة في هذا الكتاب في الأصل باللغة الانكليزية كمقالات في عدة مجلات ومجموعات أمريكية خلال السنوات العشرين الماضية، وإني أقدمها إلى القراء العرب آملاً أن يجدوا فيها ما يساعدهم على تأويل ماضيهم الحافل وإدراك بعض المشاكل التي تواجههم الآن.

تتناول هذه المجموعة من الأبحاث بعض أوجه التاريخ العربي وتاريخ الشرق الأوسط الذي ما زالت الأقطار العربية تكوّن قلبه النابض. يدور البحث في حوالى نصف الفصول ـ أو ما يزيد ـ حول بعض أوجه تاريخ المنطقة الاقتصادي؛ مثلاً: كيف كان مجرى تطور اقتصاد الشرق الأوسط في أثناء الثلاثة آلاف سنة الماضية؟ كم كانت مساحة الدولة العربية عندما بلغت ذروتها في عهد الأمويين؟ وما كان عدد سكانها؟ ما هي نتيجة المقارنة بين الدولة الأموية والامبراطوريات الأخرى (الرومانية والبيزنطية والعثمانية) التي سيطرت على البحر الأبيض المتوسط، من حيث اتساع المساحة وعدد السكان وكثافتهم؟ ما هي أسباب التقهقر في تجارة الشرق الأوسط منذ أواخر القرون الوسطى؟ هل يرجع أصل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يواجهها الشرق الأوسط الآن إلى تأخره في القرن الثامن عشر (عندما بدأت الثورة الصناعية) بالنسبة إلى بعض المناطق الأخرى ـ مثل أوروبا واليابان والصين وأمريكا اللاتينية وروسيا والبلقان؟ أم هل يرجع هذا التأخر إلى وطأة الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر؟ ما هي العوامل التي تفسّر تقدّم اليابان المدهش في السنوات المئة الأخيرة؟ ولماذا لم تحقق البلدان العربية تقدماً مماثلاً في تلك الفترة؟ وأخيراً ما الذي

يمكننا أن نستفيد به من تعاليم المذاهب الرئيسية مثل الماركسية و«مدرسة الأنال» في تأويل تاريخنا الاقتصادي؟

وتتناول الأبحاث الأخرى بعض المسائل الثقافية؛ منها تفحُّص تثبيت الحدود بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي في منطقة البحر الأبيض المتوسط والتغييرات التي طرأت عليها عبر القرون. ومنها بحث تتابع التقلبات في ميزان القوى السياسية والعلمية والتقانية والاقتصادية بين الشرق الأوسط وأوروبا منذ أواخر القرون الوسطى. وأخيراً، بحثان يحللان تطور نظرة الغرب إلى الشرق عامة والعالم الاسلامي خاصة، ويلفتان النظر إلى التغيير العظيم الذي حصل في القرن التاسع عشر عندما بلغت أوروبا أقصى توسّعها، واكتسح الاستعمار الأوروبي مشارق الأرض ومغاربها، ووصلت ثقة أوروبا بنفسها إلى حدّ لم تعهده من قبل أو من بعد.

وستتعرّض الآراء المسرودة هنا إلى الطعن والانتقاد، إنما حسبي وحسبها أن تؤدي إلى مزيد من البحث والمناقشة في المسائل التي تطرحها، وأن تساعد القرّاء العرب - إلى هذا الحد أو ذاك - على فهم ماضيهم وحاضرهم بصورة أفضل. والله الهادي إلى الصواب.

شارل عيساوي

الفصل الاول

الحُدودُ المسيحيَّة الاسلاميَّة
في البحر المتوسّط : تاريخ شِبْه جزيرتَين

كثيرة هي الكتابات التي تناولت وحدة إقليم البحر المتوسط، وهي الفكرة التي ثبتت صحتها بحقّ، فما من شخص زار ذلك الإقليم إلا استطاع أن يلحظ التماثل الكبير في الظروف الطبيعية والجغرافية لأجزائه المختلفة، بل التماثل الكبير في المظهر الخارجي والصفات البدنية والمزاجية لسكانه، والتشابه الكبير في أساليب حياتهم. غير أن هناك انقساماً ثقافياً عميقاً في ذلك الإقليم يشطره إلى نصفين، أحدهما مسيحي والآخر إسلامي. ويتطابق ذلك الانقسام مع الانشطار في الشريط الساحلي للبحر المتوسط، الذي يتمثل في مضيق جبل طارق في أحد طرفيه، والبوسفور والدردنيل في الطرف الآخر، وهو الانشطار الذي يشكّل الحدود التقليدية لأوروبا مع افريقيا في الأول، ومع آسيا في الثاني.

أولاً: المناطق المسيحية والمناطق الاسلامية

لا يمكن القول إن هذه المضايق الثلاثة تشكّل عقبة طبيعية كبيرة، إذ يمكن السباحة عبرها جميعاً، غير أنها تشكل حدوداً بين اثنتين من أهم الديانات في العالم: فإلى الجنوب من تلك المضايق، تجد أن الدولة الوحيدة التي يدّعي فيها المسيحيون أنهم أغلبية، هي لبنان، دولة بالغة الصغر (هناك جدل حول ذلك الادّعاء، والحقائق غير واضحة، ولكن ذلك لا يؤثر في الحجة نفسها). وإلى الشمال من المضايق، فإن الدولة الوحيدة ذات الأغلبية المسلمة هي ألبانيا، التي هي أيضاً دولة متناهية في الصغر، ولا يصل إجمالي عدد السكان في أي من هاتين الدولتين إلى ١,٥ مليون نسمة. وتوجد الأقليات المسلمة التي يصل عددها الإجمالي إلى ٣,٣ ملايين نسمة في كل من يوغوسلافيا وبلغاريا واليونان ورومانيا. وهناك مليونان وثلاثمائة ألف مسلم في

تركيا الأوروبية، أما الأقليات المسيحية فتصل إلى حوالى ٣ ملايين نسمة في كل من مصر وسوريا وتركيا والعراق والأردن، بالإضافة إلى ١,٥ مليون أوروبي استوطنوا شمال افريقيا[١]. وفي كل من القسمين، اقتلع دين الأقلية من المكان الذي كان في ما سبق أحد أبرز مراكزه وأهمها. ففي شمال افريقيا، موطن القديس أوغسطين والقديس سيبيريان، تلاشت المسيحية الأصلية في القرن الثاني عشر؛ وفي اسبانيا، موطن ابن حزم وابن رشد، اختفى الإسلام في القرن السابع عشر.

بالإضافة إلى ذلك فقد حدثت عملية استقطاب في كل من النصفين عبر الأعوام المئة الأخيرة تقريباً، فنزح المسلمون إلى الجنوب الشرقي والمسيحيون المحليون إلى الشمال الغربي. وفي العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة نزح مئات الآلاف من الأتراك وغيرهم من المسلمين من الأجزاء الأوروبية للامبراطورية العثمانية المنحسرة واستوطنوا الأناضول، كما هاجر مئات الآلاف من اليونانيين والأرمن والعرب المسيحيين تجاه الغرب إلى أجزاء مختلفة من العالم. وقد عجلت اضطرابات الحرب العالمية الأولى ومآسيها بتلك العملية؛ فقد هاجر معظم الأرمن الذين ظلّوا يعيشون في تركيا، مثلهم في ذلك مثل ١,٢ مليون يوناني (الذين حلّ محلهم أكثر من ٦٠٠ ألف مسلم ناطق بالتركية أو اليونانية). وقد استمرت الهجرات الجماعية للأتراك من البلقان في فترة ما بين الحربين وارتفعت مرة أخرى عام ١٩٥٠/١٩٥١ نتيجة الطرد الجماعي من بلغاريا. ومن ثم استقبلت تركيا بين عامي ١٩٢٣ و١٩٥٤ أكثر من مليون مهاجر. وفي الوقت نفسه، تزايدت هجرة المسيحيين من النصف الجنوبي على نحو مطّرد، رغم أن الهجرة هنا لم تكن، أساساً، من المسيحيين الأصليين ـ وإن كان هؤلاء قد استمروا أيضاً في الهجرة ـ وإنما من الذين انحدروا من أصول أوروبية، وكان آباؤهم هاجروا واستوطنوا الأراضي العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان أكثر تلك الحركات أهمية حركة هجرة الايطاليين من ليبيا بعد العام ١٩٤٣، وهجرة الأوروبيين من جنسيات مختلفة من مصر بعد أزمة السويس عام ١٩٥٦، وهجرة الفرنسيين من المغرب وتونس، وبدرجة أقلّ من الجزائر. وقد بلغ عدد المهاجرين المسيحيين من تلك الدولة منذ الحرب العالمية الثانية حوالى ٥٠٠ ألف. ولم تنتهِ تلك العملية حتى الآن.

---

(١) هذه الأرقام ـ وهي أرقام تقريبية ـ تم تجميعها من مصادر عدة مختلفة:
Louis Massignon, ed., *Annuaire du monde musulman* (Paris: [s.n.], 1955); *Statesman's Yearbook; Encyclopaedia of Islam; Encyclopaedia Britannica,* and
المجموعات الاحصائية لبعض الدول. وقد حاولنا تقدير الأرقام الحالية على أساس هذه الأرقام.

ثانياً: الخلفية الجغرافية

يهدف هذا الفصل إلى تتبّع الخطوات التي وصل بها كلّ من الإسلام والمسيحية إلى حدوده الحالية، ولكن قبل القيام بذلك، من الضروري أن نلفت الانتباه إلى سمتين جغرافيتين يتميز بهما البحر المتوسط. **الأولى** أن الجزر الأساسية (صقلية وسردينيا وكورسيكا والبليار وكريت ومالطة) هي أقرب إلى النصف المسيحي منها إلى النصف الاسلامي، والاستثناء الوحيد من ذلك هو جزيرة قبرص. أما الجزر الأخرى (أرواد القريبة من الساحل السوري، وجزيرتا جربة وقرقنة القريبتان من الساحل التونسي، ومجموعة جزر لامبادوزا وبانتيلارية) فهي صغيرة الحجم. هذا السرد لأسماء الجزر يستبعد تلك الواقعة في البحرين المفتوحين على البحر المتوسط، وهما بحر ايجه وبحر الادرياتيك. **الثانية** هي اطلالة شبه جزيرة كبيرة على كل من طرفي البحر، وهما شبه جزيرة ايبريا من ناحية، وشبه جزيرة الأناضول من الناحية الأخرى، وهما اللتان تتساويان في المساحة تقريباً؛ فالأناضول تزيد بنسبة الخُمس على مساحة ايبريا. ويفصل كلاً منهما عن البر الرئيسي سلسلة عالية جداً من الجبال ـ جبال طوروس وجبال ارمينيا، ثم جبال القوقاز في الخلف (في شبه جزيرة الأناضول) وجبال البرانس (في شبه جزيرة ايبريا) ـ، وتمتد كل من شبه الجزيرتين تجاه المضيق الذي يفصلها عن البرّ المقابل. وسوف يتّضح أن الكثير من تاريخ التفاعل بين المسيحية والإسلام في حوض البحر المتوسط قد دار حول شبه الجزيرتين سالفتي الذكر.

ثالثاً: المراحل التاريخية

١ ـ ما قبل الاسلام

هناك سمة واحدة يجب الإشارة إليها في ما يتعلق بتاريخ حوض البحر المتوسط قبل الإسلام، فسواحل الأناضول كانت خاضعة لنفوذ إغريقي بالغ القوة، بينما خضعت سواحل شمال افريقيا وجنوب شرق اسبانيا لنفوذ قرطاجي، أقلّ قوة إلى حد كبير، ولكنه مع ذلك كان نفوذاً حقيقياً. بمعنى آخر، ارتبط كل من شبه الجزيرتين بروابط قويّة بكيان قدّر له أن يصبح عنصراً قوياً في الديانة التي هيمنت في ما بعد على شبه الجزيرة الأخرى وربما ساعد ذلك النفوذ الثقافي، الذي وجد منذ البداية، على تأخير عملية استيعاب ايبريا في المسيحية والأناضول في الإسلام.

٢ ـ الهجوم المبكر

لم يكد الإسلام يخرج على العالم من شبه الجزيرة العربية عام ٦٣٣ ميلادي حتى

اتجه إلى القسطنطينية. وقد بدأ الحصار الأول عام ٦٦٩، وكان الثاني بين عامي ٦٧٤ و٦٨٠، أما الثالث والأخير فكان عام ٧١٦م. وقد منيت الهجمات الثلاث بالهزيمة وانسحب العرب إلى سوريا. ومن ثم تبادل العرب والبيزنطيون خلال ثلاثة قرون الهجمات الحدودية، عبر خط كان يتحرك إلى الخلف وإلى الأمام على طول قاعدة شبه جزيرة الأناضول. وفي النصف الثاني من القرن العاشر، وتحت الحكم المقدوني القوي، اندفع البيزنطيون إلى عمق سوريا محتلّين حلب وبعلبك وعدداً من المدن الساحلية، ولكنهم اضطروا لاحقاً إلى العودة إلى قاعدتهم في الأناضول.

إلا أن المسلمين عبروا مضيق جبل طارق عام ٧١١ في الوقت نفسه الذي قاموا فيه بهجمتهم الأخيرة غير الناجحة على القسطنطينية، وفي بداية عام ٧٣٢ كانوا قد عبروا جبال «البرانس» ووصلوا إلى جنوب فرنسا، ثم هُزموا في معركة «تور» (Tours) واضطروا إلى التقهقر. وهنا أيضاً ظلت خطوط المعركة تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف في شمال اسبانيا. ومرة أخرى اندفعت الدولة الأموية القوية إلى عمق الأراضي المسيحية في النصف الثاني من القرن العاشر، وبلغت حملاتها أوجها بنهب سانتياغو دي كومبوستيلا في ٩٩٧. وفي الوقت نفسه، كانت هناك غارات بحرية عبر البحر المتوسط، فقد تكررت هجمات المسلمين على السواحل الايطالية والفرنسية في القرنين التاسع والعاشر، كما تكررت هجمات المسيحيين على سواحل شمال افريقيا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

٣ ـ الاستيلاء على شبه الجزيرتين

لم يجد كلّ من حنا تزيمسكس والمنصور، الخليفة المناسب لكل منهما، وسرعان ما اتضح ضعف الامبراطورية البيزنطية من ناحية والدولة الاسلامية في اسبانيا من ناحية أخرى، على نحو درامي. وانتصر الأتراك تحت حكم السلاجقة في عام ١٠٧١ في معركة مانتزيكرت (ملازجرت) الفاصلة التي فتحت أمامهم كل شبه جزيرة الأناضول وهيّأت لهم شنّ غارات وصلت إلى بحر مرمرة، وفي الوقت نفسه أدّى الهجوم المسيحي في اسبانيا إلى الاستيلاء على طليطلة التي لا تقل أهمية، وذلك في عام ١٠٨٥. وهذا ما أدى إلى فتح الطريق إلى الأندلس والجنوب الاسلامي، وسمح للإسبان بشن غاراتهم التي وصلت حتى قادش.

وقد أدت هاتان الكارثتان إلى إثارة ردود أفعال قوية من جانب جيران الضحايا من الأقوياء الذين يشاركونهم الديانة والذين هبّوا عبر المضايق لنجدتهم. ففي الشرق، كانت الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦، وتلتها حملات عدة أخرى. وقد نجحت هذه الحملات في دفع السلاجقة إلى الوراء، نوعاً ما، الأمر الذي أجّل

لقرون عديدة استيلاء المسلمين على بيزنطة، غير أن هذه الحملات كانت ذات أثر مدمّر على الهيكلية الاجتماعية والثقافية. وفي الغرب عبر المرابطون عام ١٠٨٦ من افريقيا إلى اسبانيا. وبهزيمة الإسبان في الزلاّقة، أعطيت اسبانيا المسلمة فرصة أخرى للحياة. وقد تبع ذلك الموحّدون في عام ١١٤٥. وهنا أيضاً كان الثمن الباهظ هو التدهور الحضاري والتعصب الديني.

وقد استؤنف التقدم الذي توقّف في شبه الجزيرتين بعد قرن من الزمان، أو ما يزيد؛ ففي الأناضول، تقهقر السلاجقة الغزاة مع نهاية القرن الثاني عشر تجاه المضايق، وحلّ محلهم في القرن الرابع عشر العثمانيون الذين كانوا أكثر قوة، والذين خطوا بذلك أولى خطواتهم في أوروبا في عام ١٣٥٤م. وفي الغرب، نتج عن انتصارات فرديناند الثالث التي تبعت معركة لاس نافاس دو تولوزا الحاسمة.في عام ١٢١٢، الاستيلاء على جنوب اسبانيا عملياً، وهو الانتصار الذي تأكد بانتصار ريوسالاد ـ في عام ١٣٤٠. وقد كان فرديناند يحتل بالفعل بعض الحصون الافريقية، وفي عام ١٤١٥ بدأ البرتغاليون هجوماً منظماً على افريقيا بالاستيلاء على سبتة.

في هذه المرحلة، كان مصير بقايا الامبراطوريتين ـ القسطنطينية وما حولها ومملكة غرناطة ـ قد تقرر، وإن كان انهيارهما قد تأجل بسبب سوء الحظ الذي وقع فيه أعداؤهما، فانتصار تيمورلنك على بايزيد الأول في أنقرة عام ١٤٠٢ كان من شأنه أن هزّ الدولة العثمانية، واستغرق الأمر نصف قرن آخر حتى استطاعت الدولة أن تستعيد قوّتها من أجل مهاجمة القسطنطينية والاستيلاء عليها في عام ١٤٥٣. كما أدّى العداء بين قشتالة وأرغونة والبرتغال، والفوضى الاقطاعية التي سادت آنذاك، بالإضافة إلى حروب الخلافة، إلى تأخير الاستيلاء النهائي على غرناطة حتى عام ١٤٩٢. وقد أدّى سقوط كل من المدينتين إلى اثارة مشاعر عميقة لدى المسلمين والمسيحيين. ولكن لم يؤدِّ سقوط أيّ منهما إلى أي عمل ايجابي من جانب الإخوان في الدين لأيّ من الطرفين المهزومين من أجل الانتقام، حتى حين أرسلت غرناطة التماساً يائساً إلى اسطنبول، حديثة الإسلام، وهو تكرار لما حدث قبل ذلك بخمسين عاماً حين تقدمت القسطنطينية بالطلب نفسه إلى العالم المسيحي.

٤ ـ الصراع بين شبه الجزيرتين

لقد خيّم على معظم القرن السادس عشر جو من الصراع المرير بين شبه الجزيرتين، وهما اللتان شكّلتا الأساس لقوتين عالميتين كبيرتين: اسبانيا شارل الخامس وفيليب الثاني، وتركيا سليم الأول وسليمان. ويمكن هنا أن نضيف، على نحو اعتراضي، أن عدد سكان شبه الجزيرتين كاد أن يتساوى: اسبانيا حوالى ثمانية

ملايين، والبرتغال مليون واحد، بينما كان يسكن الأناضول ما يزيد على خمسة ملايين بالإضافة إلى ستة ملايين آخرين في تركيا الأوروبية(٢).

لم تصطدم القوتان مباشرة في البحر المتوسط فحسب، وإنما سعتا إلى التوسع نحو اليابسة، فقد تقهقر العثمانيون من فيينا عام ١٥٢٩. وفي العام نفسه، طُرد الاسبان من الجزائر بمساعدة عثمانية. وقد جدّدت كل من القوتين هجماتها وسجّلت نجاحات ملحوظة (مثل الاستيلاء على تونس في عام ١٥٣٥ وبودا في عام ١٥٤١) غير أنه لم يكن لأي منهما أن تركز كل قواتها على الأخرى، حيث كانت كل منهما في نزاع مع قوة أخرى وتواجه تهديداً بحدوث انشقاق ديني على أطرافها. كانت القوة الأخرى المتنازعة مع اسبانيا هي فرنسا، وكان الانشقاق الديني يتمثل في البروتستانتية. بينما كانت القوة المنافسة للدولة العثمانية هي إيران، وتمثّل الشقاق الديني في الشيعة. في الوقت نفسه يمكن القول إن القوة الايبرية الأخرى، أي البرتغال، كانت تقوم بجهود يائسة من أجل غزو المغرب، وكانت تحارب بضراوة ضد الأتراك في البحر الأحمر(٣).

وقد بقي الاسبان في شمال افريقيا حتى القرن الثامن عشر، وانسحبوا مع الفرنسيين والايطاليين، في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ بينما بقي العثمانيون في البلقان حتى القرن العشرين، غير أنهم قد مُنوا جميعاً بالفشل في النهاية، وذلك ليس فقط لأنهم فقدوا امبراطورياتهم وإنما - وهو الأهم - لأن الديانة والثقافة الأساسيتين لرعايا هاتين الامبراطوريتين لم تتغيرا.

٥ - الجزر

إذا أردنا شرح تاريخ الجزر بإيجاز، يمكننا القول إنه قد نتج من الهجوم الاسلامي في الفترة من القرن الثامن وحتى العاشر احتلال كلي، أو جزئي، لقبرص

(٢) الأرقام الخاصة باسبانيا والبرتغال مأخوذة عن:

Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Colin, 1949), p. 348.

أما الأرقام المذكورة بشأن الامبراطورية العثمانية فهي مأخوذة عن:

Omar Lutfi Barkan, «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire ottoman aux xve and xvie siècles,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 1, part 1 (1957).

(٣) تتضمن النقاط الأخرى المثيرة في العلاقة بين شبه الجزيرتين: أ - المحاولات المتوازية من جانب كل منهما لتشكيل حلف مع العدو الرئيسي للطرف الآخر، تركيا مع فرنسا واسبانيا مع ايران. ب - هجرة اليهود من ايبريا إلى الامبراطورية العثمانية حيث لاقوا الكثير من الترحيب. ج - الاقليمية التي سادت في الامبراطوريتين حتى التوحيد في القرن الخامس عشر. د - التعايش الثقافي بين المسلمين والمسيحيين واليهود في كل منهما إلى أن أفسد التعصب الديني المتزايد في المؤسسات الدينية العثمانية والاسبانية كل آثار التسامح التي أرساها الحكّام في السابق. أنا مدين بمثل هذه الأفكار وغيرها إلى الأستاذ برنارد لويس.

وكـريت وصقلية ومـالطة وجـزر البليار، كـما نتج منـه حـدوث غـارات متكـررة عـلى كورسيكا وسردينيا. ولكن مع انتقال القوة البحـرية إلى المسيحيـين في القرنـين العاشر والحادي عشر، تم استعادة كل تلك الجزر. وقد أعاد الأتراك غزو قـبرص وكريت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولكنهم لم يغيّروا الصفـة المسيحية الأصليـة لهما. وباستثناء جزيرة أرواد القريبة من شواطىء سوريا وجزيرتي قرقنة وجربة القريبتين من تونس، تكون قـبرص هي الجزيـرة الوحيـدة التي يقطنهـا مسلمون، إذا مـا أخذنـا في الاعتبار أن جزيرة كريت قد فقدت مسلميها بعد الحرب العالمية الأولى.

رابعاً: عوامل بارزة

لا بد لأي محاولة لشرح الظواهر التي سبقت الإشارة إليهـا من أن تعالـج ثلاثـة أسئلة مستقلة، وإن كانت مرتبطة بعضها بالبعض الآخر: ما هي العوامـل التي أثّرت في الوضع العام للحدود المسيحيـة ـ الاسلاميـة؟ وما هي العـوامل التي نتـج منها ضمّ الأناضول إلى المنطقة الاسلامية، وايـبريا إلى المنـطقة المسيحيـة؟ ثـم، ما هي العـوامل التي حددت توالي الأحداث؟

١ ـ الحدود المسيحية ـ الاسلامية

هناك تفسيرات مختلفة لفشل الاسلام في تحقيق المزيد من الانتشار شمـالاً. وقد بنيت بعض هذه التفسيرات عـلى الجغرافيـا الطبيعيـة، وكان أكـثرها وضـوحاً التفسـير الـذي يعزو ذلـك إلى وجود البحـر المتوسط. فعـلى الرغم من أن الاسـلام انتشر عـبر البحار، خاصة في شرق افريقيا واندونيسيا، فإن معظم تقدمه كان بريّاً، كما أن وجود مساحة كبيرة من الماء ـ عادة ما كان ساحة للحروب أكثر منه قنـاة للتجارة ـ قـد شكّل عقبة خطيرة. ومـرة أخرى، لقـد أطلق ابن خلدون منذ حـوالى ستة قـرون على أحـد فصول مقدمته عنوان «في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط»[٤]. وفي الواقع، فإن الإسـلام قد انتقـل إلى معظم الأقـاليم الجبلية الـواقعـة عـلى حـدود الـوطن العـربي (الأناضول، القوقاز، اسبانيا، وإلى حد ما المغرب) أساسـاً على يـد الأتراك والـبربر. وربما كانت الجبال المرتفعة في جنوب أوروبا أحد الموانع الفعالة التي حالت دون الغزو والتوسع العربي والاسلامي.

---

(٤) Ibn Khaldūn, *Prolégomènes d'Ebn Khaldoun,* texte arabe publié d'après les manuscrits de la bibliothèque impériale par M. Quatremère (Paris: Institut impérial de France, 1858), vol. 1, p. 269.

وهناك تفسير جغرافي آخر مكمّل للأول، يعتمد على المناخ. لقد نما الإسلام وتكيّف مع الإقليم الجاف. وكان الموطن الرئيسي للمسلمين هو المساحة الشاسعة الممتدة بين المحيط الاطلسي غرباً والصين شرقاً، حيث الجفاف المتميز ظاهرة تمتد طوال العام، أو تحدث على نحو موسمي على أقل تقدير[٥]. لقد لعبت الغابات الاستوائية الواقعة إلى الجنوب من هذه المنطقة، لقرون عديدة، دور الحاجز في وجه الإسلام. ولم يستعد الاسلام تقدّمه نحو الجنوب إلا حديثاً، وهو الأمر الذي ساعد عليه الاستيطان الأوروبي لتلك المناطق، والتحسّن في وسائل الاتصال، وانتشار الطب الحديث، إلا أن غابات الشمال كانت عقبة لا يمكن تخطيها. وقد يكون التفسير الممكن لهذه المقاومة، أنه في مناطق مثل جبال البلقان المغطاة بشجر البلوط، وفي أرض الحضارة الصينية، فإن الحظر الذي فرضه الإسلام على تناول لحم الخنزير قد أبطأ من انتشار الاسلام[٦]. كما أن تربية الخنازير هي واحدة من أهم الأشكال التقليدية للحياة في البلقان، رغم أنه يجب أن نضيف أن تربية الخنازير كانت منتشرة في الأناضول أيضاً.

ويقودنا هذا إلى تفسير ثالث ذي طبيعة سوسيولوجية؛ فرغم أن للإسلام جذوره الأصلية في مكة والمدينة، فقد انتشر بسرعة بين البدو، وهم الجماعات الأكثر تكيّفاً مع الحياة في المناطق الجافة، وكما قال أحد الجغرافيين الفرنسيين:

«يبدو أن حدود الاسلام تتطابق بعمومية شديدة مع الحدود البدوية الرعوية، أو على الأقل مع الأقاليم التي يمكن أن يؤثر فيها البدو سياسياً، ويوضّح التمايز بين السواحل الاسلامية والسواحل المسيحية للبحر المتوسط على نحو دقيق الفارقُ بين ساحل يسيطر عليه البدو بالكامل، وهم الذين يجدون موطنهم الطبيعي في الصحارى المجاورة، وبين ساحل يندمج على نحو كامل في حضارة زراعية قوية يتلاشى أمامها أي غزو بسهولة»[٧]. وكما أوضح الكاتب نفسه، يصدق ذلك أيضاً على الحدود الجنوبية للإسلام في افريقيا[٨].

ويركّز تفسير اجتماعي آخر، مكمّل للأول قدّمه أيضاً بلانول على الدور المحوري للمدن وطرق التجارة في الاختراق السلمي للإسلام: «يبدو إذن أن توسّع الإسلام يرتبط بوسائل الاتصال، إذ ينتشر الدين عبر طرق التجارة وفي المناطق الساحلية، ولكنه يتعثر

---

(٥) Charles Philip Issawi, «The Bases of Arab Unity,» *International Affairs*, vol. 31, no. 1 (January 1955), p. 36.
والخرائط في: Peveril Meigs, *World Distribution of Arid and Semi-Arid Homoclimates*, Unesco Mimeographed Document; NSI/A 21/37/ Rev. (Paris: UNESCO, 1952).

(٦) Xavier de Phlanhol, *The World of Islam* (Ithaca, N.Y.: [n.pb.], 1959), p. 121.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٨) انظر أيضاً الملاحظات عن «قوة الصحراء» في:
Bernard Lewis, *The Arabs in History* (London: Hutchinson University Library, 1958), p. 55.

أمام كل العقبات الطبيعية التي تعوق الحياة الاجتماعية (الامتداد الجبلي والمساحات ذات الغابات الكثيفة)، كما يتعثّر أيضاً أمام جمود سكان الريف. ويمكن تخيل الدين الإسلامي وكأنه نوع من الاخطبوط العملاق تمتد أذرعه لتصل بعيداً إلى الطرق الرئيسية، وتمتد في مسافات تبعد كثيراً عن جسده الرئيسي»[٩].

ويتناسب هذا التفسير كثيراً مع توسّع الاسلام في شرق افريقيا وجنوب شرق آسيا. فقد سيطر المسلمون ـ إلى حين الاقتحام البرتغالي في بداية القرن السادس عشر ـ على المحيط الهندي، وكانوا تجّاره الرئيسيين. إنما على الرغم من هيمنة المسلمين معظم سني القرنين التاسع والعاشر على البحر المتوسط، واستيلائهم على معظم جزره، إلا أنهم لم يسيطروا أبداً على التجارة بين العالم المسيحي والعالم الاسلامي، التي كانت ذات أهمية ضئيلة بالنسبة إلى المسلمين ـ على عكس أهميتها بالنسبة إلى الأوروبيين ـ مقارنة بالتجارة الشرقية، تلك التجارة التي كانت قبل الفتح الاسلامي تحت سيطرة السوريين وغيرهم من سكان الشرق الأوسط والتي ظلت في يد البيزنطيين[١٠]، ثم انتقلت إلى الايطاليين الجنوبيين (الأمالفيين والنيبوليتانيين وغيرهم)، ثم إلى الإيطاليين الشماليين (البيزانيين وأهالي جنوى والبندقية وفلورنسا) وكذا أهالي بروفينسا وكاتالونيا. ومع بداية القرن الحادي عشر انتقلت القوة البحرية بلا منازع إلى أيدي المسيحيين، واستمرت كذلك، باستثناء فترة انقطاع وجيزة في القرن السادس عشر[١١].

ويمكن أن نذكر باختصار تفسيرين آخرين يعتمدان على العلاقات طويلة الأمد بين الحضارات الكبرى، أولاً أشار غوتييه إلى أن الحدود الواقعة في أقصى غرب أرض الإسلام تتطابق مع حدود الحكم القرطاجي في جنوب شرق إسبانيا وصقلية[١٢]. غير أن هناك تطابقاً أفضل بين حدود الوطن العربي والمنطقة التي سكنتها شعوب ساميّة مختلفة قبل الفتح الإسلامي[١٣]. ثانياً، هناك قضية العلاقة بين الحضارات الثلاث

---

(٩) Phlauhol, Ibid., p. 104.

(١٠) كان اليهود الرادانيون يقومون بتجارة محدودة الحجم عبر اسبانيا وفرنسا.

(١١) هذا الموضوع تمت مناقشته في كتاب ممتع، ولكن لا يفضل دائماً الاعتماد عليه وهو:

Archibald Ross Lewis, *Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100*, Princeton Studies in History; 5 (Princetou, N.J.: Princeton University Press, 1951).

وفي المساهمة الممتازة التي قدمها روبرت لوبز:

Robert Sabatino Lopez, «The Trade of Medieval Europe: The South,» in: Moissey Postan and E.E. Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1952), vol. 2: *Trade and Industry in the Middle Ages*.

(١٢) Emile Felix Gautier, *Mœurs et coutumes des musulmans*, préface de Jacques Berque, collection historia; 19 (Paris: Club du meilleur livre, 1948), p. 142.

(١٣) Issawi, «The Bases of Arab Unity».

الرئيسية للعالم الغربي في العصور الوسطى: **الحضارة الاسلامية، الحضارة المسيحية، الأورثوذكسية، والمسيحية الغربية**، إذا شئنا استخدام المصطلحات التي أتى بها توينبي (Toynbee). ولكن يمكن دراسة هذا الأمر على نحو أفضل تحت العنوان التالي:

٢ ـ دمج الأناضول في الاسلام واعادة دمج ايبريا في المسيحية

ربما تساعد بعض العوامل التي سبقت الإشارة إليها على شرح السبب في ضم الاسلام إلى الأناضول في النهاية، في الوقت الذي فشل في الاحتفاظ بإيبريا. **أولاً**، إن شبه جزيرة الأناضول هي منطقة أكثر جفافاً من ايبريا على نحو متميِّز، فنصيبها من الأمطار ـ طول العام ـ أقل، وموسمها الجاف أطول. كما أنها تحتوي على مساحات أوسع من الأراضي الجافة(١٤). **ثانياً**، إن قلب شبه جزيرة الأناضول أقل انقساماً من قلب شبه جزيرة ايبريا، وهناك حواجز أقل تحول دون تقدم الغازي إذا نجح في اختراق سلسلة الجبال التي تحيط بالأناضول. **ثالثاً**، وكنتيجة لهاتين الظاهرتين، هناك السهل المركزي الشاسع والجاف في الأناضول، وهو السهل الذي وفّر الظروف المثالية، منذ عصور ضاربة في القدم، لنمو جماعات البدو الرعوية المرتبطة على نحو وثيق بالإسلام، وجعل من الممكن لهؤلاء البدو أن يتزايدوا في العدد، ويكتسبوا قوة كافية للتغلب على السكان الزراعيين المستقرين في هامش السهل.

هناك اختلاف آخر، أكثر أهمية، بين شبه الجزيرتين، وهو أن الأناضول تقع بالقرب من منطقة قلب الإسلام العربية الفارسية، بينما تقع ايبريا بالقرب من قلب المسيحية الغربية، المنطقة الفرنسية ـ الإيطالية. لقد دخل الإسلام الأناضول عن طريق الأتراك الذين تحوّلوا إلى الإسلام وتحضّروا في طريق هجرتهم عبر الدول العربية والفارسية. لقد حاول الإسلام أن يستخدم البربر للغرض نفسه في اسبانيا، لكنه هنا كان يعمل بعيداً جداً عن قاعدته. فشمال افريقيا لا يقارن بإيران والشام كأرضية للتدريب الثقافي، ولم يكن للبربر أن يضارعوا الجلالقة والفرنجة، الذين يستمدون القوة من منطقة قلب اليابسة المسيحية المجاورة.

ويقودنا هذا إلى عامل لا يزال أكثر أهمية، وهو العامل الثقافي. فقد استولى

---

(١٤) الجفاف الأكبر للأناضول، والطول الأكبر لموسمه الجاف، قد تم توضيحهما في الخرائط التي تبيّن معدل سقوط الأمطار السنوي والفصلي.

Food and Agriculture Organization (FAO), *FAO Mediterranean Development Project* (Rome: FAO, 1959), p. 8, and *Oxford Atlas* (1958), pp. i-v.

ومن خلال الخرائط التي توضح الأقاليم المناخية من تلك الموجودة في:

Meigs, *World Distribution of Arid and Semi-Arid Homoclimates*, and *Goode's World Atlas* (1960), pp. 8-9.

العرب على اسبانيا من القوط الآريين، واستولى الأتراك على الأناضول من البيزنطيين وانتزعوا البلقان من الشعوب الأورثوذكسية، غير أن لا العرب ولا الأتراك نجحوا في اختراق عمق الحكم القاري للحضارة المسيحية الكاثوليكية الأكثر صرامة، ولا أن يسيطروا لفترة طويلة على أجزاء كبيرة منها[١٥].

وتقود المقارنة بين الحضارات الثلاث في العصور الوسطى والحديثة إلى النتائج التالية: إن الحضارة الأورثوذكسية، على الرغم من أنها أشدّ بأساً مما قد يوحي به تعبير «البيزنطية» أو «التفسخ البيزنطي»، وعلى الرغم من أنها قد أثبتت نفسها كقوة عظيمة، لقرون طويلة، أمام أي هجوم خارجي، ورغم ما برهنت عليه من إبداع داخلي ملحوظ، فإنها استسلمت أمام الغزو الإسلامي في النهاية. وأثبتت الحضارة الاسلامية أيضاً نفسها كقوة عظيمة في كثير من الميادين الاقتصادية والعلمية ومجال الإبداع الفني، وإضافة إلى سحقها بيزنطة (التي أضعفتها الحملات الصليبية) فقد حققت انجازات في عمق حضارة الهندوس. إنما لا يمكن مقارنة أيّ من تينك الحضارتين (الأورثوذكسية والاسلامية) بالحضارة المسيحية الغربية الصاعدة، التي لم يشهد العالم مثيلاً لها حتى الآن في قوتها وعنفوانها. لقد بدأت الحضارة المسيحية الغربية هجومها على الإسلام في القرن الحادي عشر في اسبانيا وصقلّية وشمال افريقيا، بل وفي تلك المنطقة الأكثر قرباً من قلب العالم الاسلامي، أي في فلسطين؛ ومع كل عام يمر كان العالم المسيحي الغربي يجني قوة اقتصادية وثقافية على حساب الإسلام، بل يكتسب قدرة أكبر على الصمود في الحرب بوجه عام.

في تلك الظروف، فإن ما يحيّر ليس أن الإسلام لم ينتشر أكثر ناحية الشمال، بل أن الهجمات المضادة للعالم المسيحي في القرون الثاني عشر والسادس عشر والتاسع عشر لم يكن لها سوى أثر ضئيل جداً في المجال الديني. فعلى الرغم من الفترات الطويلة للاحتلال الأوروبي، لم تشهد أي من الدول الاسلامية في افريقيا أو آسيا، أي تحوّل جوهري إلى المسيحية أو انضمام دائم إلى العالم المسيحي، وهذا هو الدليل الأكبر على القوة المستمرة للإسلام.

توالي الأحداث

يجب أن يثار هنا السؤال حول العوامل المحددة لتوالي الأحداث التي شرحناها في ما سبق، ولكن على الكاتب أن يعترف أيضاً بعدم قدرته على الإجابة عنه. إن

---

(١٥) هزم العرب في تور واستولوا على مناطق من جنوب ايطاليا لفترات وجيزة فقط. وقد هزم الأتراك أمام فيينا وفيشنزا وتارانتو. واستولوا على كرواتيا وأجزاء كبيرة من المجر لفترة قصيرة نسبياً.

التوازي الملحوظ بين تطوّر الأحـداث في طرفي البحـر المتوسط وتـزامن المدّ والجـزر في كل من المنطقتين، هو بـالقطع أكـثر من مجرد مصـادفة أو خـداع بصر. وربما ينـطوي ذلـك عـلى بعض الإيقـاعـات العميقـة، التي لم يستكشفهـا بعـد في تـاريـخ اتصـال الحضارات، فالسؤال مثير، لكنه لم يجد الإجابة عنه بعد. . .

الفصل الثاني

المساحة والسكان في الامبراطورية العربية

أشار أحد الكلاسيكيين البارزين إلى أنه «ليس ثمة موضوع من الموضوعات ذات الأهمية في العلم الكلاسيكي فيه أفكارنا أكثر إبهاماً، بل نكاد نرفض التفكير فيه أصلاً (بسبب نقص دلالة) مثلما عليه الحال في موضوع السكان»[1]. وأسباب ذلك ليست مستعصية، إذ تعتمد الدراسات الديمغرافية على الإحصاءات. وكما ذكّرنا أحد كبار علماء التاريخ الاجتماعي، فإنه «لا يمكن أن تكون هناك احصاءات إلا إذا كان هناك من قد قام في البداية بالعدّ، وهو ما لم يحدث عبر التاريخ وذلك حتى العصر الحديث نسبياً»[2]. ويصدق هذا على وجه الخصوص على الشرق الأوسط الاسلامي، فقد كانت عملية عدّ الأشياء، وحتى العصر العثماني، تحدث على نطاق ضيّق للغاية، بل تحدث على نطاق ضيّق في ما يتعلق بعدّ الأشخاص. في مثل هذه الظروف، لكي تصدق عبارة هوبسباوم: نحن لا نملك احصاءات، «إنما نملك فقط تقديرات تعتمد على معلومات، أو نملك على نحو آخر تخمينات طائشة»، فإن أفضل ما يمكن توقّعه هو تقديرات للأوزان النسبية. وحيث إن الأمر كذلك، تكاد الأدوات الوحيدة المتاحة أمام عالم التاريخ المعني بالديمغرافيا تكون هي «الإسقاط المنطقي»[3]، وجمع البيانات المبعثرة عن المدركات والمقارنة بينها. وقد تم استخدام هذه الأدوات جميعاً في هذه الدراسة. لقد بُني الاسقاط المنطقي على الماضي على الأرقام المتاحة عند بدايات القرن التاسع عشر، أما

---

(١) Arnold Wycombe Gomme, *The Population of Ancient Athens* (Chicago, Ill.: [n.pb.], 1927), p. 1.

(٢) Eric J. Hobsbawm, *Industry and Empire: An Economic History of Britain Since 1750* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1968), p. 11.

(٣) الاسقاط المنطقي (Extrapolation) هو مد استنتاج منطقي على استقامته للتعرّف إلى ما كانت عليه الوقائع في الماضي (Backward) أو استشراف ما يمكن أن يكون عليه في المستقبل (Forward). (المترجمة).

الإسقاط المنطقي على المستقبل، فقد بُني على التقديرات المختلفة المتاحة عن الامبراطورية الرومانية، بعد أن تمّ تنظيمها جميعاً في ضوء ما نعرف عن التاريخ السياسي والاقتصادي والطبي للبلدان المعنية بالدراسة.

وقد استخدمت البيانات المتاحة عن الضرائب والمناطق المزروعة وحجم المدن وحجم الجيوش من أجل ضبط تقديرات الأحجام التي يتمّ التوصّل إليها. وفي النهاية، يجري المزيد من المراجعة عن طريق مقارنة أرقام اجمالي عدد السكان وكثافتهم، التي تم اشتقاقها، بالأرقام المماثلة عن الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والعثمانية، التي سيطرت مع العرب على إقليم البحر المتوسط لما يقرب من ألفي عام. ولست في حاجة إلى التذكير بأن هذا البحث اشتقاقي بدرجة كبيرة: فهو لا يمثّل دراسة أولية، وإنما يعتمد أساساً على أعمال الباحثين الآخرين، وخاصة على أعمال جوسيا راسّل. كما يتّسم هذا البحث باعتماده درجة عالية من الحدس. وتتميز النتائج التي يقدمها بأنها غير نهائية.

إن التقديرات الديمغرافية ليست حدسية فقط، إنما هي عرضة للمراجعة الدقيقة طبقاً للدلائل التاريخية والأثرية الجديدة ووفقاً للمزاج السائد. وقد أرسى ديفيد هيوم ذلك الأسلوب، حين قوّض ـ في مقاله الذي يعدّ نموذجاً للمحاجّة في المسائل الاجتماعية والتاريخية ـ ما أكده مونتسكيو من أن سكان العالم في عصره لم يشكلوا $\frac{1}{50}$ مما كانوا عليه في عهد يوليوس قيصر. وأوضح على نحو مقنع، على العكس من ذلك، أن عدد السكان زاد على نحو ملحوظ[4]. وقد استمرت دورات التقدير منذ ذلك الحين. وتمثل أرقام بيلوخ عن الامبراطورية الرومانية، التي سوف نشير إليها في ما بعد، انخفاضاً حاداً عن التقديرات السابقة عليها، وقد تمّ مراجعتها ورفعها خلال السنوات الخمسين التالية لها، غير أن هذه المراجعات قد خفّضت في العقدين الأخيرين، خاصة تلك المتعلقة بحجم المدن. وهناك دورات مماثلة يمكن ملاحظتها في ما يتعلق بالتقديرات الخاصة بأجزاء أخرى من العالم؛ فعلى سبيل المثال لم يثق الكثيرون في الأرقام الكبيرة التي سجّلها الكتّاب الاسبان الأوائل عن السكان في المكسيك، غير انها استعادت الثقة بها حديثاً[5]. كذلك تتذبذب التقديرات الخاصة بالشرق الأوسط وشمال افريقيا إلى أعلى وإلى أسفل.

---

(٤) David Hume, «Of the Populousness of Ancient Nations,» in David Hume, *Essays: Moral, Political and Literary* (London: Oxford University Press, 1963).

(٥) انظر: John Horace Parry, *The Spanish Seaborne Empire,* History of Human Society (New York: Knopf, 1966), p. 215.

أولاً: الامبراطورية الرومانية، القرن الثاني الميلادي

تبدأ تقديرات المساحة وعدد السكان الخاصة بالامبراطورية الرومانية بدراسة بيلوخ الممتازة(٦)، التي ظلت تمثّل، لما يقرب من قرن، نقطة البداية لكل ما تلاها من أعمال. إلا أن تقديراته التي تقضي بأن المساحة كانت ٣,٣٤٠,٠٠٠ كلم² وإن عدد السكان بلغ ٥٤ مليوناً عند وفاة اغسطس قيصر عام ١٤م كانت أقلّ من الواقع، سواء بالنسبة إلى المساحة أو السكان عند أقصى درجة لهما. إذ لم يغطّ جدول بيلوخ المساحات التي تمّ غزوها في القرنين الأول والثاني الميلاديين:

بريطانيا وموريتانيا تينغيتانا والبتراء(٧) العربية وداسيا(٨)، التي تضمّن الجدول رقم (١ ـ ١) تقديرات عنها(٩). والأهم من ذلك أن كل الباحثين تقريباً يجمعون على حدوث نمو في عدد السكان لمدة قرنين بعد عهد أغسطس. ويلخص الجدول رقم (٢ ـ ١) المعلومات المتاحة، إذ يقدّم العمود الأول أرقام بيلوخ عن المساحة مع تقديرات تقريبية أضافها الكاتب (ما بين القوسين). ويعيد العمود الثاني تقديم أرقام بيلوخ عن السكان، ثم يقدّم العمود الثالث مختلف التقديرات عن عدد السكان في القرنين الأول والثاني الميلاديين التي سوف نناقشها في ما بعد.

أقسام الإمبراطورية

تنقسم الأجزاء المكوّنة للامبراطورية إلى ٣ مجموعات طبقاً لتاريخها اللاحق: **المجموعة** (أ) وهي التي تضمّ تلك البلدان التي فتحها العرب، **والمجموعة** (ب) وتتضمن تلك البلدان التي ظلت تحت الحكم البيزنطي بعد الغزو العربي الأول. أما **المجموعة** (ج) فهي تتكون من كلّ ما عدا ذلك من بلدان.

أ ـ إسبانيا

كانت النظرة السائدة لبعض الوقت هي أن الرقم الذي أتى به بيلوخ لعدد السكان وهو ٦ ملايين كان أقل من العدد الفعلي لسكان شبه جزيرة ايبريا، وأن

(٦) Julius Beloch, *Die Bevölkerung der Griechisch-Römischen Welt* (Leipzig: [n.pb.], 1886).

(٧) البتراء: مدينة أثرية في جنوب الأردن بين البحر الميت وخليج العقبة، وكانت مركزاً تجارياً هاماً وطريقاً للمواصلات في عهد الرومان.

(٨) داسيا تضم رومانيا وبلغاريا الحاليتين.

(٩) لم تؤخذ في الاعتبار فتوحات الامبراطور تراجانوس الشرقية في بلاد ما بين الرافدين وغيرها إذ إن خليفته هادريانوس قد تخلى عنها.

جدول رقم (٢ - ١)
المساحة وعدد السكان في الامبراطورية الرومانية

	(١) المساحة (بالألف كلم٢)	(٢) عدد السكان في سنة ١٤م (بالمليون)	(٣) عدد السكان في القرن الثاني (بالمليون)
المجموعة الأولى			
اسبانيا	٥٩٠	٦,٠	٦,٠ - ٧,٠
صقلية	٢٦	٠,٦	٠,٧ - ٠,٩
شمال افريقيا	٤٠٠	٦,٠	٤,٠ - ٥,٠
برقة	١٥	٠,٥	٠,٥
مصر	٢٨	٥,٠	٦,٠ - ٧,٠
سوريا	١٠٩	٦,٠	٥,٠ - ٦,٠
أضف			
موريتانيا	(١٠٠)	—	٠,٥
البتراء	(١٠٠)	—	—
	١,٣٦٨	٢٤,١	٢٢,٧ - ٢٦,٩
المجموعة الثانية			
أقاليم الدانوب	٤٣٠	٢,٠	٢,٠
شبه جزيرة اليونان	٢٦٧	٣,٠	٣,٠
أقاليم آسيا	١٣٥	٦,٠ }	١٠,٠ - ١٣,٠
مناطق آسيوية أخرى	٤١٢	٧,٠ }	
أضف			
قبرص	١٠	٠,٥	٠,٥
داسيا	(١٠٠)	—	٠,٥
	١,٣٥٤	١٨,٥	١٦,٠ - ١٩,٠
المجموعة الثالثة			
إيطاليا	٢٥٠	٦,٠	٨,٠ - ١٥,٠
سردينيا وكورسيكا	٢٣	٠,٥	٠,٥
ناربونتسيس	١٠٠	١,٥ }	٨,٠ - ١٢,٠
بلدان الغال الثلاثة	٥٣٥	٣,٤ }	
أضف			
بريطانيا	(١٥٠)	—	٠,٥ - ١,٥
	١,٠٦٨	١١,٤	١٧,٠ - ٢٩,٠
المجموع الكلي	٣,٧٩٠	٥٤,٠	٥٥,٧ - ٧٤,٩

المجموع الكلي قد ازداد على نحـو ملحوظ حتى نهايـة القرن الثـاني الميلادي، غـير أن التقديرات الأكـثر حداثـة عادت تعـطي، مرة أخـرى، أرقامـاً أقلّ لمجمـوع السكان.

ويرى بوشييه أن عدد السكان تضاعف ما بين وفاة قيصر وتتويج هادريانوس، وهو الرأي الذي قبله فان نوستراند[١٠]. أما مينديز بيدال فقد اعتبر مجموع السكان ٩ ملايين، أو بالأحرى ١٢ مليوناً، وهو رقم اعتبر مرتفعاً للغاية من جانب الباحثين المعاصرين بمن فيهم راسل الذي خفّض هذا الرقم مرة أخرى إلى ٦ ملايين[١١]. وقد أشار جدول رقم (٢ ـ ١) إلى رقم يتراوح بين ٦ ـ ٧ ملايين.

ب ـ صقلية

اعتبر سكراموزا الرقم الذي قدّمه بيلوخ (٦٠٠ ألف) رقماً يتّسم بالحذر والتحفظ الشديدين ومضى يقول: «إن تقديرنا للرقم بحوالى ٧٥٠ ألفاً ربما يكون الأقرب إلى الرقم الفعلي»، لذا قدّم الجدول رقماً يتراوح بين ٧٠٠ ألف و٩٠٠ ألف[١٢].

ج ـ شمال افريقيا

تتناقض الدلائل في ما يتعلق بهذه المنطقة، فبالنسبة إلى ليبيا، رأى رتشارد غودتشايلد، رئيس قسم الآثار ببرقة، أن الرقم الاجمالي يتراوح بين مليون ومليون ونصف، على أن تكون مناصفة تقريباً بين برقة وطرابلس القديمة[١٣].

ويتضمن ذلك تقديراً لعدد سكان برقة يزيد على ذلك الذي أتى به بيلوخ وهو ٥٠٠ ألف. ومن ناحية أخرى قدّر راسل عدد سكان طرابلس الريفية بمئة ألف فقط، بينما قدّر مجموع سكان افريقيا الرومانية (التي استبعد برقة منها) بـ ٤ ملايين و٣٠٠ ألف[١٤]. ومن ثم قدّم الجدول رقماً يتراوح بين ٤ و٥ ملايين لافريقيا، واحتفظ برقم بيلوخ (٥٠٠ ألف) لبرقة. وقد وضع رقماً تحكمياً هو ٥٠٠ ألف لموريتانيا تينغيتانا، التي لم يدرجها بيلوخ في قائمته. ولقد لخّص العروي كل الدراسات الحديثة للباحثين

---

(١٠) E.S. Bouchier, *Spain under the Roman Empire* (Oxford: [n.pb.], 1914), p. 38, and J.J. van Nostrand, «Roman Spain,» in: Tenney Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, 6 vols. (Baltimore, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1930-1940), vol. 3, p. 148.

(١١) R. Menendez Pidal, *Historia de España*, vol. 2, pp. 317-318, cited in: Josiah C. Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» *Transactions of the American Philosophical Society*, vol. 48 (1958), p. 74.

(١٢) V.M. Scramuzza, «Roman Sicily,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 3, p. 334.

(١٣) ورد في خطاب بتاريخ ٢٢ آذار/ مارس ١٩٦٧ إلى ويليام ويدلي سرده الأخير في أطروحة دكتوراه غير منشورة:

William C. Wedley, «Manpower Policies for Development Planning in Libya,» (Unpublished Doctral Dissertation, Columbia University, 1971), p. 32.

(١٤) انظر الجداول والاحصاءات الواردة في:

Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» p. 75.

الفرنسيين أمثال كورتوا، وسوماني، وج. بيكار، واستنتج في النهاية أن المساحة ٣٥٠ ألف كلم٢ مستبعداً الصحارى، وأن عدد السكان ٣,٥ مليون نسمة[١٥].

د ـ مصر

تباينت التقديرات الخاصة بمصر أيضاً، وإن بدرجة أقل من البلدان الأخرى. ونجد أن بعض الكتّاب على استعداد لقبول الرقم الذي قدّمه جوزيفوس عن عدد السكان وهو ٧,٥ ملايين باستثناء سكان الاسكندرية، التي من المرجح أن عدد سكانها كان ربع مليون نسمة، ذلك أن تقدير عدد سكانها بـ ٥٠٠ ألف ـ كما فعل بيلوخ ـ يعتبر الآن مبالغاً فيه إلى حد كبير[١٦]. وفي الواقع أن جوزيفوس كان ينقل الرقم عن هيرود أغريبا الذي كان يحاول ربما أن يثني اليهود عن الثورة على روما[١٧]. وقد قال ديودوروس في كتاباته في الفترة من ٦٠ ـ ٣٠ ق.م. «إن مصر البطلمية ـ كما يتضح من الكتابات المقدسة ـ كان يسكنها حوالى ٧ ملايين نسمة، وانها كانت في أيامه ٣ ملايين على الأقل». أما واليك تشرنيكي فقد أكد أن عدد سكان مصر تراوح بين ٨ و٨,٥ ملايين في نهاية عصر البطالمة، وأنه وصل إلى ما تراوح بين ٨,٥ و٩ ملايين في القرن الأول الميلادي. غير أنه عاد وأنقص ذلك الرقم الأخير إلى ٧,٥ ملايين[١٨]. وقد رأى راسل أن عدد سكان مصر كان ٤,٥ ملايين وذلك بناء على افتراضات معينة تأخذ في اعتبارها عوائد الضرائب والمناطق المزروعة. وتثور التساؤلات حول أسلوب راسل ونتائجه في هذا المضمار. أما الجدول فقد أعطى رقماً يتراوح بين ٦ و٧ ملايين نسمة.

هـ ـ سوريا

اعتبر هايخلهايم الرقم الذي أعطاه بيلوخ لعدد سكان سوريا الجغرافية ـ الذي تراوح بين ٥ و٦ ملايين، بما في ذلك مليونان في فلسطين، رقماً يتّسم بالتحفظ إلى حد كبير. وأكّد هايخلهايم أن تقدير عدد سكان سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن بعشرة ملايين نسمة «ليس مستحيلاً على الإطلاق»[١٩].

---

(١٥) Abdallah Laroui, *L'Histoire du Maghreb: Un Essai de synthèse* (Paris: Maspéro, 1970), pp. 44-45.

(١٦) Allan Chester Johnson, «Roman Egypt,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 2, p. 245.

(١٧) Josiah C. Russell: «The Population of Medieval Egypt,» *Journal of the American Research Center in Egypt* (1966), pp. 69-82, and «Late Ancient and Medieval Population,» pp. 78-80.

(١٨) T. Walek-Czernicki: «La Population de l'Egypte ancienne,» papier présenté à: *Démographie historique: Congrès international de la population* (Paris: [s.n.], 1937), vol. 2, pp. 7-13, et «La Population de l'Egypte à l'époque saite,» *Bulletin de l'institut d'Egypte* (1940-1941).

(١٩) F.M. Heichelheim, «Roman Syria,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 4, p. 158.

هذا بينما اقترح لامنس أن يكون الرقم ٧ ملايين[٢٠]. أما راسل، فإنه لا يرى أن عدد السكان قد زاد في ذلك الوقت على ٤ أو ٤,٥ ملايين نسمة[٢١]. ومن ثم فقد أتى الجدول برقم ٥ ـ ٦ ملايين ليغطي مناطق سوريا الرومانية وأعمال الجزيرة العربية. ومن ثم يتراوح المجموع الكلي للمجموعة الأولى (أ) بين ٢٢,٧ ـ ٢٦,٩ مليون.

و ـ آسيا الصغرى

أُجريت أبحاث قليلة للغاية عن بلدان المجموعة (ب) باستثناء أحد أقسامها فقط وهو آسيا الصغرى. وقد أكّد تعداد بروتون الأرقام التي أتى بها بيلوخ، وأوضح أن مجموع السكان الكلي قد وصل إلى ١٣ مليوناً[٢٢]. غير أن راسل يعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه، ومن ثم خفّضه إلى ٨,٨ ملايين[٢٣]. لكن هذا الرقم ذاته ربما يكون منخفضاً للغاية بالمقارنة بالرقم الذي أعطاه هو نفسه لتقديرات القرن الخامس وهو ١١,٦ مليوناً. وقد قبل راسل بأرقام بيلوخ في ما يتعلق باليونان وأقاليم الدانوب؛ وقد قدمنا في الجدول رقم (١)، رقماً يتراوح بين ١٠ و١٣ مليون نسمة بالنسبة إلى آسيا الصغرى. أما كل أرقام بيلوخ الأخرى فقد ظلت كما هي دون تغيير وأضيف تقدير جزافي هو ٥٠٠ ألف ليغطي داسيا، ومن ثم يكون المجموع الكلي للمجموعة (ب) ١٦ ـ ١٩ مليوناً.

ز ـ ايطاليا

بالنسبة إلى المجموعة (ج)، هناك العديد من التقديرات التي تتباين فيها الأرقام على نحو واسع. فقد ذهب تبني فرانك إلى تقدير عدد سكان ايطاليا تحت حكم اغسطس بـ ١٤ مليوناً، وتحت حكم كلوديوس عام ٤٨م بـ ١٥ مليوناً. ويبدو أن هذه الأرقام قد استبعدت الجزر[٢٤]. أما راسل فقد ذهب إلى إنقاص هذا الرقم إلى ٨ ملايين بما في ذلك الجزر. وقد جاء الاختلاف في هذا الصدد نتيجة تقارب التفسيرات التي قُدِّمت لمعنى كلمة «مواطن»، كما استخدمت في المفهوم الروماني، وما إذا كان قد قصد بها الذكور الأحرار فقط فوق سن السابعة عشرة أم قصد بها الذكور والإناث معاً

(٢٠) Henri Lammens, *La Syrie: Précis historique*, 2 vols. (Beyrouth: Imprimerie catholique, 1921), p. 11.

(٢١) Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» pp. 82-83.

(٢٢) T.R.S. Broughton, «Roman Asia,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 4, pp. 812-815.

(٢٣) Russell, Ibid., pp. 81-82.

ويرجع تفسير جزء من ذلك التناقض إلى أن راسل استبعد بعض الجزر والمناطق الشرقية والجنوبية في العراق وسوريا الحاليتين، بينما اشتملت عليها دراسة بروتون.

(٢٤) Tenney Frank, «Rome and Italy,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 1, p. 140.

فـوق تلك السن[٢٥]. ومن ثم فقد ذهب الجـدول إلى تقديم رقم يـتراوح بـين ٨ و١٥ مليوناً.

ح ـ الغال

رفض العديد من علماء التاريخ الفرنسيين الأرقام التي أتى بها بيلوخ بـاعتبارهـا منخفضة للغاية، إلا أن الأرقام التي أتى بها هؤلاء العلماء كانت مرتفعة إلى حـد يدعـو إلى الشك. ويقول غـرونييه في منـاقشته للرقم الـذي أتى به كـاميل جـوليان، والـذي يتراوح بين ٢٠ و٣٠ مليوناً «فلنقل بالأحرى، إن عدد السكـان في عهد الغـزو كان يـتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ مليوناً»[٢٦]. وفي دراسة تالية للباحث نفسه، رفع الرقم إلى ٢٤ مليوناً[٢٧]. هذا بينما أورد لوت أن مجموع عدد السكان كان ٢٠ مليوناً[٢٨]. غـير أن الرقم الـذي ذهب إليـه راسل ينخفض كثيـراً عن ذلك، فهـو يـتراوح بـين ٦ و٨ مـلايـين ومن ثم قـدّم الجدول رقماً بين ٨ و١٢ مليوناً.

ط ـ بريطانيا

في ما يتعلق ببريطانيا الرومانية التي غطّت الثلثين الجنوبيين لبريطانيا العـظمى، والتي تقع في الشمال تجاه برزخ تاين ـ سلواي، ناقش غولينغوود تقديرات تـتراوح بين نصف مليون ومليون ونصف، وأعرب عن اعتقاده أن «الحقيقة تقع عـلى الأرجح في مكـان ما بين هذين الرقمين»[٢٩]؛ وقد تم توضيح هذا المعنى في الجدول.

ويـتراوح المجموع الكـلي للمجموعـة (ج) بين رقمـين متباعـدين، أي بين ١٧ و٢٩ مليوناً.

وإذا جمعنا المجموع الكلي للمجموعات الثلاث، يصبح الإجمالي مـتراوحاً بـين ٥٥,٧ مليوناً و٧٤,٩ مليون، أو لنقل بين ٦٠ و٧٠ مليوناً. وتتوافق هذه الأرقام مـع مختلف التقديرات الأخرى. ومن ثم فقد ذهب كافينياك إلى تقـدير عـدد السكان تحت حكم أغسطس بـ ٨٠ مليونـاً، وذلك بعـد تعديـل الأرقام التي أتى بهـا بيلوخ، بحيث يتم تصحيح بعض التقديرات المنخفضة، ويضاف الأطفال الـذين استبعدهم بيلوخ. ويبـدو هذا التقـدير مقبـولاً لدى الكثـير من الدارسـين الآخرين[٣٠]. غـير أن تقديـره

---

(٢٥) Russell, Ibid., pp 71-73.

(٢٦) Albert Grenier. «La Gaule romaine,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 3, p. 455.

(٢٧) Albert Grenier, *Les Gaulois* (Paris: Payot, 1945), pp. 225-231

(٢٨) F. Lot, *La Gaule* (Paris: [s.n.], 1947), pp. 66-69.

(٢٩) A.G. Gollingwood, «Roman Britain,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, vol. 3, pp. 7, 9 and 276

(٣٠) E. Cavaignac, «Notes de démographie antique,» *Journal de la société statistique de Paris*, vol. 76 (1935).

لمجموع السكان بـ ١٥٠ مليوناً، مع مطلع عام ١٨٠م قد نُظر إليه باعتباره مرتفعاً للغاية، رغم الدلائل التي تؤكد وجود زيادة كبيرة في عدد السكان بين عهد اغسطس قيصر وعهد ماركوس أوريليوس. وعلى العكس من ذلك، أعطى م. أ. فينلي الرقم نفسه ليكون لعدد السكان في عهد أغسطس وهادريانوس معاً (حوالى ٦٠ مليوناً)، وهو الذي يحمل في طياته إشارة إلى عدم حدوث نمو[٣١].

ثانياً: الإمبراطورية العربية، القرن الثامن الميلادي

على الرغم من أن تقديرات السكان في الامبراطورية الرومانية غير مؤكدة، فإنها على الأقل تعتمد على بعض المعلومات الاحصائية. وكما أشار فينلي، نشكّ في ما إذا كان أي شخص، سواء من داخل الحكومة أو خارجها، يعرف فعلياً الرقم النهائي (أي اجمالي عدد السكان). فرغم أن احصاءات السكان كانت تجري في ذلك الوقت، إلا أنها لم تكن تجري على نحو منتظم، بل في أوقات مختلفة وأقاليم مختلفة، وكان الهدف الوحيد من إجراء تلك الاحصاءات هو تحديث سجلات الضرائب[٣٢]. أما في ما يتعلق بالإسلام ما قبل الحكم العثماني، فعلى الرغم من أن لدينا بعض الأرقام عن قيمة الضرائب المدفوعة، التي من المفترض أنها لا بد قد اعتمدت على عدّ الأشخاص، وبعض التقديرات عن تعداد سكان المدن أعدّها الرحالة المسلمون واليهود الأوروبيون، وبعض قوائم الجيش، بل بعض الخرائط المسحية لمصر، فإننا لا نملك رقماً واحداً رسمياً للتعداد السكاني، بل إننا لا نملك أيضاً سجلات، على غرار سجل الأبرشيات الخاص بأوروبا، الذي يمكننا من خلاله استقاء الكثير من المعلومات المتعلقة بتوزيع الأعمار وهيكل الأسرة والاتجاهات الديمغرافية. ومن ثم، فإن أية معلومات في هذا الموضوع إنما هي ذات طبيعة استنتاجية وأولية للغاية. ويقول أحد الخبراء البارزين في معرض حديثه عن مصر الدولة المسلمة والوحيدة التي تتوافر عنها معظم المعلومات «يذهب بولياك إلى أن تعداد السكان كان ٣ ملايين في أوائل القرن الرابع عشر، وإنني، شخصياً، لا أشعر بالقدرة على التخمين»[٣٣].

المساحة وعدد السكان في الامبراطورية العربية

قبل مناقشة تعداد السكان، من الضروري تحديد المساحة التقريبية

---

(٣١) Moses I. Finley, *Aspects of Antiquity: Discoveries and Controversies* (New York: Viking Press, 1968), pp. 155 and 199.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٣٣) Eliyahu Ashtor, «The Number of Jews in Mediaeval Egypt,» *Journal of Jewish Studies*, vols. 18 and 19.

ويعتقد أشتور أن مجموع السكان اليهود في مصر في نهاية القرن الثاني عشر لا يمكن أن يكون قد تجاوز ١٠ ـ ١٢ ألف.

للامبراطورية العربية في أوسع امتداداتها في الفترة السابقة على سقوط الدولة الأموية مباشرة عام ٧٥٠م. وينقسم الجدول رقم (٢ - ٢) إلى مجموعتين المجموعة (أ) التى

جدول رقم (٢ - ٢)

المساحة وعدد السكان في الامبراطورية العربية

	(١) المساحة الكلية بالألف كلم٢	(٢) المساحة المأهولة بالألف كلم٢	(٣) السكان (بالمليون)
مجموعة (أ)			
اسبانيا	٥٩٠	٥٩٠	٦,٠ - ٥,٠
شمال افريقيا	١,٥٨٤ [١]	٥١٥	٤,٠ - ٣,٠
مصر	١,٠٠١	٢٨	٥,٠ - ٤,٠
سوريا	٢٢٢ [٢]	١٠٩	٤,٠ - ٣,٠
	٣,٣٩٧	١,٢٤٢	١٩,٠ - ١٥,٠
مجموعة (ب)			
جزيرة العرب	٣,١٧٣ [٣]	١٥٩	٢,٠ - ١,٥
العراق	٤٣٥	١٣١	٦,٠ - ٥,٠
ايران	١,٦٤٨	٤١٢	٤,٠ - ٣,٠
افغانستان	٦٤٧	١٢٩	١,٥ - ١,٠
آسيا الوسطى	(٢٠٠)	٢٠	١,٠ - ٠,٥
الهند	(٣٠٠)	٧٥	٣,٠ - ٢,٠
	٦,٤٠٣	٩٢٦	١٧,٠ - ١٣,٠
المجموع الكلي	٩,٨٠٠	٢,١٦٨	٣٦,٥ - ٢٨,٠

(١) ثلث المساحة الكلية للجزائر (٢,٣٨٢,٠٠٠ كلم٢) وليبيا (١,٧٦٠,٠٠٠ كلم٢) والمغرب (٤٤٥,٠٠٠ كلم٢) وتونس (١٦٤,٠٠٠ كلم٢).

(٢) ثلثا مجموع مساحة اسرائيل والأردن ولبنان وسوريا مجتمعة.

(٣) مجموع العربية السعودية (٢,١٥٠,٠٠٠ كلم٢) واليمن (٤٨٣,٠٠٠ كلم٢) وعُمان (٢١٢,٠٠٠ كلم٢) والكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة (٣٢٨,٠٠٠ كلم٢).

المصدر: United Nations (UN), *Statistical Yearbook*, «Gross Area».

لمزيد من التفاصيل، انظر. البحث.

شكّلت جزءاً من الامبراطورية الرومانية، التي استخدمت من أجلها الأرقام المذكورة عن المساحة في الجدول رقم (٢ - ١) من أجل تسهيل المقارنة[٣٤]. أما **المجموعة (ب)**، فهي تتضمن الأراضي التي تقع إلى الشرق من المجموعة (أ). ولكن تظهر هنا صعوبة كبيرة، فسوف يلاحظ أن بيلوخ قد استخدم أرقاماً تعبّر عن الأراضي المزروعة، أو المأهولة، وليس عن المساحة الكلية. ومن ثم قدرت مساحة مصر بـ ٢٨ ألف كلم٢ (وليس مليون كلم٢)، التي تقع داخل حدودها الجغرافية، ومن ثم استوجب الأمر بعض التعديل في ما يتعلق بالبيانات الواردة عن المجموعة (ب). ومن ثم احتوى الجدول رقم (٢ - ٢) على عمودين يوضّح الأول المساحة الكلية، ويشير الثاني إلى المساحة المأهولة. ويفترض أن المساحة المأهولة تشكّل النسبة التالية من البلدان موضع الدراسة: العراق ٣٠ بالمئة؛ ايران ٢٥ بالمئة؛ آسيا الوسطى ١٠ بالمئة؛ اليمن ١٠ بالمئة، وباقي الأراضي العربية ٥ بالمئة. وإذا كانت هذه الافتراضات صحيحة، بأي حال من الأحوال، فإنها تؤدي إلى أربع نتائج أساسية:

الأولى، إن المساحة الكلية للامبراطورية العربية كانت حوالى ٩ - ١٠ ملايين كلم٢، أو حوالى ضعف مساحة الامبراطورية الرومانية، حتى لو أضفنا إلى مساحة الامبراطورية الرومانية مساحة الصحراء في مصر، وذلك الجزء من صحراء شمال افريقيا الذي كان تحت سيطرتها.

الثانية، تقلّ المساحة المأهولة في الامبراطورية العربية عن ثلثي المساحة المأهولة في الامبراطورية الرومانية، ولكن إذا تم تعديل مساحة تلك الأخيرة لتشمل المساحات الشاسعة من الغابات والجبال والأراضي البور، يقلّ الفارق بين الاثنتين على نحو ملحوظ، وإن كان لا يتلاشى نهائياً.

الثالثة: تُساوي المساحة الكلية لذلك الجزء الذي لم يدرج في ما سبق داخل الامبراطورية الرومانية (المجموعة (ب)) ضعف مساحة ذلك الجزء الذي كان ضمن تلك الامبراطورية (المجموعة (أ)).

وأخيراً كانت المساحة المأهولة للمجموعة (ب) أصغر، إلى حد ما، من المساحة المأهولة للمجموعة (أ).

وحيث إنه لا توجد على الإطلاق أية أرقام بشأن الفترة الإسلامية، اللهم إلا

---

(٣٤) عادة ما يثير ذلك بعض الصعوبات، ومن ثم فقد ذهب الحكم العربي إلى الجنوب، أبعد مما ذهب إليه الحكم الروماني، ومن ناحية أخرى فشل العرب في اخضاع الركن الشمالي الغربي من اسبانيا بينما استطاع الرومانيون ذلك، وإن كان لفترة ما تعويضاً عن انتصاراتهم في فرنسا، وقد تم استبعاد صقلية من المجموعة (أ) إذ لم يفتحها العرب حتى القرن التاسع.

بعض الأرقام العثمانية غير الوافية عن سوريا، التي سوف نناقشها في ما بعد (في الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر)، فإنه ينبغي أن تعتمد التقديرات، أو بالأحرى التخمينات، التي تقوم على القليل من المعلومات في ما يتعلق بالتعداد على أرقام مثل تلك المتاحة عن بدايات القرن التاسع عشر، والأرقام الرومانية المبنية على الحدس والمعلومات المتوافرة عن المساحات المزروعة والضرائب وسكان الحضر، وحجم الجيوش والاتجاهات الديمغرافية المحتملة.

وقبل أن نقوم بذلك، يجدر التنويه بملاحظة أخرى وهي أن عدد السكان في الامبراطورية العربية كان لا يقل بالتأكيد عن حوالى ٢٠ مليوناً ولا يزيد على ٦٠ مليوناً. وتعتمد المعلومة الأولى على حقيقة أنه يمكن تقدير تعداد السكان في الدول المعنية، باستبعاد اسبانيا وصقلية، وبدرجة عالية من الثقة، بما يزيد على ٢٠ مليوناً في عام ١٨٠٠م، وعلى الافتراض أنها لم تكن أقل من ذلك في العصور الوسطى. وتعتمد المعلومة الثانية على الحقيقة القاضية بأنه في عام ١٩٣٠م ـ وبعد عدة عقود من النمو السريع غير المسبوق بما يتضمنه ذلك من الهجرات الأوروبية واليهودية الضخمة ـ توقّف عدد السكان عند حوالى ٧٠ مليوناً، وعلى الافتراض القائل إنه لا بد من أن عدد السكان كان أقل من ذلك في كل نقطة بعينها من تاريخها الطويل.

بالنسبة إلى المجموعة (أ) يمكن الاشارة إلى ثلاث ملاحظات عامة:

الأولى، يُجمع علماء التاريخ جميعهم على أن بلدان هذه المجموعة ـ مثلها مثل أجزاء أخرى من الامبراطورية الرومانية ـ قد عانت نقصاً حاداً في عدد السكان بعد القرن الثاني، نتيجة تأثير مجموعة من العوامل المتمثلة في انعدام الأمن والتدهور الاقتصادي، والأهم هو الأوبئة المتعاقبة، خاصة وباء الطاعون الذي استشرى بشدة في أوائل القرن السادس.

الثانية، مثّلت نهايات القرن الثامن عشر أيضاً فترة تدهور اقتصادي عميق.

الثالثة، يتملك المرء انطباع قوي مؤداه أنه حتى أكثر دول تلك المجموعة رفاهة ـ باستثناء اسبانيا ـ لم تكن تتمتع بكثافة سكانية عالية مثلما كانت تحت حكم الرومان[٣٥]. ويعطينا هذا حدوداً عليا ودنيا مقبولة للمدى الذي يمكن أن تتراوح فيه تقديراتنا.

(٣٥) يشارك في هذا الانطباع غويتاين (S.D. Goitein) الذي يعلم عن الظروف الاقتصادية للإسلام في العصور الوسطى أكثر من أي شخص آخر.

أ ـ اسبانيا

ارتأى راسل أن عدد سكان ايبريا قد انحسر إلى حوالى ٣ ـ ٤ ملايين نسمة قبل الفتح الاسلامي، وأنه ربما يكون قد حدث بعض التحسّن تحت الحكم العربي. وذهب إلى تقدير إجمالي عدد السكان بأربعة ملايين مع نهاية القرن الثامن، وهو الرقم الذي اعتمد على تقدير عدد سكان الحضر. ويبدو أن النمو قد استمر حتى نهاية القرن الحادي عشر. ومع نهاية القرن الثالث عشر قدّر عدد السكان بحوالى ٨,٣ ملايين[٣٦]، وهو رقم يمكن الاعتماد عليه (بسبب توافر السجلات المسيحية). وهناك منطق ما للاعتقاد أن عدد سكان اسبانيا المسلمة كان أكبر إلى حد ما من عدد سكان اسبانيا الرومانية، ومن ثم لا يكون تخمين رقم يتراوح بين ٥ ـ ٦ ملايين للقرن الثامن بعيداً تماماً عن الحقيقة، ربما بإضافة مليون أو مليونين في أوج الحكم الاسلامي.

ب ـ شمال افريقيا

يبدو أن هناك القليل من الشك حول مسألة الهبوط الحاد في أعداد السكان الذي تلا ثورات القرنين الثالث والرابع[٣٧] والغزو الوندالي واعادة الفتح البيزنطي وانتشار الأوبئة. ويبدو أن الأراضي المزروعة قد انكمشت على نحو حادّ للغاية. ويعتقد راسل أن عدد السكان انخفض إلى النصف في الفترة ما بين القرن الثاني وعام ٤٢٢م، من ٤,٣ ملايين إلى مليونين، وأن هذا الرقم لا يأخذ في الحسبان الونداليين والبيزنطيين. وقد ذهب راسل إلى أن عدد السكان تحت حكم الخلفاء كان ١,٩ مليون[٣٨]. غير أن هذا الرقم يبدو منخفضاً جداً إذا ما قورن بالتقديرات المتاحة عن القرن التاسع عشر: الجزائر ٢,٥ إلى ٣ ملايين بين عامي ١٨٠٠ و١٨٣٠، تونس مليون في عام ١٨٨١، وهو لم يكن بالطبع أقلّ من ذلك في بداية القرن، ليبيا ٦٠٠ ألف في عام ١٩١١، والمغرب ٣ ـ ٣,٥ ملايين في عام ١٩١٤[٣٩]. ومن ناحية أخرى

---

(٣٦) Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» pp. 75, 91-92 and 113-118.

(٣٧) R.M. Haywood, «Africa,» in: Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome,* vol. 4, pp. 115-116.

(٣٨) Russell, Ibid., pp. 75-77 and 89.

(٣٩) *Initiation à l'Algérie* (Paris: [s.n.], 1957), pp. 141-142; *Initiation à la Tunisie* (Paris: [s.n.], 1950), p. 136; Louis Chevalier, *Le Problème démographique nord-africain,* institut national d'études démographiques, travaux et documents; cahier no. 6 (Paris: Presses universitaires de France, 1947), passim, et Evans Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: [n.pb.], 1949), p. 39.

وانظر أيضاً تقديرات برودل (Braudel) لعدد السكان، حيث قدرهم باثنين إلى ثلاثة ملايين في القرن السادس عشر في القسم الذي يحمل عنوان «الامبراطورية العثمانية: القرن السادس عشر» من هذا الفصل. أما في كتاب:

Lucette Valensi, *Le Maghreb avant la prise d'Alger, 1790-1830,* questions d'histoire; 10 (Paris: Flammarion, 1969), p. 20.

فقد تمتع الشمال الافريقي بمدن كبيرة إذا ما قورنت بتلك التي وجدت في بداية العصر الاسلامي، وربما يكون رقم يتراوح بين ٣ - ٤ ملايين مناسباً، مع احتمالية حدوث نمو ملحوظ، وربما إلى ٥ - ٦ ملايين حتى نهاية القرن الحادي عشر حين تسببت غزوات بني هلال وبني سُلَيْم وغيرها من الاضطرابات في حدوث تراجع حاد(٤٠).

ج - مصر

أجريت أبحاث كبيرة عن مصر، مقارنة بغيرها من البلدان. وهناك اتفاق واسع على الاتجاهات السكانية، إن لم يكن على الحجم أيضاً. وقد أدت الأوبئة وغيرها من المحن التي حلّت بمصر إلى تقليص الرقعة الزراعية وعدد السكان معاً في القرن الثالث، وقد تلا ذلك انتعاش بطيء تبعه مرة أخرى هبوط حاد في القرن السادس الميلادي(٤١). وقد ذهب راسل إلى تقدير عدد السكان في نهاية القرن السابع بـ ٢,٥ - ٢,٦ مليون. وأشار إلى أن هذا يتفق مع التقدير الذي قدمه علماء نابليون، وفي إحصاء السكان عام ١٨٢١. ولكن، وكما أكد غابرييل بير(٤٢) فإن الإسقاط على الماضي من خلال الإحصاءات السكانية الموثوق بها أكثر من غيرها، التي أجريت في نهاية القرن التاسع عشر يوضح أن ٢,٥ مليون هو رقم ضئيل للغاية لتقدير السكان في عام ١٨٠٠، وأن ٣ ملايين، على الأقل، هو الرقم الأكثر منطقية. ومن غير المحتمل، إذن، أن يكون عدد سكان مصر بعد قرن من الحكم العربي، وبعد أن تم إخماد الفوضى السائدة في البداية، أقل منه في نهاية القرن الثامن عشر المتسم بقدر هائل من الفوضى والانكماش. وقد رأى غب أيضاً - وهو الذي اعتبر التقدير الفرنسي لعدد السكان بـ ٢,٥ مليون شديد الانخفاض - انه ليس من المحتمل أن يكون عدد

= فإن فالينسي تعطي الأقسام التالية كبداية القرن التاسع عشر: تونس فوق المليون بقليل، الجزائر ٣ ملايين في عام ١٨٣٠، المغرب أكثر من ذلك.

(٤٠) في هذا الموضوع انظر مقدمة ابن خلدون:

Etienne Marc Quatremère, ed., *Ibn Khaldun: Al-Muqaddimah* (Paris: Institut impérial de France, 1858), vol. 2, pp. 246-247, and Franz Rosenthal, trans., *Ibn Khaldun: The Muqaddimah: An Introduction to History*, 2nd ed. (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1967), vol. 2, pp. 282-283.

ويؤكد الانطباع حدوث هبوط حاد بعد عام ١٠٥٠ انظر المقال الممتاز لكلوديت فاناكر:

Claudette Vanacker, «Géographie de l'Afrique du Nord,» *Annales*, vol. 28 (1973), pp. 659-680.

(٤١) Russell, «The Population of Medieval Egypt».

والمصادر المذكورة فيه.

(٤٢) Gabriel Baer, «Urbanization in Egypt, 1820-1907,» in: William Roe Polk and Richard L. Chambers, eds., *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century*, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 1 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968), pp. 155-158.

السكان قد تجاوز ٤ ملايين في القرن الرابع عشر[٤٣]. هذا وقد أعطى دولز أرقاماً أكثر ارتفاعاً. ويمكن أن نضيف هنا أن راسل ـ معتمداً بالأساس على أرقام الضرائب والخرائط المساحية ـ قد ذهب إلى أن عدد سكان مصر قد انخفض إلى ١,٥ مليون في القرنين العاشر والحادي عشر. ثم ارتفع فبلغ ذروته، إذ وصل إلى ما يزيد على ٤ ملايين بقليل مع منتصف القرن الرابع عشر، ثم انخفض مرة أخرى مع انتشار الأوبئة ليصل إلى ٣,١٥ ـ ٣,٣٦ ملايين.

وفي حوار مع كاتب هذه الدراسة قال الأستاذ أشتور إن أسعار الحبوب ومستوى الأجور لا تدع مجالاً للشك في أن عدد سكان مصر قد تزايد في الفترة من القرن الثامن حتى القرن العاشر؛ وقد حدث أيضاً، بلا شك، هبوط حاد في بداية القرن الثالث عشر. ويعتقد أشتور أن تقدير عدد السكان في القرن الثالث عشر بثلاثة أو أربعة ملايين هو تقدير منخفض للغاية، ويرى أن الذروة التي وصل إليها في القرن الحادي عشر تزيد على ٥ ملايين على نحو واضح، ومن ثم فقد أشار الجدول رقم (٢ ـ ٢) إلى رقم يتراوح بين ٤ ـ ٥ ملايين، كما أن ذروة القرن الحادي عشر ربما كانت أكثر ارتفاعاً. أما في ما يتعلق بالامبراطورية العثمانية، فإن الرقم الذي قدّمه راسل (٣,١٥ ـ ٣,٣٦ ملايين) للفترة التي تلت وباء الطاعون ـ إذا ما ربطناه بالتقدير الذي تمّ مراجعته وهو ٣ ملايين أو ما يزيد للعام ١٨٠٠ ـ يوضّح أنه لم يكن هناك أي تغير جوهري بشكل عام، على الرغم، طبعاً، من وجود تذبذب حاد سبّبته الأوبئة والمجاعات (وإن كان قد حدث بعض التحسن)، بالإضافة إلى تقلّب الظروف الاقتصادية. ومن ثم فقد قدّر أندريه ريمون في دراسته الرائدة للقاهرة عدد سكان المدينة في عام ١٧٩٨ وفي أوائل القرن السادس عشر بحوالى ٢٥٠ ألفاً، ولكن يعتقد أن هذا الرقم ربما أصابته طفرة، فوصل إلى ٣٥٠ ألفاً في الفترة بين عامي ١٦٦٠ و١٦٧٠[٤٤].

د ـ سوريا

تتسم المعلومات المتاحة عن سوريا ـ على عكس مصر ـ بالندرة الشديدة، إلى حد أنه لا توجد أرقام موثوق بها حتى عن فترة القرن التاسع عشر. وقد تراوحت بعض التقديرات التي قدّمها موظفو القنصليات البريطانية في الثلاثينيات من القرن

---

(٤٣) Hamilton Alexander Rosskeen Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East,* 2 vols. (London; New York: Oxford University Press, 1950), vol. 1, pp. i and 209.

(٤٤) André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au xviiie siècle* (Damas: Institut français de Damas, 1973), pp. 204-205.

التاسع عشر والتي اعتمدت على عوائد الضرائب ما بين مليون و١,٨٦٤,٠٠٠ نسمة. غير أن معظم تلك التقديرات قد تراوحت بين ١,٢٥٠,٠٠٠ و١,٤٥٠,٠٠٠. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، ارتفع الرقم إلى ما يربو على ٣,٥ ملايين[٤٥].

ويخلص راسل إلى أن تقدير عدد سكان سوريا بـ٣ ملايين في عام ٧٢٠م هو تقدير معقول، وهو يمثل ثلثي عدد سكان سوريا الرومانية. ومع نهاية القرن، ربما وصل عدد سكان سوريا إلى ٤ ملايين[٤٦]. ويميل أشتور إلى الاعتقاد بأن هذه التقديرات منخفضة جداً. فهو، أولاً، يعتقد أن سكان سوريا تحت الحكم الروماني كانوا أكثر مما قدّره بيلوخ. ثانياً، أشار أشتور إلى أنه كانت هناك هجرات ضخمة من البدو والفرس في القرن الأول للحكم الإسلامي فاقت أعداد النازحين من السكان اليونانيين إلى المدن السورية. وقد سببت سلسلة من الأوبئة والزلازل في العصر الأموي بقاء عدد السكان منخفضاً، فكان حوالى ٣,٥ ملايين، غير أنه قد حدثت طفرة في العصر العباسي. وذهب نقولا زيادة إلى تقدير عدد سكان المدن التسع والعشرين بحوالى ٣٠٤,٠٠٠، مفترضاً أن هذا الرقم يمثّل سبع أو عشر اجمالي عدد السكان، الذي قدّره بمليونين أو ٢,٥ مليون[٤٧]. وقد ذهب الجدول إلى وضع رقم يتراوح بين ٣ ـ ٤ ملايين مع اعتبار أن هذا الاجمالي كان أقرب إلى ٥ ملايين في القرنين التاسع والعاشر[٤٨].

ومن ثم يقدِّر إجمالي عدد سكان المجموعة (أ) عام ٧٥٠م بما يتراوح بين ١٥ و١٩ مليوناً مقارنة بـ ٢٥ مليوناً أثناء الحكم الروماني. ولكن، وكما أشرنا سابقاً، ليس من غير المنطقي أن نفترض أن عدد السكان قد زاد في القرنين أو الثلاثة. فمع التطور الاقتصادي يحتمل أن يكون عدد السكان في المساحة التي يغطّيها الجدول رقم (٢ ـ ٢) قد وصل إلى ٢٠ مليوناً.

---

(٤٥) Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966), p. 209.

(٤٦) Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» p. 90.

(٤٧) Nicola Abdo Ziadeh, *Urban Life in Syria under the Early Mamlūks,* Oriental Series; no. 24 (Beirut: American Press, 1953), pp. 97-98.

(٤٨) يمكننا أن نقدم هنا بعض الأرقام التي عرضها د. حسنين ربيع. فقد كان عدد العسكر في مصر في أواخر العصر المملوكي ٤٢ ألفاً بينما كانوا في سوريا ٣١ ألفاً، من بينهم ١٥ ألفاً في دمشق و٨ الاف في حلب و٥ آلاف في طرابلس و٢٠٠٠ في صفد وألف في غزة. انظر:

Khalīl, al-Zāhirī, *Kitāb Zubdat Kashf al-Mamālīk,* edited by Paul Ravaisse (Paris. [s.n.], 1894), p. 104.

وربما يوضح ذلك أن عدد سكان سوريا كان حوالى ثلاثة أرباع عدد سكان مصر أو حوالى ٣,٥٠ ـ ٤ ملايين في أقصى تقدير.

أما بالنسبة إلى المجموعة (ب) فإن الخروج من حدود الامبراطورية الرومانية يعني الدخول في منطقة ديمغرافية تكاد تكون مجهولة المعالم تماماً، أو ربما غير قابلة للفهم أو الدراسة.

هـ ـ الجزيرة العربية

ليس من المعروف ـ حتى وقتنا هذا ـ عدد سكان منطقة شبه الجزيرة العربية على وجه التحديد، رغم أن الرقم المعلن (١٠ ـ ١٢ مليوناً) يبدو معقولاً. وقد قال جورج رينتز أبرز الخبراء المتخصصين في دراسات تلك المنطقة، في كتاباته منذ حوالى ١٠ سنوات، «قد يشكّ المرء في اقتراب اجمالي عدد السكان من ١٠ ملايين، وربما يكون أقل من ذلك الرقم بعدة ملايين»[٤٩]. وقد أكد منشور بريطاني رسمي صدر أثناء الحرب العالمية الثانية انه «عادة ما يقدّر هذا الرقم بحوالى ٥ ـ ٨ ملايين على أن أقل هذه الأرقام هو أقربها إلى الصحة»[٥٠]. وقد قدّر راسل عدد السكان في عهد الخلفاء بمليون واحد[٥١]. غير أنني لا أجد سبباً للاعتقاد بأن عدد سكان شبه جزيرة العرب في عام ٧٥٠م كان أقل من خمس ما كان عليه في عام ١٩٠٠، ومن ثم أشار الجدول رقم (٢ ـ ٢) إلى رقم ١,٥ مليون ـ مليونين.

و ـ العراق

إن الدلائل التي تشير إلى عدد السكان ليست أفضل في حالة العراق. ويعتقد بيلوخ أن عدد سكان بابل في العصرين الفارسي والساساني كان أقل من ٦ ـ ٨ ملايين. وذهب راسل إلى تقدير عدد سكان الوادي بـ ١,٩ مليون. ويشير روبرت أدامز[٥٢] إلى أن عدد سكان الديالا السفلى قد ارتفع بشدة ليصل إلى ٨٠٠ ألف في عام ٨٠٠م تقريباً، أو ما يزيد بقليل على تقدير عددهم في عام ١٩٥٧. وفي هذا التاريخ الأخير وصل إجمالي عدد سكان العراق طبقاً للإحصاءات إلى ٦,٥٣٨,٠٠٠. وقد أكد هذه الأرقام المرتفعة مصدران: فمن ناحية، يعطي وصف الجغرافيين العرب انطباعاً بأن العراق بلد ذو كثافة سكانية عالية وزراعة كثيفة[٥٣]. ومن ناحية أخرى، فإن الأرقام الخاصة بعوائد الضرائب، رغم أنها تخضع لتفسيرات مختلفة، أعلى بوجه

---

(٤٩) EI₂, s.v. «Djazīrat al-Arab».

(٥٠) Great Britain, Admiralty War Staff, *A Handbook of Arabia*, p. 18.

(٥١) Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» p. 89.

(٥٢) Robert McCormick Adams, *Land Behind Baghdad: A History of Settlement on the Diyala Plains* (Chicago, Ill.: Chicago University Press, 1965), p. 115.

(٥٣) G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1930), chaps. 2 -7.

عـام من تلك الخاصـة بمصر[٥٤]. فـالـرقم المـوجـود في الجـدول رقم (٢ ـ ٢): ٥ ـ ٦ ملايين يمثـل ذروة عدد سكـان العراق. ووفقـاً لأدامز، فمـع عام ١١٠٠م هبط عـدد سكـان الديـالا السفلى إلى النصف، ثم أدّى الغـزو المغولي إلى انقـاصـه إلى أقـل من العشر، وهو الرقم الذي ظل قائماً حتى القرن التاسع عشر، حين تـراوح عدد سكـان العراق بين ١ ـ ١,٥ مليون[٥٥]، إلا أن عدد سكان العراق لم يتخطَّ ستـة ملايـين حتى الخمسينيات من القرن العشرين.

ز ـ إيران، افغانستان، آسيا الوسطى، الهند

ذهب راسل إلى تقديـر عدد سكـان «الهضبة المنبسـطة» ـ وهو المصـطلح الذي استخدمه ليعبّر عن المساحة الممتدة بين «بلاد الرافدين» ومـرو ـ بـ ٤,٦ ملايـين، وهو ما يبدو منخفضاً للغاية.

ففي بداية القرن التاسع عشر يرجح أن عدد سكـان ايران الحـالية لم يكن أقـلّ من ٥ ملايين ويمثل هذا بدوره (على وجه يكاد يكـون مؤكداً) نقصـاً عن مستوى فـترة الحكم الصفوي[٥٦]. ومن الممكن أن يقدَّر عدد سكان ايـران في القرن الثـامن بحوالى ٤,٣ ملايين، شرط أن يؤخذ في الاعتبار أنه من المرجح أن عدد السكان قد زاد عـلى نحو ملحوظ، وذلك حتى القرن الحـادي عشر أو الثاني عشر، وأنـه نقص بحدّة أثنـاء الغـزوات المغوليـة، ثم ازداد ببطء حتى القرن السـابع عشر. وبـإضـافـة التخمينـات الجزافية لعدد سكان أفغانستان (١ ـ ١,٥ مليون)، وآسيا الوسطى (ما بين ٥٠٠ ألف ومليون) والولايـات الهنديـة (مليونـين ـ ٣ ملايـين)، فإن المجمـوع الكلي للمجمـوعة (ب) يتراوح بين ١٣,٠ و١٧,٥ مليون نسمة.

ولسنا في حاجة إلى القول إن هذه الأرقام تعتمد أساساً على التخمين، وإذا كان من الممكن قبـول تلك الأرقام بـأي حال من الأحـوال، فإنها إنمـا تدل عـلى أن عـدد سكان الامبراطورية العربية في القرن الثامن كان يتراوح بين ٣٠ و٣٥ مليونـاً تقريبـاً، وذلك في مقابل تقدير راسل لسكانها بـ ٢٣,٣ مليوناً. وفي ما يتعلق بالقرنين التاليين،

---

(٥٤) Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» p. 9, et Eliyahu Ashtor, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval,* monnaie, prix, conjoncture; 8 (Paris: S.E.U.P.E.N., 1969), pp. 550-551.

(٥٥) محمـد سلمان حسن، التطور الاقتصـادي في العـراق: التجـارة الخـارجيـة والتـطور الاقتصـادي، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨ (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٦٥)، ص ٤١.

(٥٦) Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of Iran, 1800-1914,* Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 8 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1971), pp. 12-13 and 20.

والمصادر المذكورة فيه.

فمن المؤكد أن عدد السكان قد تزايد(٥٧)، ربما إلى ٣٥ ـ ٤٠ مليوناً، بما في ذلك مليون في صقلية وقبرص والجزر الأخرى التي تم فتحها في تلك الفترة. وتعتمد هذه الأرقام، بالطبع، إلى حد كبير على افتراض أن عدد سكان جنوب البحر المتوسط قد انخفض أثناء انحطاط روما وما بعد ذلك.

وإذا كان هناك افتراض آخر ـ وهو من غير المرجح أن يحدث ـ بأن عدد السكان ظل على ارتفاعه في العصر الروماني فإنه يجب رفع عدد سكان المجموعة (أ) في الجدول رقم (٢ ـ ٢) إلى ٢٥ مليوناً وعدد سكان المجموعة (ب) إلى ١٥ مليوناً، فيكون بذلك إجمالي عدد السكان ٤٠ مليوناً، وفي حال وجود افتراض ثالث، وهو بدوره غير محتمل ـ وهو أن عدد السكان في القرن الثامن لم يكن يزيد على بداية القرن التاسع عشر، وتقدير عدد سكان اسبانيا بخمسة ملايين ـ ينخفض عدد سكان المجموعة (أ) إلى ١٣ مليوناً والمجموع الكلي إلى ٢٨ مليوناً.

ثالثاً: الامبراطورية البيزنطية، القرن الحادي عشر

سيكون هذا القسم مختصراً جداً، بحيث إنه يعتمد كلياً على ثلاث دراسات، دراسة راسل، وڤريونيس، وكارانيس الذين راجعوا بجدية وبأسلوب نقدي كل مصادر أدبيات دراسات السكان البيزنطية(٥٨).

في ما يتعلق بالمساحة يقول أندريدس إنها كانت ١,٠١٠,٠٠٠ كلم٢ تحت حكم جوستينيان و٥٤٥,٠٠٠ كلم٢ في عام ١٠٢٤(٥٩)، بعد الهزائم الكبرى أمام

---

(٥٧) يمكن أن تساق هنا فكرة اشتور كتأييد لذلك، إذ قال «ولدينا كل الأسباب لنفترض أن فتح العرب لبلدان الشرق الأدنى وبناء امبراطورية الخلافة قد نتج عنه نمو ملحوظ في عدد السكان في تلك البلدان (مصر وسوريا والعراق) ويبدو أن الارتفاع الديمغرافي قد انتهى في القرن العاشر». انظر:

Ashtor, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval*, p. 544.

أما في ايران، فربما يكون ذلك الارتفاع قد استمر حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

(٥٨) Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» pp. 92-93 and 99-100; Speros Vryonis, *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Century*, Publications of the Center for Medieval and Renaissance Studies; UCLA; 4 (Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1971), pp. 25-30, et P. Charanis, «Observations on the Demography of the Byzantine Empire,» paper presented at: *Thirteenth International Congress of Byzantine Studies, Oxford, 1966* (London: [n.pb.], 1967), pp. 445-463.

وانظر أيضاً مقال:

A.P. Kazhdan, «Novye Issledovaniya po Vizantiiskoi Demografii,» *Vizantiiskii Vremennik*, vol. 29 (1968), pp. 307-310.

(٥٩) Cited in: Russell, Ibid., p. 93.

العرب، ثم الانتعاش تحت حكم مملكة المقدونيين، غير أن هذا الرقم يبدو صغيراً جداً. فقد امتدت سلطة بازيل لتشمل كل الأناضول وجنوب البلقان، بالإضافة إلى أجزاء من سوريا وما وراء القوقاز وايطاليا[٦٠]. وبتجاهل المجموعة الأخيرة، يمكن تقدير المساحة الكلية بحوالى ١,٢ مليون كلم² وهي تمثل مساحة تركيا الحالية ٧٨١,٠٠٠ كلم² واليونان الحالية ١٣٢٠٠٠ كلم² وبلغاريا ١١١,٠٠٠ كلم² وألبانيا ٢٩,٠٠٠ كلم²، وما يتراوح بين نصف وثلثي مساحة يوغوسلافيا ٢٥٦,٠٠٠ كلم² مجتمعة. أما في ما يتعلق بالسكان، فربما يكون أقرب العبارات إلى الصحة هي تلك التي قالها بيك في ما يتعلق بعصر جوستينيان: «ربما يكون أكثر من ١٠ ملايين، وربما يكون أقل من ٤٠ مليوناً. ومهما كانت تصوراتنا عن هذا التراوح الكبير، فإنه في واقع الأمر افضل من لا شيء»[٦١].

وقد اقترح شتاين الأرقام التالية: ٣٠ مليوناً تحت حكم جوستينيان، و٢٠ مليوناً أثناء النصف الأول من القرن الحادي عشر، ١٠ ملايين - ١٢ مليوناً تحت حكم كومنيني و٥ ملايين أثناء حكم ميخائيل الثامن الباليولوغوس[٦٢]. ويقدم راسل الجدول التالي (بالمليون)، والأرقام ما بين الأقواس قد تم إضافتها إلى جدول راسل:

السنة الميلادية	اليونان	البلقان	آسيا الصغرى	المجموع
١	٣,٠	٢,٠	٨,٨	١٣,٨
٣٥٠	٢,٠	٣,٠	١١,٦	١٦,٦
٦٠٠	١,٢	١,٨	٧,٠	١٠,٠
٨٠٠	٢,٠	٣,٠	٨,٠	١٣,٠
١٠٠٠	٥,٠	٢,٥	٨,٠	(١٥,٠ - ١٦,٠)
١٢٠٠	٤,٠	٢,٠	٧,٠	(١٣,٠)
١٣٤٠	٢,٠	٢,٠	٨,٠	(١٢,٠)

المصدر: Josiah C. Russell, «Late Ancient and Medieval Population,» *Transactions of the American Philosophical Society*, vol 48 (1958), p. 148.

---

(٦٠) انظر الخريطة الموجودة في:

Nina Garsoian, «Later Byzantium,» in: John Arthur Garraty and Peter Gay, eds., *The Columbia History of the World* (New York: Harper and Row, 1972), p. 442.

(٦١) في التعليق على دراسة كارانيس في المؤتمر الدولي الثالث عشر:

Charanis, «Observations on the Demography of the Byzantine Empire».

(٦٢) E. Stein, «Introduction...,» *Traditio*, vol. 7 (1949-1951).

وهو ما أتى به كارانيس في: Charanis, Ibid., p. 446.

وفي دراسة أحدث، ذهب راسل إلى أن عدد سكان الأناضول ظل حوالى ٨ ملايين حتى نهاية القرن الحادي عشر، ثم انخفض إلى ٦ ملايين مع بداية القرن الثالث عشر[٦٣]. وربما يكون تقدير الرقم بـ ١٥ مليوناً ـ ٢٠ مليوناً يشير إلى تقدير الحجم في عام ١٠٠٠ تقريباً. وقد أكد هذا التذبذب تلك الأرقام التي جاءت عن الامبراطورية العثمانية والتي سوف نعرض لها في القسم التالي، بالاضافة إلى تقدير اجمالي عدد سكان المجموعة (ب) في الجدول رقم (٢ ـ ١). وقد لخص كارانيس النقاط التي بدا هناك بعض الاتفاق حولها كما يلي، وهي الأرقام التي كانت، في ما يبدو، مقبولة من جانب فريونيس[٦٤].

«في بداية القرن السادس، كان العدد الكلي لسكان المناطق التي شكّلت الامبراطورية الشرقية أكبر من مجموع عدد سكان تلك المناطق نفسها في بداية القرن الرابع. وقد بدأ الانخفاض في عام ٥٤١م واستمر ـ أو على الأقل لم يحدث فيه أي زيادة ملحوظة ـ حتى منتصف القرن التاسع تقريباً. في الوقت نفسه ـ عانت الامبراطورية نقصاً كبيراً في السكان مع الفتح العربي وما تلاه من احتلال لكل شبه جزيرة البلقان من جانب السلافيين. وقد بدأ عصر جديد مع نهاية القرن التاسع وظل حتى عام ١٠٧١م وقد أضاف التوسع الكبير في أراضي الامبراطورية في تلك الفترة إلى عدد سكانها على نحو كبير، بالإضافة إلى التركيز أيضاً في عدد سكان المناطق القديمة. وقد أدى فقدان الأقاليم الشرقية بعد معركة مانتزيكرت (ملازجرت) (Malazgirt) إلى نقص سكان الامبراطورية، غير أنه كان هناك انحسار في سكان ذلك الجزء من آسيا الصغرى ـ الذي استعاده ألكسيوس كومنينوس وخليفته الذي تلاه مباشرة ـ في القرن الثاني عشر. أما شبه جزيرة البلقان فقد شهدت تزايداً واضحاً في عدد سكانها بدأ مع نهاية القرن التاسع، وإن كان قد اتضح على وجه الخصوص بعد الحروب البلغارية. واستمر هذا التزايد حتى نهاية القرن الثاني عشر. ولا يمكن أن نعطي أي أرقام لأي من هذه الفترات».

رابعاً: الامبراطورية العثمانية، القرن السادس عشر

سيكون هذا القسم مختصراً جداً أيضاً، بحيث قام عمر برقان بالفعل بالعمل الرائد في هذا المجال، وهو الذي تُعدّ أرقام السكان التي اقترحها، والتي تعتمد على

(٦٣) Josiah C. Russell, «Recent Advances in Mediaeval Demography,» *Speculum*, vol. 40 (1965), pp. 84-101.

(٦٤) Charanis, «Observations on the Demography of the Byzantine Empire,» p. 461, and Vryonis, *The Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Century*, p. 26.

«الدفاتر» العثمانية أكثر دقة من أي أرقام وضعت في الفترة ما قبل القرن التاسع عشر، وتم الإشارة إليها في هذا البحث(٦٥).

ولأغراض هذه الدراسة، يمكن تقسيم الإمبراطورية العثمانية تحت حكم سليمان إلى ثلاثة أقسام: **الأول**، تركيا الأوروبية التي تضم أراضي تركيا الأوروبية الحالية (٢٤ ألف كلم٢) واليونان وبلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا (انظر القسم السابق) والمجر (٩٣,٠٠٠ كلم٢) ورومانيا (٢٣٨٠٠٠ كلم٢) والتي يصل مجموعها إلى ٨٨٣٠٠٠ كلم٢. وبضم الأراضي الواقعة وراء نهر دنيستر(٦٦) يصل مجموع المساحة الكلي إلى مليون كلم٢ أو ما إلى ذلك. والثاني، الأناضول بمساحتها الحالية ٧٥٧٠٠٠ كلم٢. والثالث، الأراضي العربية (سوريا والعراق ومصر وشمال افريقيا)(٦٧)؛ وقد اقترح بيلوخ بالنسبة إلى ذلك القسم أن تكون المساحة ٦٨٣٠٠٠ كلم٢، آخذاً في الاعتبار الأراضي الساحلية العربية المحاذية للبحر الأحمر والخليج الفارسي إذ يصل الرقم إلى ٧٥٠ ألف كلم٢، ومن ثم كان الرقم الكلي حوالى ٢,٥ مليون كلم٢، أو حوالى ضعف الامبراطورية البيزنطية.

١ ـ يعتمد الرقم الذي افترضه برقان لعدد السكان، على عدد المنازل في الفترة بين عامي ١٥٢٠ ـ ١٥٣٥ مضروباً في خمسة، كما يلي(٦٨): تركيا الأوروبية (بما فيها اسطنبول) ٥,٩٥٩,٠٠٠ والأناضول ٥,١٦٢,٠٠٠ وسوريا ٥٧١,٠٠٠ والمجموع ١١,٦٩٢,٠٠٠. ويحتاج هذا الرقم إلى تعديل كبير لزيادته، اقترح برقان نفسه إضافة ١٠ ـ ١٥ بالمئة ليأخذ في الاعتبار «الفجوة الممثلة في طبقات عسكرية معينة بالإضافة إلى العبيد»، فيرتفع الرقم الاجمالي بذلك إلى ١٢ ـ ١٢,٥ مليوناً.

٢ ـ كما أشار هو نفسه أيضاً، فإن الرقم الخاص بشرق الأناضول وسوريا هو رقم

---

(٦٥) Omar Lutfi Barkan, «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire ottoman aux xve and xvie siècles,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 1 (1957), pp. 9-36.

(٦٦) دنيستر (Dniester): نهر ينبع في جبال كاربات قرب حدود بولونيا ويصب في البحر الأسود. (المترجمة).

(٦٧) لم يتم في الواقع فتح تونس حتى ما بعد وفاة سليمان عام ١٥٧٤.

(٦٨) إن مسألة عدد الأشخاص في كل بيت مسألة محيرة إذ إنه وجدت أرقام تزيد عن خمسة وتقل عنها. انظر:

Russell, «Recent Advances in Mediaeval Demography»; Josiah C. Russell, «Late Medieval Balkan and Asia Minor Population,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 3 (1960), pp. 265-274; Thomas Henry Hollingsworth, *Historical Demography*, Sources of History, Studies in the Uses of Historical Evidence (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1969).

أضف إلى ذلك الأرقام التي أوردها: Kazhdan, «Novye Issledovaniya po Vizantiiskoi Demografii».

أقل من الحقيقة بلا شك نتيجة عدم الاستقرار الذي أحدثته الحروب والغزوات[69].

٣ ـ لا تغطي الأرقام الخاصة بأوروبا المنطقة التي تقع ما وراء أقاليم الدانوب بحيث يفترض أن إضافة تلك المناطق سوف ترفع الاجمالي بمقدار مليون أو مليونين آخرين. غير أنه يجب الاشارة إلى أن أرقام برقان تقترب من الأرقام التي قدمناها في ما سبق عن الامبراطورية البيزنطية.

٤ ـ هذه الأرقام تحذف العراق أيضاً، الذي لم يتم فتحه حتى عام ١٥٥٥، وهو ما يتطلب إضافة ما بين ٥٠٠ ألف إلى مليون، كما أنه لا بد من إضافة رقم صغير آخر للأراضي العربية الساحلية.

٥ ـ يجب أن يجري تعديل في ما يتعلق بالأرقام التي وردت عن مصر وشمال افريقيا، ويمكن قبول أرقام برودل التي أقرّها برقان (مليونان ـ ٣ ملايين لكل منطقة)[70]. وأخيراً لفت برقان الانتباه إلى أن عدد السكان قد زاد على نحو ملحوظ حتى نهاية القرن السادس عشر، وهي الحقيقة التي أكدتها دراسة كوك شديدة الدقة. وقد أعطى كوك حجة وجيهة للاعتقاد بأنه في نهايات القرن السادس عشر كان عدد سكان جزء كبير من الأناضول حوالى نصف عددهم في ١٩٤٠[71]. وهو الأمر الذي يشير إلى تقدير عدد سكان شبه الجزيرة ككل بحوالى ٨ ملايين.

وقد ذهب برودل إلى تقدير الأرقام التالية لنهاية القرن السادس عشر (بالمليون) تركيا الأوروبية ٨، تركيا الأسيوية ٨، مصر ٢ ـ ٣، شمال افريقيا ٢ ـ ٣، والمجموع ٢٠ ـ ٢٢ مليوناً. ويميل برقان إلى رفع هذا المجموع الكلي إلى ٣٠ أو حتى ٣٥ مليوناً على أساس دراسة لم يتم نشرها بعد. ويمكن أن نضيف هنا أن هبوطاً حاداً في عدد السكان قد حدث في القرنين التاليين، حين كان عدد سكان الأناضول ـ وفقاً لإحصاءات عام ١٨٣١ ـ حوالى ٢,٥ ملايين وروميليا واسطنبول ٤,٤ ملايين[72].

---

(٦٩) تعاني الأرقام المتاحة عن سوريا من عيب آخر، وهو أنها تبخس من الأرقام الخاصة بالمسيحيين وتحذف تلك الخاصة باليهود. انظر:

Charles Philip Issawi, «Comment on Professor Barkan's Estimate...,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient,* vol. 1 (1958), pp. 329-333,

وانظر رد برقان على ذلك.

(٧٠) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Colin, 1949), p. 137.

(٧١) M.A. Cook, *Population Pressure in Rural Anatolia, 1450-1600,* London Oriental Series; v. 27 (London; New York: Oxford University Press, 1972), p. 17.

(٧٢) Enver Zia Karal, *Osmanli Impartorlugunda ilk Nüfus Sayimi, 1831,* Nesriyat; no. 195, Tetkikler Serisi; no. 87 (Ankara: [n.pb.], 1943), and F. Akbal, «1831... Taksimat ve Nüfus,» *Bulleten,* vol. 15 (1951). =

خامساً: استنتاجات

يمكن الآن أن نلخص نتائج هذه الدراسة. إنما ينبغي الاشارة مرة أخرى إلى أن كثيراً من هذه الأرقام ما هو إلا تخمينات، ورغم ذلك، فإنني أعتقد أنه يمكننا وضع بعض التقديرات والوصول إلى بعض الاستنتاجات.

١ ـ في ما يتعلق بالمساحة، كانت الامبراطورية العربية، التي قدّرت مساحتها بـ ٩ ـ ١٠ ملايين كلم٢، أكبر من غيرها من الامبراطوريات. إنما إذا تم استبعاد الأقاليم الصحراوية فإن مساحتها المأهولة، التي تزيد بقليل على مليوني كلم٢ تعدّ أقل من نظيرتها في الامبراطورية الرومانية (إذ ربما كانت مساحتها المأهولة حوالى ٣ ملايين كلم٢، بينما كانت المساحة الكلية ٣,٥ ـ ٤ ملايين)، وتكون أيضاً مساوية تقريباً لمساحة الامبراطورية العثمانية (التي من المرجّح أن مساحتها المأهولة كانت مليوني كلم٢ من واقع ٢,٥ مليون كلم٢ هي المساحة الكلية). وقد كانت الامبراطورية البيزنطية أصغر بكثير، إذ كانت مساحتها الإجمالية١,٢ مليون كلم٢، منها مليون فقط على الأرجح مأهولة بالسكان.

وتستحق هذه الأرقام الاهتمام، فهي تُلقي بعض الضوء على التاريخ السياسي والديمغرافي لهذه الامبراطوريات. فقد كانت الامبراطورية العربية أكبر الامبراطوريات الأربع؛ تليها الرومانية والعثمانية ثم البيزنطية. وقد اختلف أيضاً الهيكل الجغرافي في كل منها على نحو كبير. فكانت الامبراطورية العربية هي الأكثر امتداداً، فكان أقصى طول لها (من المغرب حتى آسيا الوسطى) أكثر من ٤ آلاف ميل وكانت البيزنطية هي الأصغر امتداداً. وتوضح أي خريطة للسكان أو النبات أن الامبراطورية العربية تكوّنت من جزر صغيرة من المساحات المأهولة والمزروعة تحيط بها مساحات واسعة من الصحارى. أما في الامبراطوريات الأخرى، خاصة الرومانية، فكانت المساحات المزروعة والمأهولة أكثر. وأخيراً اختلفت هذه الامبراطوريات في ما يتعلق بإمكانية الوصول إلى البحر، في وقت كان فيه النقل البحري أرخص وأسرع بدرجة ملحوظة بالمقارنة بالنقل البري. وقد كانت الامبراطورية الرومانية محظوظة، إذ إن معظم سكانها كانوا يسكنون في منطقة بيضاوية الشكل مركزها روما، ويحيط البحر المتوسط بكل شواطىء المنطقة، ولم تكن أي نقطة في هذه المنطقة تبعد عن روما أكثر من مسافة بضعة أيام، عن طريق البحر. وقد تركّز سكان الامبراطورية البيزنطية أيضاً في

= وقد ناقش شارل عيساوي هذه الأرقام وغيرها من الاحصاءات في:

Charles Philip Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914*, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 13 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1980).

مساحات تقع على طول سواحل البحر المتوسط والبحر الأسود أو بالقرب منها، والتي يوجد للقسطنطينية مدخل سهل إليها عن طريق البحر. غير أن أقاليم الأناضول الشرقية والبلقان الشمالية كانت بعيدة عن البحر، ومن ثم كان من الصعب السيطرة عليها.

ويصدق ذلك بشكل أكبر على الامبراطورية العثمانية التي اتسعت أكثر نحو الداخل في الاتجاهين، بالمقارنة بالامبراطورية البيزنطية. غير أن أسوأ تلك الامبراطوريات وضعاً كانت الامبراطورية العربية التي امتدت أقاليمها إلى قلب آسيا ووقعت مناطقها الساحلية على بحرين لا يوجد أي اتصال بينهما (بعد ردم القناة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر) وهما البحر المتوسط والبحر العربي بذراعيه البحر الأحمر والخليج العربي.

وتساعد هذه العوامل على شرح الاختلاف في طول المدة التي استغرقتها كل امبراطورية لتستعيد وحدتها. لقد اهترأت الامبراطورية العربية أسرع من غيرها، فمع حلول عام ٨٠٠م، أي في غضون ١٥٠ عاماً من إنشائها، تمزقت الامبراطورية العربية إلى دويلات مستقلة عديدة. أما وحدة كل من الامبراطورية العثمانية والرومانية فقد استمرت لفترة أطول (حوالى ٦٠٠ عام). أما الامبراطورية البيزنطية - حتى إذا اعتبرنا أن تدهورها كان في عام ١٢٠٤ (الحملة الصليبية الرابعة) - فإنها بذلك تكون قد استمرت ٨٠٠ عام، ومع عام ١٤٥٣ كانت قد عاشت ألف عام.

إن مسألة بقاء الامبراطوريات وصمودها أمام الهجمات الخارجية (باعتباره أمرا يختلف عن الحفاظ على الوحدة الداخلية) هي مسألة أخرى، فيجب أن يؤخذ في الاعتبار بشأنها العديد من العوامل الإضافية مثل مستوى التقانة، والتنظيم والتضامن داخل كل امبراطورية بالمقارنة بجيرانها المتحضرين والهمج معاً، وهو الأمر الذي يخرج بوضوح عن نطاق عمل هذه الدراسة.

أما في ما يتعلق بالسكان، فقد فاقت الامبراطورية الرومانية بعدد سكانها (٦٠ - ٧٠ مليوناً في القرن الثاني) كل الامبراطوريات الأخرى. وقد ذهب بعض العلماء إلى أن عدد سكان الامبراطورية العربية في أعلى مراحله في القرنين التاسع والعاشر (حين كانت قد فقدت وحدتها السياسية آنذاك) كان قد وصل إلى حوالى ٣٥ - ٤٠ مليوناً. وقد قُدِّر اجمالي عدد سكان الامبراطورية البيزنطية بحوالى ١٥ - ٢٠ مليوناً أثناء الطفرة التي حدثت بعد عهد جوستينيان في أوائل القرن الحادي عشر. أما الامبراطورية العثمانية، فمن المرجح أن أعلى نقطة وصلت إليها كانت ٣٠ - ٣٥ مليوناً في نهاية القرن السادس عشر.

وقد تم تلخيص تلك النتائج في الجدول رقم (٢ ـ ٣)، ويأتي هذا الجدول بحقيقة أخرى إضافية، وهي تمركز السكان في المناطق المأهولة. لقد كان تقارب الأرقام في الامبراطوريات العربية والبيزنطية والعثمانية مثيراً، إنما الأكثر إثارة هو أن الأرقام الخاصة بالمساحة قد تم التوصل إليها على نحو مستقل تماماً عن أرقام السكان. بالطبع يمكن أن يكون التقارب في الأرقام الخاصة بكثافة السكان قد جاء بمحض المصادفة، غير أنه لم يكن غير متوقع على أي حال، إذا ما أخذنا في الاعتبار التماثل في الظروف المناخية والتقانية والاجتماعية للامبراطوريات الثلاث، الأمر الذي يضيف تأكيداً على تقديرات السكان. ويمكن أن نعزو الكثافة العليا ـ إلى حد ما ـ في الامبراطورية الرومانية إلى المناخ الأفضل، بخاصة أنها أكثر مناطق شمال البحر المتوسط تمتعاً بغزارة الأمطار، وذلك مقارنة بالجنوب، كما يمكن أن يرجع ذلك إلى الأمن الداخلي الأفضل.

جدول رقم (٢ ـ ٣)

المساحة والسكان في الامبراطوريات الأربع

	الرومانية	العربية	البيزنطية	العثمانية
المساحة الكلية (مليون كلم^2)	٣,٥ ـ ٤	٩ ـ ١٠	١,٢	٢,٥
المساحة المأهولة (مليون كلم^2)	(٣)	(٢)	(١)	(٢)
السكان بالمليون	٦٠ ـ ٧٠	٣٥ ـ ٤٠	١٥ ـ ٢٠	٣٠ ـ ٣٥
الكثافة/ كلم^2 للمساحة المأهولة	٢٠ ـ ٢٣	١٧,٥ ـ ٢٠	١٥ ـ ٢٠	١٥ ـ ١٧,٥

ويمكن المرء أن يقترح بعض الاتجاهات للبحوث المقبلة التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على حجم السكان واتجاهاتهم. فيمكن أن يبذل جهد أكبر بكثير لتقدير عدد سكان المدن مستخدمين في ذلك الدلائل الأدبية والأثرية واستخدام النتائج الديمغرافية والأنثروبولوجية لتحديد متوسط حجم الأسرة. وتوضح دراسات جان سوفاجيه عن حلب ومارسيل كليرجيه واندريه ريمون وجانيت أبو لغد عن القاهرة، وروجيه لو تورنو عن فاس ويعقوب لاسنر عن بغداد وريشار بولييه عن نيسابور ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الطريق الذي يمكن اتباعه في هذا المجال. كما ينبغي أيضاً جمع البيانات عن أحجام الجيوش وتكوينها وعوائد الضرائب ومقارنتها، وربما يكون الأكثر أهمية من ذلك هو ضرورة القيام بوضع دراسات كثيرة عن انتشار المستوطنات في مختلف الفترات ومدى اتساع الأراضي الزراعية ونوع المحاصيل المزروعة. وحين نقوم بذلك سيكون من الممكن تقديم معلومات وليس مجرد تخمينات ـ تعتمد على معلومات

ضئيلة ـ مثل التي أوردناها في ما سبق. وفي الوقت نفسه، يمكننا القول مع الاقتصادي البارز سايمون كوزنتس «إن التخمين وسيلة فعالة من أجل تقديم إطلالة عامة في مجال ما، ما دام ينظر إليه باعتباره عملية تجميع للمعلومات التي تتطلب مزيداً من البحث، أكثر منه منظومة من النتائج التي تم اختبارها بالفعل، في هذه الحالة فقط يقل الضرر وتكبر المنفعة»[٧٣].

(٧٣) Simon Kuznets, «Economic Growth and Income Inequality,» *American Economic Review*, vol. 45, no. 1 (March 1955), p. 26.

الفصل الثالث

الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي

أولاً: رؤية تاريخية طويلة المدى

إن الموضوع الذي اخترته، هنا، شديد الاتساع في المكان والزمان، ولكنه ليس بلا حدود في أي من هذين المجالين. فالشرق الأوسط الذي سأدرسه يتكوّن من مصر، والهلال الخصيب، وايران، والأناضول، ولكن ينبغي أن نضيف أيضاً جزيرة العرب، التي لا نكاد نعرف عن اقتصادها شيئاً سوى أن اليمن كانت تمتلك زراعة مزدهرة باستخدام الري في الأعوام الألف الأولى قبل الميلاد، ثم أصابها بعض الانحطاط قبل العصر الاسلامي، وانها كانت تصدِّر البخور، وأنها أدت دوراً هاماً في التجارة بين الهند والشرق الأوسط. وتشير عبارة «الاقتصاد العالمي» ـ في معظم الحالات ـ إلى حوض البحر المتوسط وما حوله من أراضٍ أوروبية وآسيوية وافريقية. غير أنه سوف يكون من الضروري الإشارة إلى الهند واندونيسيا والصين ـ وإلى أوروبا الغربية (في الفترة الحديثة). أما بالنسبة إلى الفترة الزمنية فيمكن للمرء أن يعود إلى ما قبل التاريخ، ولكنني لن أقوم بذلك، فمن الحكمة أن يتبع المرء نصيحة القاضي داندين في كوميديا راسين المترافعون (Les Plaideurs)، فقد أجاب عن المحامي الذي بدأ خطابه بعبارة «قبل ميلاد العالم» بقوله: «أيها المحامي، دعنا نبدأ من مرحلة الطوفان». ومن ثم فسوف أبدأ من العصر الهيليني(*)، الذي يعتبر ماضياً بعيداً بما فيه

(*) العصر الهيليني (الهلينستي) يختلف عن الاغريقي. فالهيلينية هي الثقافة التي أفرزت غزوات الاسكندر الأكبر وتطورت في مراكز ثقافية هامة، خاصة الاسكندرية (مصر). وبالتالي فإن الهيلينية قد بدأت في القرن الرابع قبل الميلاد، واستمرت تؤثر في ثقافة الشرق، ربما حتى انتشار الاسلام في أربعينيات القرن السابع بعد الميلاد واستمرت الحضارة أو الثقافة الهيلينية بالتالي نحو ألف عام. (المترجمة).

الكفاية. وقبل أن أقوم بذلك، دعـوني أذكّركم، بـاختصار شـديد، بمـا حقّقه الشرق الأوسط بالفعل في السنـوات الثلاثـة الآلاف أو الأربعة الآلاف الأخـيرة. لقد نشـأت خمسة مراكز متمايزة لحضارات عظيمة، لكل منها هيكلها وسياستها الاقتصادية الخاصـة بها: بلاد الرافدين ومصر وسوريا وايران والأناضول، وتشترك مصر وبلاد الرافدين في سمة اقتصادية أساسية هي أن كلاّ منهما قد اعتمدت على الزراعة القائمة عـلى الري، الأمـر الذي كـان يعني ضرورة القيام بجهـود مستمرة ومتضـافرة ومنضبـطة من أجـل الحفاظ على قنـوات الري والسـدود والمصارف. وليس من قبيـل المصادفـة أن نرى في منـطقة وادي النيـل ووادي دجلة والفرات أولى المـدن وأولى الـدول وأول الـدواوين، وأولى طرق الكتابة وأول تقويم وأول مقاييس وحسابـات منهجية في تـاريخ البشريـة. فقد قدمت الـزراعة المـروية الفـائض اللازم لـلانفاق عـلى المدن والمـوظفين والعسكـر والكهنة والعلماء والشعراء والفنـانين وكـل مظاهـر الحضارة الأخـرى. كذلـك دعمت الزراعة المروية الحرفيين اليدويين، وتشهد المتاحف على ما وصـل إليه مستـوى الحرف اليدوية مثل النسيج والفخّار والزجاج وصناعة المعادن والسجاجيد وغـيرها من الحـرف الأخرى.

غـير أنني أود أن استطرد هنـا وأشـير إلى بعض الاختـلافـات بـين مصر وبـلاد الـرافدين بحيث إن بعضهـا استمر لآلاف السنـين والبعض الآخر لا يـزال قائـماً حتى الآن. أولاً، تحمي مصر صحارى شاسعة مقفرة، ومن ثم فقـد تمتعت بفترات أطـول من الحصانة إزاء الغزو الخارجي. ثانياً، وكما قال السير وليام ولكوكس ـ وهو مهندس بارز عمل في مصر والعراق والهند ـ «من بين كل الأنهار نهر النيل هو الأكـثر وداعة» إذ يتسم ارتفاعه وهبوطه السنـوي بالانتـظام وامكانيـة التنبؤ به وهـو ما يتنـاقض مع قـوة اندفاع نهري دجلة والفرات اللذين تسببا منذ عهد نوح في دمار لا حدود له. والأكـثر من ذلك أن فيضان نهر النيل يحدث في وقت مناسب تماماً للزراعة. كـما أن النيل أقـل ملوحة من دجلة والفرات، ومن ثم فهو يسبب نسبة أقل من الملوحة للتربة.

ويصرف فيضان نهر النيل نفسه بنفسه، بينـما يؤدي انحدار سهـل الرافـدين إلى الحاجة إلى بناء قنوات الصرف المتشعبة وتطهيرها بانتظام. وبما أن تلك العملية كـانت تهمل ـ كما كان يحدث غالباً ـ إمـا بسبب ضعف الحكم أو الغارات القبليـة أو لأسباب أخرى، فإن الكثير من الأراضي كان يتحول إلى أراضٍ بور. وأخيراً، فإن الرياح التي تهبّ عـلى نهر النيل إنمـا تهبّ من الشمال، الأمـر الذي يعني امكـانية الإبحـار جنـوبـاً بالأشرعة عكس التيار والطفو شمالاً مع التيار. وهذا ما أعطى مصر ما تفتقر إليه بقية أجزاء الشرق الأوسط، وهو وجود ممر مائي داخلي يضـاهي الممرات المـائية في أوروبـا وأمريكا وروسيا والهند والصين، كما أنه قد كـرّس إلى حد كبـير وحدة مصر السيـاسية ونشاطها الاقتصادي.

وهناك اختلاف آخر جدير بالاشارة، فمنذ قديم الزمن وجدت ملكية خاصة للأراضي في بلاد الرافدين على عكس مصر. كما ظهرت مجموعة من التجار والصيارفة - على عكس مصر أيضاً - وهم الذين طوروا تجارة القوافل التي ربطت في ما بعد بين سوريا والجزيرة العربية واقليم البحر الأسود وايران والهند والصين. فبلاد الرافدين - على عكس مصر - كانت تفتقر إلى الكثير من المواد الخام الضرورية (مثل الأحجار والمعادن)؛ ومن ثم كان عليها أن تأتي بها عن طريق التجارة. وربما لا يكون مصادفة أن ينشأ مفهوم القانون في بلاد الرافدين، وأن تظهر وتتطور لوائح وقوانين مثل تلك التي وضعها حمورابي، وهي الحقيقة التي كانت ذات مغزى عظيم لتطور البشرية ككل، فهناك جزء كبير جداً من تلك المبادىء يتعلق بالمعاملات الاقتصادية ومفهوم العدالة الاقتصادية[1].

ويمكن الحديث عن المراكز الثلاثة الأخرى (الأناضول وسوريا وإيران) على نحو أكثر اختصاراً. إذ تعتمد الزراعة في هذه المراكز على الأمطار، وهو ما يعني وجود فائض أقل ودرجة أعلى من التذبذب في المحاصيل، ولكنه يعني، أيضاً، إمكانية أقل لحدوث انهيار اقتصادي كامل. وقد كانت الأناضول على الأقل منذ الألف الثالث قبل الميلاد تصدِّر المعادن مثل النحاس والفضة ثم الحديد، في ما بعد، إلى بلاد الرافدين وسوريا في مقابل المنسوجات وغيرها من المنتوجات الصناعية[2]. كما تمتعت سوريا، أيضاً، باقتصاد حضري في الألف الرابع قبل الميلاد وهو الاقتصاد الذي بدأنا لتونا نعرف الكثير عنه نتيجة اكتشاف السجلات الضخمة لمدينة «أبلا» وهي مدينة قريبة من حلب[3]. غير أن السوريين الساحليين «الفينيقيين» كانوا الأكثر تميّزاً، إذ كانوا أول التجار العظام في العصور القديمة. فمنذ قديم الزمن كان للسوريين والفينيقيين تجارة واسعة مع مصر وبلاد الرافدين، فصدّروا الأخشاب والمنسوجات والزجاج وغير ذلك من المصنوعات وحصلوا على حقّ احتلال أحياء خاصة في مدن مصرية معينة. وفي ما بعد وسّعوا نشاطهم بشدة منشئين مستعمرات في شمال افريقيا واسبانيا، ومبحرين إلى بريطانيا وغرب افريقيا[4]. ووفقاً لرواية هيرودوت - الذي كان شديد

---

(1) H.W.F. Saggs, *The Greatness that was Babylon: A Sketch of the Ancient Civilization of the Tigris - Euphrates Valley* (New York; London: Sidgwick and Jackson, 1962), pp. 196-232 and 269-298; A. Leo Oppenheim, *Ancient Mesopotamia* (Chicago, Ill.: Chicago University Press, 1964), pp. 83-95; Joan Oates, *Babylon* (London: [n.pb.], 1979), pp. 11-15.

وانظر أيضاً: Karl Polanyi, Conrad M. Arensberg and Harry W. Pearson, eds., *Trade and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory* (Glencoe, Ill.: Free Press, 1957).

(2) Oliver Robert Gurney, *The Hittites* (London; Baltimore, Mad.: Penguin Books, 1954), pp. 80-88.

(3) Chaim I. Bermant and Michael Weitzman, *Ebla: A Revelation in Archeology* (New York: Times Books, ©1979).

(4) Sabatino Moscati, *The World of Phoenicians*, translated from the Italian by Alastair Hamilton, Praeger History of Civilization (New York: Praeger, 1968).

الحذر في ما يتعلق بهذا الموضوع ـ أصبح من شبه المؤكد أن الفينيقيين قد داروا حول افريقيا بناء على طلب فرعون مصر «نينخو» في عام ٦٠٠ قبل الميلاد تقريباً[٥]. هذا التركيز على الصناعة والتجارة كان أمراً فريداً من نوعه في العصور القديمة، فكما قال غوردون تشايلد «إن نسبة الذين عملوا بالصناعة والتجارة من الفينيقيين كانت أكبر بكثير من الذين عملوا بها في مصر وبابل وأشور وبلاد الرافدين حيث كانت الزراعة تسيطر على مجمل النشاط الاقتصادي»[٦]، وقد انعكس هذا الهيكل الاجتماعي على المؤسسات السياسية الفينيقية.

وربما لا يكون من قبيل المصادفة أن ابتدع هؤلاء التجار الحروف الأبجدية، وقاموا بنشرها. ولديّ نظريتي الخاصة حول هذا الموضوع. فنحن نعلم أنه استعمل في أوغاريت ـ وهي موطن أقدم أبجدية معروفة ـ خمسة خطوط مختلفة بما فيها المسمارية والهيروغيلفية. وفي يوم ما، انزعج أحد رجال الأعمال اللبنانيين من كلفة استخدام خمسة موظفين وقال: «لا بد من طريقة أفضل للقيام بالعمل، فلنفكر». واخترع حروف الكتابة!

وتتضمن المساهمات العديدة لإيران في التنمية الاقتصادية للشرق الأوسط بناء السدود والقنوات تحت الأرض، وجلب الكثير من النباتات من الهند. غير أن الاسهام الأكثر أهمية، ربما يكون هو توسيع الأسواق. لقد كانت الامبراطورية الفارسية أكبر امبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الوقت، إذ ضمّت الشرق الأوسط كله، وامتدت إلى الهند وآسيا الوسطى؛ وربطت الطرق وخطوط البريد الممتازة بين الأقاليم المختلفة والعاصمة. كما تمّ توحيد وحدات القياس والوزن وصكّ عملات ذهبية وفضية موحّدة لكل الأقاليم، وتم استكمال شق قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر. نتيجة لذلك، شهدت التجارة اتساعاً كبيراً. وفي هذا الشأن يقول غيرشمان: «لقد تجاوز حجم التجارة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد أي مقدار عرف في ما سبق في منطقة الشرق القديم، غير أن أهم ما تميّزت به التجارة هو أنها كانت تركّز بالأساس على المنتوجات العادية المستخدمة في الحياة اليومية، وعلى الأدوات المنزلية والملبوسات الرخيصة، وذلك عكس الفترات السابقة لها التي ركّزت على السلع الكمالية. ومن ثم فقد اتجه تطور الصناعة إلى خدمة كل طبقات المجتمع في الامبراطورية»[٧]. كما يبدو أن التجارة مع الأقاليم الأخرى كانت على نطاق أوسع من

---

(٥) Herodotus, *The Persian Wars, IV-42,* translated by George Rawlinson with an introduction by Francis R.B. Godolphin, Modern Library; 255 (New York: Modern Library, 1947), p. 306.

(٦) Gordon Childe, *What Happened in History,* A Pelican Book (Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, ᶜ1942), p. 146.

(٧) R. Ghirshman, *Iran* (London: [n.pb.], 1954), pp 186 and 181-188.

وانظر أيضاً: Albert Ten Eyck Olmstead, *History of the Persian Empire: Achaemenid Period* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1948), pp. 83-85 and 299-301, and Hans E. Wulff, *The Traditional Crafts of Persia: Their Development, Technology and Influence on Eastern and Western Civilization* (Cambridge, Mass.: M I.T. Press, ᶜ1966), pp. 246-250.

ذي قبل، خاصة مع الهند وجنوب الجزيرة العربية واليونان[8].

وقد أدّى انتصار الاسكندر إلى جلب الفن والفكر والتقنيات اليونانية الأرفع التي لا مثيل لها إلى قلب الشرق الأوسط. وقد تم بناء مئات المدن اليونانية إما على يده أو على أيدي خلفائه، من الاسكندرية في مصر إلى الاسكندرية ـ اريون في افغانستان والتي تعرف باسم «هراة»، ومن انطاكية في سوريا إلى انطاكية الفارسية على الخليج. كما لا بد من أن يكون عدد المواطنين من اليونانيين والمقدونيين بلغ مئات الآلاف. إنما سرعان ما انحسر تدفّق اليونان بشدة وانحطت المدن الناشئة. وفي المجال الاقتصادي، شهدت الفترة الهيلينية تطورين مهمين: الأول، تطور موارد الشرق الأوسط على نحو أكثر رشادة وكثافة من أي وقت مضى؛ الثاني، أن حجم التجارة ومداها بين مختلف أجزاء منطقة الشرق الأوسط، ومع الأقاليم الأخرى، قد اتسعا على نحو كبير[9].

ويمكن ملاحظة العملية الأولى بمزيد من الوضوح في مصر التي تتوافر عنها معلومات أكثر من أي بلد آخر. فقد خطط البطالمة للاقتصاد وأداروه بفضل بيروقراطية فعّالة من أجل تعظيم مخرجاته وتطوير امكاناته الانتاجية. وقد تمّ التوسع في الري عن طريق استحداث الساقية والطنبور وغيرهما من الأدوات. كما تم توسيع الرقعة المزروعة وادخال نباتات جديدة بما في ذلك الزيتون والكروم وفواكه مختلفة وأنواع مستحدثة من القمح. واستغلّت المناجم على نحو أكثر كثافة، وتحسّنت الصناعات اليدوية (بخاصة صناعة الفخار والنسيج والمعادن)، وتزايدت قوة البلاد الانتاجية على نحو ملحوظ. إنما يجب أن نضيف هنا أن معظم هذه الزيادة كانت تمتصها الطبقة الحاكمة اليونانية، بينما شهد مستوى معيشة سكان مصر القليل من التحسّن، إذا كان هناك أي تحسن على الاطلاق. وقد بدا أن الأمر نفسه قد حدث ـ وإن كان بدرجة أقل ـ في الأقاليم الهيلينية الأخرى الخاضعة للإغريق (سوريا وبلاد الرافدين والأناضول) إنما في سوريا، على الأقل، كان لإضفاء الصفة الهيلينية وقع أكبر وربما كان له منافع مادية أكبر.

وكانت الموانىء الممتازة سبباً في تسهيل التجارة، وأكثرها أهمية كان ميناء الاسكندرية المتميّز بمنارته الشهيرة[10]. وكانت الطرق البرية تخضع لحراسة دائمة،

---

(٨) Mikhail Ivanovich Rostovtšev, *The Social and Economic History of Hellenistic World,* 3 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1941), vol. 1, pp. 83-90.

(٩) المصدر نفسه، صفحات متفرقة وبخاصة: ج ١، ص ٣٥١ ـ ٦٠٢ وج ٢، ص ١٠٢٦ ـ ١٣١٢.

(١٠) انظر وصف ذلك في:

Edward Morgan Forster, *Alexandria: A History and a Guide,* A Doubleday Anchor Original; A 231, 3rd ed. (Garden City, N.Y.: Anchor Books, 1961), pp. 141-153.

وكان المرور عليها ينساب بحرية أكثر، وفي كل مكان. وكان صكّ العملة على أي مستوى، الأمر الذي جعل عملية التبادل التجاري أكثر سهولة. وفي مصر أقيمت شبكة من البنوك الممتازة، أما المناطق الأخرى فكانت تخدمها بنوك المدن أو البنوك الخاصة أو بنوك المعابد. ومن العوامل المؤاتية الأخرى، الانتشار الواسع للغتين دوليتين: اللغة الأرامية في الهلال الخصيب، واللغة اليونانية في العالم الهيليني كله. وقد اتسعت التجارة الدولية في الاتجاهات كلها: أولاً، في البحر المتوسط، أساساً مع اليونان والتي سرعان ما امتدت أيضاً ـ وعلى نحو متزايد ـ إلى قرطاجنة وصقلية وايطاليا. ثانياً، مع الهند، وجزيرة العرب وشرق افريقيا عن طريق مجموعة من الطرق البحرية وطرق القوافل. وثالثاً، مع آسيا الوسطى اتصالاً بقوافل الحرير إلى الصين. وكان الشرق الأوسط يستورد التوابل والحرير والعبيد وغير ذلك من السلع التي كان معظم ثمنها يُدفع على الأرجح عن طريق تصدير المصنوعات. وقد استخدم طريقان رئيسيان، طريق البحر الأحمر، حتى جنوب جزيرة العرب فإلى الموانىء السورية الجنوبية أو إلى مصر؛ وطريق الخليج الذي كان ينتهي عند الموانىء السورية الشمالية. وكان التنافس بين البطالمة والسلوقيين على السيطرة على تلك الطرق شديداً بل انه استمر عاملاً مهماً في سياسة المنطقة حتى بداية العصر الحديث.

وكان القانون والنظام يطبّقان بصرامة ولكن بفاعلية في العهد الروماني، وقد انشئت الطرق الرائعة. وليس من قبيل المصادفة أن يأخذ العرب في الشرق، مثلهم مثل الألمان في الشمال، لفظ «Strata» الروماني ويضيفوا إلى لغاتهم: «الصراط» بالعربية، و«شتراسه» (Strasse) بالألمانية و«Street» بالانكليزية. ولا تزال الصهاريج التي بناها الرومان تستخدم في مدن وقرى سوريا وشرق الأردن، وامتدت الزراعة إلى البادية. ويمكن للمرء أن يستمر في عرض الكثير من الأمثلة في هذا المجال.

في ذلك الوقت، أدّى الشرق الأوسط دوراً رائداً في اقتصاد الامبراطورية والاقتصاد العالمي أيضاً، وكان عدد سكان مصر وسوريا وآسيا الصغرى يزيد على ٢٠ مليوناً أو حوالى ثلث سكان الامبراطورية(١١). وإذا أضفنا، بحذر، رقماً تقديرياً وهو

---

(١١) استُمدت هذه الأرقام من:

Julius Beloch, *Die Bevölkerung der Griechisch - Romischen Welt* (Leipzig: [n.pb.], 1886).

وهي التي تم تعديلها من خلال التقديرات التي قدمها تيني فرانك في كتابه.

Tenney Frank, ed., *An Economic Survey of Ancient Rome*, 6 vols. (Baltimore, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1930-1940), vols. 2 and 4.

بالاضافة إلى كتاب: Moses I. Finley, *Aspects of Antiquity: Discoveries and Controversies* (New York: Viking Press, 1968), pp. 155 and 199.

ولمزيد من دراسة احصاءات السكان الرومانية، انظر:

١٠ ملايين للعراق وايران وجزيرة العرب، فإن عدد سكان الشرق الأوسط الذي يبلغ ٣٠ مليوناً يمثل بذلك سبع أو ثمن الرقم المقدر لسكـان العالم[١٢]، وهي النسبـة التي لم تتحقق أبداً منذ ذلك الوقت. وفي مجـال الزراعـة، كانت مصر تصـدّر ١٤٠ ألف طن من القمح سنوياً إلى روما؛ وكانت تونس تصدِّر إليها ضعف هذا الرقم. أمـا سوريـا وبـلاد الرافـدين فعادة مـا تغطيـان أكثر من حـاجاتهما من الحبـوب؛ وكـانت تـونس والأناضول تصدِّران زيت الزيتون[١٣]. أما في مجـال الحرف، فقـد كانت مصر مصـدراً ضخماً للبردي والكتان والأواني الزجاجية لكل من الشرق والغرب، كما كـانت تعالـج التوابل الشرقية ثم تعيد تصديرها إلى بلاد البحر المتوسط. وكانت سوريا على الـدرجة نفسهـا من النشاط في تجـارة الكتان والصـوف. وتقدمت فيهـا صناعـات الزجـاج إلى درجة أنها كانت تصدِّر المهارات والخـبرات، وتنشيء فروعـاً لتلك الصناعـة في مختلف الأقاليم الأوروبية. أما الأناضول، وخاصة برغاموم، فقد كانت تصدِّر الورق النفيس واشتهرت أيضاً بصناعة الصوف[١٤].

وقد تزايد نشاط التجارة مع الهند والشرق الأقصى بعد أن اعتاد اليونانيون عـلى الرياح الموسمية في القرن الأول قبل الميـلاد. ووفقاً لـرواية سـترابو، فـإن ١٢٠ سفينة كـانت تشارك في التجـارة. وقد استـوردت الامبراطـورية التـوابل والبخـور والحـرير والسجـاجيد الفـارسية وغـيرها من المنتـوجات، عن طـريق البحر الأحمـر عبر مصر أو جنـوب سوريـا أساسـاً، وإلى حدٍّ أقـل عبر الـطريق البري من آسيـا الوسـطى مروراً بـإيـران. لكن صـــادراتهـا المتمثلة في الكتــان والمعـادن، والأواني المعــدنيـة والأواني الزجاجية، لم تغطِّ وارداتها. وبالتالي كان تحويـل سبائـك الذهب إلى الشرق يقـدر في رأي بليني بمئة مليون سسترس (حوالى خمسة ملايـين دولار بسعر عـام ١٩٣٨). ولسنا في حاجة إلى القول إن تجارة الهند قد أنعشت الكثير من المجتمعات في الشرق الأوسط بما في ذلك مـورا في اليمن، والاسكندريـة في مصر، والبتراء وتـدمر في سـوريا. إنمـا الأهم منها كلها بالنسبة إلى المستقبل مدينة مكة، تلك الجمهـورية التجـارية التي ولـد فيها النبي محمد ﷺ عام ٥٧١م[١٥].

Arnold Hugh Martin Jones, *Ancient Economic History: An Inaugural Lecture Delivered at University College* (London: H.K. Lewis, 1948), and Peter Brunt, *Italian Manpower: 225 B.C. - A.D.14* (London: Oxford University Press, 1971). =

(١٢) United Nations (UN), *The Determinants and Consequences of Population Trends* (New York: UN, 1953), p. 81.

(١٣) Frank, ed., Ibid., vol. 2, pp. 480-485 and vol. 4, pp. 42-50, 127-129 and 611.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٨ - ٣٤٦ وج ٤، ص ١٨٩ - ١٩٢ و٨١٧ - ٨٢٥.

(١٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ وج ٤، ص ٢٠٠ - ٢٠٢، و

A.H.M. Jones, «Asian Trade in Antiquity,» in: Donald Sidney Richards, ed., *Islam and the Trade of Asia*, Papers on Islamic History; 2 (Oxford, Eng.: B. Cassirer; Philadelphia: Uni- =

هـذا، وقد أدى الفتح العربي إلى اعـادة توجيـه تجارة الشرق الأوسط بـدرجـة كبيرة، فقد انقسم البحر المتوسط ـ وهو الذي ظل حلقة الوصل الأسـاسية التي تـربط الامبراطورية الرومانية ـ إلى نصفين متعاديين، وعادة متحاربين: نصف مسيحي وآخر مسلم(١٦). وأدى هذا الانقسام، بالاضافة إلى إفقار أوروبـا وإفراغهـا من سكانها، إلى تقليص العلاقات الاقتصـادية بـين المنطقتـين على نحـو كبير. غـير أن الشرق الأوسط حصـل على أكثر من مجرد التعـويض بإقـامة الامـبراطوريـة العربيـة التي امتـدت من البرانس إلى آسيا الـوسطى والهنـد على مسـاحة تـتراوح بين ٩ و١٠ مـلايين كلم٢ (أو حوالى ضعفين ونصف من حجم الامبراطورية الرومانية). وعلى أية حـال، فإن نسبـة كبيرة من تلك الأراضي شغلتها الصحارى، بينما بلغت المساحة المأهولة حوالى مليـوني كلم٢ مقارنة بثلاثة مـلايين في الامـبراطوريـة الرومـانية. وفي أوج مجـد الامبراطـورية العربية، في حوالى القرن العـاشر الميلادي، وصـل عدد السكـان إلى حوالى ٣٥ ـ ٤٠ مليوناً أو نحو أقل من ثلثي الامبراطورية الرومانية(١٧). غير أن الامبراطورية العربية قد انقسمت في ما بعد إلى ممالك متعددة، بينما حافظت عـلى وحدتهـا الثقافيـة والدينيـة، فظلت هناك منظومة مشتركة من القوانين تستند إلى الشريعة، ولغة مشتركـة هي اللغة العربية، وظل انتقال الأفراد والبضائع يتـم بحرية تامة عبر الحدود السياسية.

كذلك، فإن قيام الامبراطورية العـربية قد شجّع التجارة بـطريقة أخـرى، فمع فتوحاتهم في المناطق الشرقية، قضى العرب على الحدود بين ايران وشمال الهند، وقضوا على الحدود بين الامبراطورية الفارسية والامبراطوريـة الرومـانية. وقـد شكّلت الحدود بـين الامبراطـوريتين الـرومانيـة والفارسيـة عقبة خـطيرة أمام التجـارة، حيث فـرض الرومان رسوماً باهظة بلغت، في أوقـات معينة، ٢٥ بـالمئة عـلى الواردات القـادمة من ايران. ويمكننا أيضاً أن نفترض أن الساسـانيين والبارثيين كانوا أيضاً يفـرضون ضرائب جمـركية خـاصة بهم. والأهم من ذلـك أن العلاقـة بين الامـبراطوريتـين كـانت دائـماً عدائية، وكان البيزنطيون والرومان مستائين بشدّة لاضطرارهم الاعتـماد على ايـران في الحصـول على السلع التي تـأتي عن طريق الـبر أو الخليج، من الهنـد وآسيا الـوسـطى والصين. لذلـك بذلـوا جهوداً كبـيرة من أجل تحـويل المـرور قدر الامكـان إلى طريق

versity of Pennsylvania Press, 1970), pp. 1-10, and Irfan Shahid, «Pre-Islamic Arabia,» in: = P.M. Holt, Ann K.S. Lambton and Bernard Lewis, eds., *The Cambridge History of Islam* (Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1970), vol. 1, pp. 9-11.

(١٦) Charles Philip Issawi, «The Christian - Muslim Frontier in the Mediterranean: A History of Two Peninsulas,» *Political Science Quarterly* (December 1961), reprinted in: Charles Philip Issawi, *The Arab World's Legacy* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1981).

(١٧) Charles Philip Issawi, «The Area and Population of the Arab Empire: An Essay in Speculation,» in: Abraham L. Udovitch, ed., *The Islamic Middle East, 700-1900: Studies in Economic and Social History* (Princeton N.J : Darwin Press, 1981), reprinted in: Issawi, *The Arab World's Legacy*.

البحر الأحمر الذي يسيطرون عليه، أو تسيطر عليه دول صديقة (مثل اثيوبيا). وفي ظل الاسلام أزيلت كل هذه العقبات ـ رغم استمرار التنافس بين طريق البحر الأحمر وطريق الخليج ـ وانتعشت التجارة مع الشرق كما لم يحدث من قبل.

بالإضافة إلى ذلك، وبسبب قيام الامبراطورية العربية، تغير الوضع الجغرافي للشرق الأوسط في العالم ـ إذا جاز هذا التعبير. فقد كان العالم الاسلامي يقع في وسط نصف الكرة الشرقي متاخماً لكل الحضارات الكبرى في ذلك الوقت (أوروبا الغربية وبيزنطية والهند والصين)، بالإضافة إلى متاخمته قلب أوروبا الشرقية وافريقيا، وكانت التجارة والاتصالات مع كل هذه الأقاليم نشطة.

وقد شهدت السلع التي كان يتم الاتجار فيها مع الشرق (الهند واندونيسيا والصين) تغيراً طفيفاً. فقد استمر استيراد التوابل ـ ربما بكميات أكبر ـ لاستهلاك الشرق الأوسط ولإعادة التصدير إلى أوروبا. وكان الساج، وغيره من أنواع الأخشاب الأخرى، يستورد من الهند، والخزف والمنسوجات الحريرية من الصين. كما تم تهريب ديدان القز من الصين في القرن السادس، وسرعان ما أصبح الحرير ينتج في الأناضول وسوريا، وخصوصاً في مقاطعات منطقة قزوين في ايران[١٨]. وفي المقابل، صدّر الشرق الأوسط إلى الهند والشرق الأقصى المنسوجات الكتانية أو القطنية أو الصوفية الباهظة الثمن، ومنها السجاد. وكذلك المعادن والحديد الخام[١٩] واللؤلؤ والبخور والعاج. كذلك صدّر الشرق الأوسط سبائك الذهب ليغطي بها العجز الناشيء عن زيادة وارداته على صادراته.

وقد كان معظم هذه التجارة يحمل على سفن فارسية وعربية. وورد ذكر هذه السفن في المصادر الصينية منذ وقت مبكر، وهو يعود على الأقل إلى القرن السابع الميلادي، ويرجح أن عدد هذه السفن تزايد كثيراً في القرنين الثامن والتاسع. وقد نمت جالية إسلامية تجارية كبيرة في مدينة كانتون، وهي الجالية التي استولت على المدينة ونهبتها في عام ٧٥٨م. وباستثناءات قليلة، أهمها الحملات التي وصلت إلى أقصى شرق افريقيا في بداية القرن الخامس عشر، لم يبحر الصينيون غرباً إلى أبعد من مضيق ملقا، وكان العرب والفرس يقومون بمعظم حركة الملاحة في المحيط الهندي[٢٠].

(١٨) انظر: «Harir,» in *Encyclopaedia of Islam*, new edition.

(١٩) George Fadlo Hourani, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1951), p. 70.

(٢٠) Hadi Hasan, *A History of Persian Navigation* (London: Methuen, 1928), p. 99; Geoffrey Hudson, «Medieval Trade of China,» in: Richards, ed., *Islam and the Trade of Asia*, pp. 159-167, and Eliyahu Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (Berkeley, Calif.: University of California Press; London: Collins, 1976), pp. 106-109, 147-148 and 275-276.

وكان للشرق الأوسط، أيضاً، تجارة برية نشطة مع إقليم البلطيق وذلك عبر نهر الفولغا وأنهار روسية أخرى، حيث كان يستورد الفراء والشمع والرقيق ويصدر السلع المصنوعة. وقد وجدت كميات كبيرة من العملات الاسلامية القديمة في منطقة البلطيق. وترفقاً بالفايكنغ ـ سكان المنطقة ـ يمكن المرء الافتراض أن هذه العملات جاءت عن طريق التجارة وليس عن طريق السرقة[٢١].

ومع شرق افريقيا، تطورت التجارة القائمة بانتشار الاسلام وهجرة العرب والفرس الذين استوطنوا على طول الساحل، وسيطروا على المدن الرئيسية حتى حدود المنطقة المناخية الموسمية في مدغشقر وموزمبيق. وكان الشرق الأوسط يصدِّر الملابس والأسلحة والزجاج والحلي، ويستورد الخشب والعاج وزيت النخيل والذهب. كما استورد، أيضاً، العبيد بأعداد كبيرة، وظل معظمهم يعيش في البلدان المطلة على البحر الأحمر والخليج، ولكن بعضهم واصل طريقه إلى الهند والصين[٢٢].

كذلك اتسعت التجارة عبر الصحارى مع السودان وغرب افريقيا ووسطها. وعبرت طريق القوافل الكبرى كل افريقيا شمال الغابات الاستوائية: من سنار ودارفور إلى مصر[٢٣]؛ ومن بورنو إلى طرابلس؛ ومن كانو إلى تونس؛ ومن تمبكتو إلى تونس وسجلماسة وفاس، ومن غانا إلى فاس والصويرة. وكانت الواردات الرئيسية لشمال افريقيا من افريقيا جنوب الصحراء هي الذهب والعاج والفلفل، وأيضاً العبيد بأعداد ضخمة. وتكونت الصادرات من الملح والأسلحة والنحاس والمنسوجات والزجاج والحلي[٢٤].

غير أن إحدى العلامات الشديدة الأهمية في التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط تمثلت في استجلاب عدد من المحاصيل القيّمة، من الهند والشرق الأقصى وافريقيا،

---

(٢١) Sture Bolin, «Mohammed, Charlemagne and Ruric,» *Scandinavian Economic History Review*, vol. 1 (1953).

وانظر أيضاً الخريطة التي جاءت في:

Thomas Walker Arnold (Sir) and Alfred Guillaume, eds., *The Legacy of Islam* (Oxford: Clarendon Press, 1931), p. 78.

(٢٢) Reginald Coupland, *East Africa and Its Invadors: From the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856* (Oxford: Clarendon Press, 1938), p. 35.

وانظر أيضاً. Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of Iran, 1800-1914*, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 8 (Chicago, Ill : University of Chicago Press, 1971), pp. 124-128.

(٢٣) Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966), pp.465 and 473-476

(٢٤) انظر المزيد من التفاصيل والخريطة في:

Anthony G. Hopkins, *An Economic History of West Africa*, Columbia Economic History of the Modern World (New York: Columbia University Press, 1973), pp. 78-87.

في فترة ما قبل الاسلام أو في المراحل المبكرة من الاسلام. من هذه المحاصيل الأرز والسلجم والقطن وقصب السكّر والعديد من أنواع الفواكه والخضار (مثل البرتقال والليمون والسبانخ والخرشوف والباذنجان وغيرها). وقد تطلب معظم هذه المحاصيل رياً منتظماً، وغير ذلك من أعمال «الأقلمة»، بالإضافة إلى الحاجة إلى استثمار وعمالة مكثفين لكي تتوطن في اقليم البحر المتوسط الأكثر جفافاً وبرودة. وكان انتشار تلك المحاصيل في أوروبا عبر شمال افريقيا بطيئاً على نحو كبير[٢٥]. وقد جلبت المحاصيل المذكورة أسماءها العربية ـ الفارسية معها مثل البرقوق (دامسون) من دمشق، والمشمش والكرات (شالوت) من عسقلان. وكان البنّ بمثابة مساهمة أخرى للشرق الأوسط، إذ استجلب على ما يبدو إلى اليمن من اثيوبيا، أثناء الفترة الاسلامية وانتشر في كل الشرق الأوسط في القرن الخامس عشر ثم في أوروبا[٢٦]. وطالما تساءلت من هم الأكثر نفعاً للبشرية، العرب الذين قدموا إليها البنّ أم الصينيون الذين قدموا إليها الشاي. وقد حسمت الأمر لمصلحة الصينيين. فالبنّ جيد حين يكون المرء في حالة طيبة، أما الشاي فهو جيد في المرض والصحة معاً.

وتظل السلع المصنعة هي السلع الأكثر أهمية بين كل الصادرات الأخرى. لقد كان المجتمع الاسلامي يتمتع بدرجة عالية من التمدين حيث وُجدت طبقة عليا وتجارية غنية، وعدد وفير من البيوتات التي ترعى الصناعات الحرفية وتمدها بالأسواق اللازمة لمنتوجاتها. ويبدو أن عدد السكان قد تزايد على نحو ملحوظ في الفترة بين القرن الثامن والقرن العاشر، الأمر الذي أدّى إلى اتساع السوق وازدياد القوة العاملة، وهي الظاهرة التي كانت، في الوقت نفسه، سبباً ونتيجة للثورة الزراعية التي حدثت في تلك الفترة. كذلك تحقق تقدم تقاني في العديد من المجالات بخاصة في صناعة النسيج[٢٧]. وظهرت صادرات بكميات كبيرة من الحرير والكتان والقطن والمنتوجات الصوفية إلى أوروبا، كما توضح السجلات وكلمات مثل «دمسك» نسبة إلى دمشق، والغزي نسبة إلى غزة، والموسليني نسبة إلى الموصل، والعتابي نسبة إلى حي عتابي في بغداد، والفستيان نسبة إلى الفسطاط إحدى ضواحي القاهرة، والتفته والأطلس وغيرها. كذلك نجد بعض الكلمات المرتبطة بالألوان والأصباغ مثل الأرجواني والقرمزي وصبغة النيلة، وكلها شرق أوسطية. وقد أعارت الحِرف، أيضاً، أوروبا بعض الكلمات، ومن أمثلة ذلك «الدمشقي» في مجال الصناعات المعدنية

(٢٥) Andrew Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World*, Cambridge Studies in Islamic Civilization (New York; Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1983).

(٢٦) انظر: «Kahwa,» in: *Encyclopaedia of Islam*, new edition.

(٢٧) Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, pp. 86-100.

والمغرب وكردفان في صناعة الجلود، والبلسم والصمغ (البنزوين)، والجلاب في صناعة الأدوية، والكحول والزرنيخ والأمبيق والقلويات في مجال الكيمياء، وأميرال البحر والترسانة في البحرية. وكانت صناعات الخزف والزجاج في الشرق الأوسط من الصناعات ذات القيمة العالية في أوروبا وكذلك صناعة البردي ومن بعدها الورق. وقد أدخلت صناعة الورق إلى الشرق الأوسط على أيدي السجناء الصينيين الذين أسروا عام ٧٥١م، ثم انتشرت ببطء عبر شمال افريقيا وأوروبا. ويحتمل أن تكون وصلت إلى انكلترا في القرن الخامس عشر[٢٨]. وقد اشتقت كلمة «Ream» المشيرة إلى كمية الورق من اللغة العربية، مثلها مثل العديد من المصطلحات التي استخدمت في التجارة ومجال المال مثل «Magasin» (مخزن)، «Tariff» (تعريفة) و «Douane» (ديوان) وربما كلمة «Cheque» (صك).

وقد جلبت صادرات الشرق الأوسط مقادير كبيرة من العملات، خاصة الذهبية من غرب افريقيا، والفضية من أوروبا وآسيا الوسطى. وقد ساعد ذلك على تحسين العملات وتوسيع دائرة استخدام النقود في الاقتصاد، وربما شجّع أيضاً على تنشيط الانتاج[٢٩]. ولكننا نعتقد أنه قد أعيد تصدير نسبة كبيرة من هذه العملات إلى الهند والشرق الأقصى.

ثانياً: مجالات انتقال التفوّق الاقتصادي

منذ وقت مبكر، كاد التجار الأوروبيون أن يكونوا وحدهم القائمين على تجارة الشرق الأوسط مع أوروبا وعلى سفن أوروبية ـ فحتى التجار اليهود نادراً ما ذهبوا إلى ما هو أبعد من صقلية واسبانيا، وكانوا يميلون إلى التعامل مع التجار المسيحيين وليس مع اخوانهم في الدين من الأوروبيين[٣٠]. وبحلول عام ١٠٥٠م، كان الأوروبيون قد حققوا التفوّق لأنفسهم في البحر المتوسط، وظلّوا محتفظين به. ومع اقتراب القرن الثامن عشر كانت تجارة الشرق الأوسط وشمال افريقيا ـ بما فيها حتى التجارة الساحلية ـ في أيدي الأوروبيين إلى حد بعيد[٣١]. ومنذ القرن السابع عشر، ذهب

---

(٢٨) Thomas Francis Carter, *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward*, reviewed by L. Carrington Goodrich (New York: Ronald Press, 1955), pp. 137 and 247-250.

(٢٩) Ashtor, Ibid., pp. 80-86.

(٣٠) Solomon Dob Fritz Goitein, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza* (Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1967), vol. 1· *Economic Foundations*, pp. 209-217.

(٣١) Robert Sabatino Lopez, *The Birth of Europe*, translated from the French by the author (London: Phoenix House, 1967), pp. 284-291; Hélène Ahrweiler, *Byzance et la mer, la marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux viie-xve siècles*, bib- =

التجار اليونانيون إلى البندقية حيث استوطنوا في فوند أكواردي غريكي. أما بعض اليونانيين الآخرين - مثلهم في ذلك مثل العرب وعدد قليل من الأتراك - فقد تاجروا عبر الحدود البرية مع النمسا[٣٢]. وفي بداية القرن التاسع عشر فتح التجار اليونانيون والأرمن واليهود في الشرق الأوسط دوراً ومنشآت تجارية في مرسيليا ومانشستر ولندن وغيرها[٣٣]. أما التجارة الشرقية (أي تلك التي كانت داخل الشرق الأوسط وعبر البر إلى الهند) فقد ظلت في أيدي المسلمين حتى القرن التاسع عشر.

وكان الشحن البحري في مقدمة المجالات التي انتقل التفوق الاقتصادي والتقني فيها من الشرق الأوسط إلى أوروبا. فمن القرن الثاني عشر، بدأت أوروبا تُدخل التحسينات على زراعتها وتظهر درجة أعلى من الابتكار بالمقارنة بالشرق الأوسط، وتتوسع في استخدام الطاقة الميكانيكية بما فيها طوق صدر الحصان وطواحين المياه والهواء (تم اختراع طواحين الهواء في ايران في القرن السابع تقريباً) وتتبع سياسات اقتصادية أكثر فعالية[٣٤]. وكانت النتيجة حدوث انقلاب مذهل في توزيع الأدوار: بدأت أوروبا تنتج أولاً ثم تصدِّر إلى الشرق الأوسط المواد التي كانت تستوردها منه في ما سبق. وأخذت صادرات الشرق الأوسط إلى أوروبا تتكون على نحو متزايد من المواد الخام والسلع نصف المصنعة. ويمكن القول إن الشرق الأوسط قد تحوّل إلى وحدة هامشية في الاقتصاد العالمي الناشىء الذي تمثّل أوروبا الغربية مركزه[٣٥]. وفي ما يلي بعض الأمثلة التي توضح ذلك التحول[٣٦].

= liothèque byzantine, études; 5 (Paris: Presses universitaires de France); Ekkehard Eickhoff, *Seekrieg und Seepolitik Zwischen Islam und Abendland: Das Mittelmeer unter Byzantinischer und Arabischer Hegemonie, 650-1040* (Berlin: De Gruyter, 1966); Issawi, *The Economic History of the Middle East, 1800-1914,* p. 37, and Charles Philip Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914,* Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 13 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1980), p. 152.

(٣٢) Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914,* pp. 57 and 270-271, and Bruce McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe, 1600-1800* (Cambridge, Eng.; New York: Cambridge University Press, 1981), chap. 1.

(٣٣) Charles Philip Issawi, «The Transformation of the Economic Position of the Millets in the Nineteenth Century,» in: Benjamin Braude and Bernard Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society,* 2 vols. (New York: Holmes and Meier Publishers, 1982), vol. 1, pp. 270-272.

(٣٤) لمزيد من الدراسة، انظر:

Charles Philip Issawi, «Europe: The Middle East and the Shift in Power: Reflections on a Theme by Marshall Hodgson,» *Comparative Studies in Society and History,* vol. 22, no. 4 (October 1980), reprinted in: Issawi, *The Arab World's Legacy.*

(٣٥) للاطلاع على إفادة داعمة لهذا الرأي، انظر:

Immanuel Maurice Wallerstein, *The Modern World System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World Economy in the Sixteenth Century,* Studies in Social Discontinuity (New York: Academic Press, 1974).

(٣٦) Charles Philip Issawi, «The Decline of Middle Eastern Trade, 1100-1850,» in: =

ففي ما يتعلق بالسلع المصنّعة، بدأ الشرق الأوسط مع بداية القرنين الرابع عشر والخامس عشر يستورد الورق من أوروبا وخاصة من ايطاليا، واستمر في ذلك. وبعد فترة وجيزة، حدث الأمر نفسه بالنسبة إلى الزجاج العالي الجودة؛ أما السكّر الذي كان الشرق الأوسط يحتكر انتاجه في ما سبق، فبدأ يزرع تباعاً في صقلية واسبانيا ثم البرتغال، فالأراضي البكر في مديرا والآزور والرأس الأخضر، وبعد ذلك في العالم الجديد. وبدأ الشرق الأوسط يستورد السكّر المكرّر الأقل كلفة، من فرنسا وغيرها من الدول. وقد حدث الأمر نفسه بالنسبة إلى البن الذي كان الشرق الأوسط يحتكر انتاجه، ثم انتهى هذا الاحتكار على أيدي الهولنديين الذين ازدرعوا البراعم في جزر الهند الشرقية، ومع بداية القرن الثامن عشر كان الشرق الأوسط يستورد من البنّ أكثر مما يصدّر.

بالإضافة إلى ذلك بدأت أوروبا تمدّ الشرق الأوسط بسلع يعتمد انتاجها على تقنية متقدمة وخاصة الساعات والنظارات. وكان كارلو شيبولا محقاً حين اعتبر تصدير الساعات إلى الشرق الأوسط في عام ١٣٣٨ المثال الأول على تصدير الآلات الأوروبية[٣٧].

وحصل التحوّل نفسه في مجال المنسوجات؛ فمع قدوم القرن الرابع عشر، «لم تعد معظم صناعات الشرق الأدنى قادرة على منافسة السلع الغربية المصنعة التي يستوردها التجار الايطاليون وغيرهم»[٣٨]. ويبدو أن تصدير مصر الكتان إلى أوروبا قد توقّف في القرن السابع عشر بسبب المنافسة الأوروبية. كما واجهت صناعة الحرير التي كان الشرق الأوسط يصدّر منتوجاتها إلى أوروبا على نطاق واسع، منافسة أوروبية في القرن الثالث عشر. ومع حلول القرن الخامس عشر، كان الشرق الأوسط يستورد الحرير. أما الغزل والقماش القطني فقد تمتعا بوضع أفضل، إلا أنهما سرعان ما أصيبا بضربة قوية نتيجة الرسوم الباهظة التي فرضت على الواردات إلى فرنسا ونتيجة المنافسة الهندية. ومع مطلع القرن التاسع عشر، تدفقت المصنوعات الحريرية والقطنية والصوفية المصنعة آلياً فهلكت الصناعات الحرفية في الشرق الأوسط. وفي خلال هذا الوقت كان الشرق الأوسط قد أصبح من أهم مراكز تصدير القطن والحرير الخام (وبدرجة أقل الصوف) إلى أوروبا.

Richards, ed., *Islam and the Trade of Asia,* pp. 245-266, reprinted in Issawi, *The Arab World's Legacy.* =

(٣٧) Carlo M. Cipolla, *Clocks and Culture, 1300-1700* (New York: Walker, c1967), «preface».

(٣٨) Eliyahu Ashtor, «L'Apogée du commerce vénitien,» in: Hans - Georg Beck, Manoussos Manoussacas and Agostino Pertusi, eds., *Venezia Centro di Mediazione tra Oriente e Occidente, Secoli xv-xvi* (Florence: L. Olshki, 1977), vol. 1, pp. 318-321.

ووجهت أوروبا ضربتين اضافيتين إلى مصادر ثروة الشرق الأوسط. لقد حوَّل البرتغاليون الكثير من التجارة، في السلع والعبيد، بعيداً عن الطرق الصحراوية بالإبحار إلى غرب افريقيا. إنما يجب ألا يبالغ المرء في مدى انحسار التجارة عبر هذه الطرق حتى نهاية القرن التاسع عشر(٣٩).

غير أن الأمر الأكثر أهمية هو دوران البرتغاليين حول قارة افريقيا، وصعود نجمهم في المحيط الهندي، الأمر الذي قضى على معظم النشاط الملاحي للعرب والفرس، بل حطّم، لمدة قرنين من الزمن، سيطرة المسلمين على ساحل افريقيا الشرقي. ومع مطلع القرن السابع عشر، فرض الهولنديون سيطرة محكمة على مصادر التوابل في الهند الشرقية، وحوّلوا إلى طريق رأس الرجاء الصالح تلك التجارة التي كان الشرق الأوسط يجني منها أرباحاً هائلة على مدى ألفي عام.

وتجدر الإشارة إلى أن انحطاط الشرق الأوسط لم ينتج فقط من تنامي القوة الاقتصادية الأوروبية ـ إذ لم يكن هناك تفوق أوروبي في القوة العسكرية والسياسية حتى نهاية القرن الثامن عشر ـ إنما نتج أيضاً من نقائص في الشرق الأوسط ذاته. فقد مُني كل من الشرق الأوسط وشمال افريقيا ـ مثلهما مثل أوروبا ـ بالخراب في القرن الرابع عشر بسبب وباء الطاعون. إنما يبدو أن سكان تلك المنطقة، ولأسباب غير واضحة، وعلى عكس أوروبا، لم يستردوا حجمهم السابق. وقد تسبّب ضعف السيطرة الحكومية والحروب الطويلة (بما في ذلك الحملات الصليبية والغزوات المغولية والتترية والصراعات الفارسية ـ التركية) في إلحاق ضرر كبير بالقوى الانتاجية في المنطقة مثل مشروعات الري في العراق، التي لم تُستعد حتى القرن الحالي. لقد انحسرت مساحة الأراضي المزروعة وتدهورت الصناعات الحرفية كمّاً وكيفاً. وزاد من تسارع هذه العملية السياسات الابتزازية قصيرة النظر التي اتبعتها معظم حكومات الشرق الأوسط، وهي الحكومات التي انتقلت السيطرة فيها من المدنيين إلى العسكريين حوالى القرن الثاني عشر. ونتيجة لذلك، تحولت البرجوازية المسلمة التي كانت تتصف بالثراء والمبادرة في المجال التجاري إلى حالة العجز(٤٠).

ولكن على الرغم من أن الشرق الأوسط قد استبعد إلى هامش الاقتصاد العالمي، فإنه ظل حتى القرن الثامن عشر يمثّل أحد المكونات المهمة لذلك النظام. فقد ظل المصدر الأساسي الذي يمدّ أوروبا بالقطن، وذلك حتى تطور الانتاج

(٣٩) Hopkins, *An Economic History of West Africa*, pp. 82-83.

(٤٠) Issawi, «The Decline of Middle Eastern Trade, 1100-1850,» Goitein, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, pp. 266-272, and Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, pp. 169-331.

الأمريكي في القرن التاسع عشر؛ كما كان من أهم مصادر الحرير حتى بعد أن نمت تجارة الهند والصين. وقد تمثّلت الصادرات الأخرى في الصوف والجلود والبن، حين تكون المحاصيل جيدة، وكذلك الحبوب. كما كان الشرق بمثابة سوق كبيرة للسلع الأوروبية، بفضل الرسوم المنخفضة التي كانت تفرضها الحكومة العثمانية على الواردات. ويقدَّر نصيب المشرق في القرن السابع عشر بنصف تجارة فرنسا الخارجية كلها[41]. لقد كانت تجارة المشرق ذات أهمية خاصة، حتى أن السفير الفرنسي لدى الباب العالي كان يعيَّن عادة من قبل وزير المال والتجارة وليس من قبل وزير الخارجية[42]. غير أن توسع التجارة الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر قلّص من نصيب الشرق الأوسط في تجارة فرنسا، بحيث بلغ سدس اجمالي تجارتها الخارجية عام ١٧٨٩. أما بالنسبة إلى بريطانيا فقد كان نصيب الشرق الأوسط أقل من ذلك بكثير. ومن الجدير بالذكر أن واردات أوروبا في الشرق الأوسط ـ كما في السابق ـ فاقت صادراتها إليه. وكان سد عجز الميزان التجاري يتم عن طريق تدفق الذهب بحيث يتم تحويل معظمه إلى الهند، وهي البلاد التي كان ميزانها التجاري مع الشرق الأوسط مختلاً لمصلحتها.

شهد القرن التاسع عشر نهضة اقتصادية في الشرق الأوسط، وتوسعاً في انتاجه الزراعي، وارتفاعاً ملحوظاً في تجارته الخارجية. وقد زادت صادرات تركيا ووارداتها في الفترة ما بين عامي ١٨٠٠ و١٩١٣ بمقدار سبعة أضعاف (بالأسعار الجارية) وايران بمقدار ثمانية أضعاف، ومصر أربعين ضعفاً، وسوريا عشرين ضعفاً. أما العراق فقد تزايد حجم صادراته ووارداته في الفترة من الستينيات من القرن التاسع عشر إلى عام ١٩١٣ ستة عشر ضعفاً. غير أن هذه الأرقام تشير إلى التجارة البحرية فقط. وبما أن تجارة العراق وسوريا البرية كانت راكدة، أو بالأحرى منحسرة، فلا بد من أن الزيادة الكلية لهاتين الدولتين كانت أقل كثيراً.

وكان اجمالي تجارة الدول المشار إليها آنفاً حوالى عشرة ملايين دولار في عام ١٨٠٠ و١٢٠ مليون دولار في عام ١٩١٣ (أي تضاعفت ١٢ مرة). وقد ذهب الباحثون إلى أن التجارة الكلية للعالم قد ارتفعت من ٣٤٠ مليون دولار في عام ١٨٢٠ إلى ٨٣٦٠ مليون دولار في عام ١٩١٣ (أي حوالى ٢٥ ضعفاً). بذلك يكون نصيب الشرق الأوسط من تلك التجارة قد انخفض من ٣ إلى ١,٥ بالمئة، وهو

(٤١) لمزيد من التفاصيل، انظر:

Paul Masson: *Histoire du commerce français dans le Levant au xviie siècle* (Paris: Hachette, 1896) et *Histoire du commerce français dans le Levant au xviiie siècle* (Paris: Hachette, 1911).

(٤٢) Harold George Nicolson, *The Evolution of Diplomacy* (New York: Collier Books, 1962), p. 82.

بالقطع انخفاض لم يحدث قبل ذلك في تاريخه الطويل. إضافة إلى ما سبق، يمكن القول إنه في ما يتعلق بالشرق الأوسط وبالعالم ككل، فإن الزيادة الفعلية كانت أكبر من تلك المقدرة بالأسعار الجارية، بحيث انخفضت مستويات الأسعار بمرور الزمن(٤٣).

وقد ظهر بعض التغير على التركيب السلعي لتجارة الشرق الأوسط، إذ اختفت تقريباً الصادرات من السلع المصنعة، وركزت كل دولة بالتدريج على عدد قليل من المواد الخام، أو حتى على مادة واحدة. فركزت مصر على القطن؛ وتركيا على التبغ والفواكه المجففة والقطن؛ وركزت ايران على الحرير والأفيون؛ وسوريا والعراق على الشعير والقمح؛ ولبنان على الحرير؛ وفلسطين على البرتقال، واليمن على البن. وظهرت زيادة كبيرة في استيراد المنسوجات وغيرها من السلع الاستهلاكية المصنعة التي دمّرت الحرف القديمة في المنطقة. وبشكل عام تخلّفت صادرات المنطقة بالمقارنة بوارداتها، الأمر الذي اضطرها إلى تصدير كميات كبيرة من السبائك الذهبية التي تراكمت في العصور السابقة.

كذلك جذب الشرق الأوسط قدراً كبيراً نسبياً من الاستثمارات الرأسمالية. فعشية الحرب العالمية الأولى، كان الحجم الكلي للدين العام والخاص للامبراطورية العثمانية حوالى ١٨٢ مليون جنيه تركي، ولمصر أكثر من ٢٠٠ مليون جنيه مصري، ولايران حوالى ٣٠ مليون جنيه استرليني، أي ما يزيد قليلاً على ٢٠٠٠ مليون دولار لهذه البلاد مجتمعة(٤٤). في ذلك الوقت بلغ الاستثمار الأجنبي طويل الأجل في العالم حوالى ٤٤٠٠٠ مليون دولار(٤٥). وبتعبير آخر، كان نصيب الشرق الأوسط حوالى ٥ بالمئة من مجموع الاستثمارات، وهو رقم كبير إذا ما قورن بنصيب المنطقة من عدد سكان العالم (٤٥ مليوناً من واقع ١٩٠٠ مليون أو حوالى ١٤,٥ بالمئة)، أو من الانتاجين الصناعي والزراعي. إنما ينبغي الاشارة إلى أن أكثر من نصف المتدفق من رؤوس الأموال جاء في شكل ديون عامة تم تبديد الجزء الأكبر منها، الأمر الذي يعني

(٤٣) Albert Henry Imlah, *Economic Elements in the Pax Britannica: Studies in British Foreign Trade in the 19th Century* (Cambridge, Mass.:Harvard University Press, 1958), pp. 94-98, and 189, and Charles Philip Issawi, *The Economic History of the Middle East and North Africa* (London: Methuen; New York: Columbia University Press, 1982), pp. 24-25.

(٤٤) Vedat Eldem, *Osmanli Imparatorugunün Iktisadi Şartlari Hakkinda bir Tetkik* (Ankara: Türkiye Is Bank asi Kültür Yayinlari, 1970), pp. 190-191; Arthur Edwin Crouchley, *The Investment of Foreign Capital in Egyptian Companies and Public Debt*, Technical Paper; no. 12 (Cairo: Govt. Press, 1936), passim; Leonid Abramovich Fridman, *Kapitalistichiskoye Razvitiye Yegipta* (Moscow: [n.pb.], 1963), p. 13, and Issawi, *The Economic History of Iran, 1800-1914*, pp. 356-361 and 370-372.

(٤٥) United Nations (UN), *Capital Movements During the Interwar Period* (New York: UN, 1950).

أن المنطقة قد أرهقت بعبء ثقيل في مقابل منفعة ضئيلة وغير متكافئة مع حجم العبء.

ويمكن اضافة أن الشرق الأوسط لم يجذب سوى عدد قليل جداً من المهاجرين باستثناء تدفق أعداد صغيرة إلى مصر. ويشكّل ذلك تناقضاً حاداً مع ما حدث في شمال افريقيا الذي استوطنته مئات الآلاف من الفرنسيين والايطاليين والإسبان.

ولكن يبقى مجال واحد تزايدت فيه أهمية الشرق الأوسط وهو مجال النقل الدولي. فمع أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت السفن التجارية الأوروبية قد وصلت إلى الشرق الأوسط عبر البحر المتوسط. وفي أوائل العقد الثالث من القرن التاسع عشر وصلت البواخر النمساوية والروسية إلى اسطنبول، وبواخر شركة الهند البريطانية إلى السويس. وقد اتصلت هذه الخطوط بالطرق البرية عبر مصر وهي الطرق التي فازت في النهاية على منافساتها المارّة عبر العراق وسوريا(٤٦). ونتيجة ذلك حصلت مصر على أول خط سكة حديد في عام ١٨٥١، فسبقت بذلك السويد ووسط بولندا، بل الأهم من ذلك قناة السويس التي افتتحت في عام ١٨٦٩، فهي لم تختصر فقط المسافة من لندن إلى بومباي إلى النصف، وإلى الصين إلى ثلاثة أرباع، بل إنها أعطت البحرية البخارية دفعة أكبر وذلك عن طريق تمكين السفن من الملاحة في بحار أضيق وأكثر حركة مقارنة بالرحلات عبر رأس الرجاء الصالح(٤٧). ومع الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كانت القناة تسيطر على حوالى ثلثي تجارة بريطانيا شرق السويس ونصف تجارة الهند الكلية(٤٨). وحينما بدأت تجارة السلع، التي انشئت القناة من أجلها أساساً، في الاضمحلال في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين حلّ محلها تجارة جديدة وأكثر قيمة بكثير، وهي النفط من الخليج إلى أوروبا.

وكانت قناة السويس قبل تأميمها في عام ١٩٥٦ مباشرة تضطلع بـ ١٣ بالمئة من طاقة الشحن الملاحي العالمي ويمر عبرها ٢٠ بالمئة من ناقلات النفط.

وقد لعب الشرق الأوسط أيضاً دوراً هاماً في تطوير النقل الجوي، خاصة في الفترة الممتدة من الثلاثينيات حتى الستينيات. وتُظهر الخريطة الجوية للعالم أن المنطقة هي مركز تجميع لقدر هائل من عمليات المرور الجوية في ما بين شمال افريقيا وأوروبا من ناحية، ومنطقة المحيط الهندي والامتدادات التي تبدأ منها إلى الشرق الأقصى واستراليا من ناحية أخرى.

(٤٦) Halford Lancaster Hoskins, *British Routes to India* (New York: Longman, 1928).

(٤٧) Max Fletcher, «The Suez Canal and World Shipping, 1869-1914,» *Journal of Economic History* (December 1958).

(٤٨) D.A. Farnie, *East and West of Suez: The Suez Canal in History, 1854-1956* (Oxford: Clarendon Press, 1969), pp. 171, 306 and 354-356.

ثالثاً: الشرق الأوسط والنفط

ويقودنا هـذا إلى الحاضر، حين أصبح الشرق الأوسط مـرادفاً للنفط، وحـديثاً جداً مـرادفـاً للمال أيضـاً. لقـد بـدأ استخـراج النفط في الشرق الأوسط ـ في مصر وايران ـ قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، ولكن مع اندلاع الحرب العالميـة الثانيـة، كـان الانتاج السنـوي للمنطقـة حوالى ١٢٠ مليـون برميـل أو ما يعـادل ٦ بـالمئـة من الانتاج العالمي. وكان لايران النصيب الأكبر من ذلك الانتـاج يليها العـراق والبحرين ومصر. ولكن قبـل ذلك الـوقت كان احتيـاطي ضخم قـد اكتشف في شبـه الجـزيـرة العربية. ومع مطلع عام ١٩٨٠ كانت احتياطيات الشرق الأوسط المؤكـدة والمعلنة من النفط ١٣٦ مليار برميل، تبلغ ٦١ بالمئة من اجمالي الاحتياطيات العـالمية، وكـان انتاج الشرق الأوسط منه يبلغ ملياري برميل أي ٢٦ بالمئة من اجمالي الانتاج العالمي.

ومع بدايـة الثمانينيـات، ارتفع احتيـاطي الشرق الأوسط إلى ٣٨٦ مليار بـرميل بينما انخفض نصيبه من الاحتياطي العالمي إلى ٦٠ بالمئة،-نتيجة الاكتشافـات السريعة للاحتياطيات في مناطق أخرى من العالم. وفي عـام ١٩٧٩، بلغ انتاج الشرق الأوسط ٨,٦ مليـارات برميـل أو ٣٧ بالمئـة من الانتاج العـالمي. ويضطلع الشرق الأوسط في الوقت الحاضر بنصف صادرات العالم من النفط[٤٩].

وقد نتج من هذه الزيادة الضخمة في انتاج النفط وعوائده توسع كبير في التجارة الخارجية للمنطقة. ففي عـام ١٩٤٨ بلغت واردات الشرق الأوسط ٢,٢ مليار دولار أو ٣,٥ بالمئة من اجمالي واردات العالم. بينما بلغت صادراته مليارين وهي أيضـاً ٣,٥ بالمئة من صادرات العالم. وحظيت مصر في ذلك الحـين بثلث تجارة المنـطقة. وخـلال الأعـوام الخمسة والعشرين التـالية، ظـل نمو تجـارة الشرق الأوسط يسـير بسرعـة نمـو التجارة العالمية نفسها، بل لم يحدث سـوى تغير ضئيـل جداً في نصيب الشرق الأوسط من التجـارة العالميـة. غير أن الارتفـاع الحاد في أسعـار النفط في السبعينيات أدى إلى تزايد سريع في القيمة المطلقة والنسبيـة؛ ففي عام ١٩٧٥ بلغت قيمـة الصادرات ٨٢ مليار دولار وقيمة الواردات ٧٢ مليار دولار، أو ١٠ بالمئة من التجارة العالمية بالمقـارنة بنصيب الشرق الأوسط من عـدد السكان وهـو يكاد يبلغ ٤ بـالمئـة من سكـان العـالم (١٦٠ مليوناً من واقع ٤٢٠٠ مليون). عندئذ صارت أوسع الـدول تجارة هي الـدول

---

(٤٩) للاطلاع على التفاصيل، انظر:
Charles Philip Issawi and Mohammed Yeganneh, *The Economics of Middle Eastern Oil* (New York: Praeger; London: Faber and Faber, 1963), and *BP Statistical Review of the World Oil Industry* (British Petroleum), (Annual).

المنتجة للنفط (كالسعودية، ايران، العراق، الكويت)[٥٠]. وينبغي أن نضيف هنا أنه باستبعاد النفط، فإن القطن الطويل التيلة والموالح هما السلع الوحيدة التي يشكل نصيب الشرق الأوسط فيها من التجارة العالمية نسبة مهمة.

وكما ذكر سابقاً، فإن الشرق الأوسط كان يعاني عجزاً مستمراً في ميزانه التجاري بدأ في القرن التاسع عشر. وكان هذا العجز يغطى جزئياً عن طريق الخدمات (مثل السياحة والحج وتجارة الترانزيت)، وجزئياً عن طريق تحويلات من الخارج، ولكن غالباً ما كان يغطى عن طريق تدفق رأس المال. إذ مكّنت نفقات جيوش الحلفاء في الحربين العالميتين عدداً من الدول (خاصة مصر) من جمع مقادير كبيرة من الصرف الأجنبي، الأمر الذي أدى إلى تقليص مديونيتها. غير أن المنطقة كانت بوجه عام مستوعباً قوياً لرأس المال وقد استمر هذا الوضع حتى وقت قريب. وفي أوائل السبعينيات، تحديداً، كان لدى عدد قليل من الدول الصغيرة ذات الانتاج النفطي الضخم (خاصة الكويت والسعودية) فائض في الحساب الجاري، وأرصدة مالية كبيرة متراكمة في الخارج. وفي عام ١٩٧٣ وما بعده حدث انفجار في أسعار النفط وعوائده، وبلغت في عام ١٩٧٨ عوائد النفط ١٠٠ مليار دولار. وفي عام ١٩٨٠ بلغت ٢٠٠ مليار دولار رغم الانحسار الأخير في الانتاج والأسعار؛ ولا تزال تلك العوائد تزيد على ١٠٠ مليار دولار. وهذا ما حوّل الدول المنتجة الكبيرة للنفط إلى دول مصدرة كبيرة لرأس المال. وفي عام ١٩٨٢ بلغ صافي الأصول الخارجية الرسمية لكبرى الأقطار العربية المنتجة للنفط (بما في ذلك الجزائر وليبيا) نحو ١٨٤ مليار دولار[٥١].

ويخرج عن نطاق هذا البحث دراسة الأثر الهائل للثورة التي شهدتها أسعار النفط على مجتمعات الشرق الأوسط. فمن ناحية كان هناك تسارع حاد في النمو الاقتصادي وتزايد ضخم في الاستثمار الذي لم يحسن إدارته في معظم الحالات، وتوسع كبير في التعليم والصحة وغيرهما من الخدمات الاجتماعية. ولكن في الجانب الآخر، كان من شأن التراكم غير المسبوق للثروة أن ضغط على الهيكل الاجتماعي إلى حد لا يمكن احتماله. وربما تكون الثورة التي حدثت في ايران، والتي أعتقد أنها جاءت أساساً بسبب ذلك العامل، مجرد نذير لحدوث عديدات مثلها[٥٢].

---

(٥٠) United Nations (UN): *Statistical Yearbook*, and *The Direction of Trade.*

(٥١) International Monetary Fund (IMF), *International Financial Statistics*

وانظر أيضاً: «The Impact of Money,» *Arab Studies Quarterly*, special issue (Winter - Spring 1984).

(٥٢) لمزيد من الدراسة، انظر:

= Charles Philip Issawi, «Economic Trends in the Middle East and Future Prospects,» paper pre-

هذه الرحلة السريعة عبر التاريخ توضح أن الشرق الأوسط كـان لآلاف السنين في قلب المسرح العالمي. ثم انتقل في مئـات قليلة من السنين مـا بين القـرن السادس عشر والقرن العشرين إلى الهامش. والآن يُستـدعى الشرق الأوسط من جديـد بإرادة إلهية غامضة إلى المركز. أمّا كم من الوقت سيظل في ذلك الموقع، فهذا سؤال ليس لي أن أجيب عنه.

---

sented at United States 96th Congress, 2nd Session, Joint Economic Committee, *The Political = Economy of the Middle East* (Washington, D C.: [n pb], 1980).

بالإضافة إلى دراسات أخرى في: المصدر نفسه.

الفصل الرابع

تدهور تجارة الشرق الأوسط (١١٠٠-١٨٥٠)

يمثل «تدهور تجارة الشرق الأوسط »[1] أحد أبعاد التحليل الاقتصادي والثقافي للمنطقة ككل. فمنذ القرن الثاني عشر أو القرن الثالث عشر وحتى القرن التاسع عشر، حدث نوع من التدهور الاقتصادي لم يعترضه إلا بعض الصحوات، مثل تلك التي حدثت في مصر وجنوب سوريا في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر؛ وفي الأناضول في القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ وفي شمال سوريا في القرن السادس عشر؛ وإيران في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد صحب هذا التدهور الاقتصادي انحطاط ثقافي وفكري (باستثناء إيران ولفترة قصيرة تركيا). وباستخدام أي معيار من المعايير الاقتصادية، كان الشرق الأوسط في القرن الثامن عشر في وضع أقل بكثير منه في القرنين العاشر والحادي عشر.

وما يجعل تلك الكارثة أكثر حدة، أن الحضارات الكبرى الأخرى في تلك الفترة نفسها كانت في طريقها إلى مزيد من الازدهار رغم تعرّضها لحدوث كبوات قصيرة نسبياً. ولم يكن هذا صحيحاً فقط بالنسبة إلى أوروبا، الجار المتاخم والمنافس الرئيسي، وإنما في الصين، مثلاً، وبعد ما سمي الثورة التجارية تحت حكم التانغ والسونغ (القرن الثامن وحتى القرن الثالث عشر)، «والتي جعلت الصين أكثر بلدان العالم تقدماً»[2]، كان الاقتصاد الصيني قد تطور في كل الميادين تقريباً ـ السكان، المساحة المزروعة، حجم

---

(١) أنا مدين للأساتذة: روبرت لويز، عزيز عطية، وغارسون كوهين، وجانيت واكين وتوماس غودريتش وأبو حاكمة، لما أسهموا به من نقد بناء وتعليقات قيمة.

(٢) Edwin O. Reischauer and John K. Fairbank, *East Asia: The Great Tradition* (Boston: Houghton, 1960), p. 220.

ومن أجل المزيد من التفاصيل، انظر: Robert Hartwell, «Markets, Technology and the Structure of =

التجارة الخارجية، إنتاج السلع الصناعية واليدوية، بل وفي ما يتعلق أيضاً باستخدام النقود، وذلك منذ القرن الرابع عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر»[3]. أما اليابان فقد شهد عصر الاشيكاغا والتوكوغاوا (من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر) نمواً مذهلاً، الأمر الذي وضع أسس تحديث البلاد وتنميتها على النحو الذي يحظى اليوم بكل الاعجاب والتقدير[4]. أما بالنسبة إلى الهند، فقد اتسم تاريخها في ذلك الوقت بالتعقيد والغموض الشديدين في آن واحد، بما لا يسمح بالتعميم. غير أن شرح مورلاند الدقيق والمتحفظ للظروف التي أحاطت بها أوضح وجود قدر معقول من الازدهار؛ فكان عدد السكان حوالى ١٠٠ مليون نسمة ومعدل الانتاج الزراعي لكل شخص من سكان الريف «لا يختلف كثيراً عما هو عليه الآن» وصناعات حِرفية مزدهرة للغاية وخاصة النسيج[5]. فصناعة النسيج هذه لم تمدّ اسواق الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا فحسب باحتياجاتها، وإنما تنافست بنجاح مع أوروبا والأمريكتين حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولا يبدو أن تدهور الاقتصاد الهندي قد ظهر حتى مطلع النصف الأخير من القرن السابع عشر، أو بالأحرى القرن الثامن عشر[6].

Enterprise in the Development of the Eleventh-Century Chinese Iron and Steel Industry,» = *Journal of Economic History* (March 1966).

وقد أشارت هذه الدراسة إلى أن متوسط نصيب الفرد من ناتج الحديد كان قد وصل إلى ٣,١ ليبرة (رطل) مع مطلع عام ١٠٧٨ ومع مجيء عام ١٧٠٠ كان في أوروبا الغربية ٣,٥ - ٣,٤ فقط.

(٣) Reischauer and Fairbank, Ibid., pp. 333 and 393.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٧ - ٥٦٣ و٦٢٦ - ٦٤٢. وانظر أيضاً:

M. Miyamoto [et al.], «Economic Development in Pre-Industrial Japan,» *Journal of Economic History* (December 1965), and Thomas Carlyle Smith, *The Agrarian Origins of Modern Japan*, Atheneum Paperback; 94 (New York: Atheneum, ©1959).

(٥) William Harrison Moreland, *India at the Death of Akbar: An Economic History* (London: Macmillan, 1920), pp. 22, 136 and 180-184.

وقد أكد هذا الحكم عرفان حبيب في كتابه:

Irfan Habib, *The Agrarian System of Moghul India, 1556-1707* (Bombay; New York: Asia Pub. House, 1963), p. 23.

«إذا أخذنا في الاعتبار مساحة الامبراطورية المغولية ككل وافترضنا ان الطرق المستعملة في الزراعة لم تتغير، فإنه يمكننا القول ان المحصول المتوسط لكل فدان مزروع لا يمكن أن تكون في المتوسط ذات انتاجية أعلى اليوم عنه في عصر المغول».

(٦) Habib, Ibid., chap. 9; William Harrison Moreland, *From Akbar to Aurangzeb: A Study in Indian Economic History* (London: Macmillan, 1923); Ashin Dasgupta, *Malabar in Asian Trade* (Cambridge: [n.pb.], 1967); Narendra Krishna Sinha, *Economic History of Bengal: From Plassey to the Permanent Settlement* (Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1956), and Shiva Chandra Jha, *Studies in the Development of Capitalism in India* (Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1963).

أولاً: الصادرات السلعية للشرق الأوسط

تتكون تجارة صادرات بلد ما من انتاجه المحلي، إضافة الى ما يعيد تصديره من سلع استوردها من بلدان أخرى. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط، فإن الجزء الثاني يعدّ ذا أهمية بالغة. وتنقسم هذه الدراسة بالتالي إلى جزئين، يتناول أحدهما تجارة الصادرات، وثانيهما تجارة الترانزيت. وسوف ندرس النقل التجاري في الجزء الثاني. ووفقاً لما جرت عليه العادة بين الاقتصاديّين، سيكون السؤال الأول الذي نبحثه في ما يتعلق بجوانب العرض والطلب:

أولاً: ما هي العوامل التي قللت من عرض السلع الشرق أوسطية (أو بمعنى أدق نقلت منحنى العرض إلى أعلى)؟

ثانياً: ما هي العوامل التي قلّصت الطلب على هذه السلع (أو بمعنى أدق نقلت منحنى الطلب إلى أسفل)؟

١ ـ العرض

منذ القرن الثاني عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر، تكاثفت عوامل عدة لتقليص قدرة الشرق الأوسط على انتاج السلع، ومن ثم قللت من قدرته على التصدير. ومن بين الحروب الأكثر تدميراً، يمكن الاشارة إلى الحملات الصليبية المتأخرة وسياسة الأرض المحترقة التي اتبعها المماليك ضد الغارات التي كانت تشنها قبرص ورودس، والغزوات المغولية والتترية التي سببت الخراب لكل من إيران والعراق وسوريا، والحروب العثمانية والفارسية التي دمرت معظم شمال شرق الأناضول وشمال غرب إيران والعراق. كما تكرر حدوث موجات من وباء الطاعون كانت ذات نتائج بعيدة المدى. ووفقاً لرواية المقريزي، أتى الطاعون الأسود على ثلث سكان مصر، بل ربما تكون بلدان أخرى قد عانت هذا المرض على نحو أكبر من ذلك. وفي القرون التالية، تفشى العديد من الأوبئة التي كانت مدمرة أيضاً ـ رغم أنها لم تكن بالحجم نفسه[7]. وظهرت أيضاً قضية انهيار الحكم. ففي مصر، ضعف

---

(٧) من اجل تقديم مثالين في نهاية تلك الفترة، ففي أثناء الطاعون الذي استشرى عام ١٧٧٣ ووفقاً لرواية ممثلي شركة الهند الشرقية في البصرة «فإن الوفيات اليومية في المدينة ولقرابة الشهر كانت تتراوح بين ٣ آلاف و٧ آلاف، وقد ترك الطاعون المدينة شبه خاوية من السكان». لقد كان تقدير هؤلاء الممثلين للخسارة في الأرواح على السواحل العربية بحوالى ٣ ملايين وهو رقم مرتفع للغاية لا يمكن قبوله. انظر:
Ahmad M. Abu Hakima, *History of Eastern Arabia, 1750-1800: The Rise and Development of* = *Bahrain and Kuwait* (Beirut: Khayats, 1965), p. 87.

الحكم المملوكي في منتصف القرن الرابع عشر وبدأت غارات البدو توقع الفوضى في الزراعة، وظل التدهور مستمراً حتى استعادت الحكومة سيطرتها تحت حكم محمد علي[8]. وفي سوريا، كان من شأن التوسع المتصل للصحارى، على حساب الأراضي المزروعة، أن دفع البدو في القرن الثامن عشر إلى الوصول إلى البحر بالقرب من عكا وشمال طرابلس. وفي العراق، كان هناك انحطاط مطّرد ومستمر تقريباً حتى الغزو العثماني الثاني عام ١٨٣١. أما في الأناضول، فقد تدهورت سيطرة الحكم على مساحات كبيرة في بداية القرن السابع عشر. ولم يتم استعادتها حتى عهد محمود الثاني، وفي إيران، شهدت نهاية القرن السابع عشر انهيار حكم الصفويين، كما شهدت الغزوات الروسية والعثمانية. وقد استمرت هذه الحالة من اهتزاز السيطرة على البلاد حتى تحت حكم القاجاريين.

أ ـ الزراعة

كانت زراعة الشرق الأوسط أكثر عرضة لمثل تلك الصدمات من غيرها من زراعات المناطق الأخرى. فالشرق الأوسط يشبه أرخبيلاً مكوّناً من جزر صغيرة من الأرض المزروعة المحاطة بمساحات شاسعة من الصحارى، وعادة ما تغرق تلك الجزر في المحيط الصحراوي. ولا تضمّ المنطقة امتدادات كبيرة متصلة من المناطق كثيفة السكان إذا ما قورنت بالصين والهند أو أوروبا. وقد كان من الأسهل على الزراعة أن تتدهور في المناطق التي اعتمدت فيها مشروعات الري المعقدة والهشة مثل العراق وإيران، بينما كان من الأصعب عليها أن تعود الى سابق ازدهارها. ومن ثم تسببت الكوارث التي شرحناها في ما سبق في انحسار مذهل في عدد السكان والمساحات المزروعة، الأمر الذي أدى إلى تدهور حادّ في قدرة المناطق على تصدير منتوجات زراعية.

وفي العراق، يرى أدامز[9] أن عدد السكان في الديالا الدنيا كان حوالى ٨٠٠

= وفي القاهرة، تفشى الطاعون في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٨٣ واستمر يستشري طوال فصل الشتاء مسبباً وفاة ١٥٠٠ شخص يومياً. انظر:

C.F. Volney, *Œuvres* (Paris: [s.n.], 1825), vol. 2, p. 152.

(٨) بعد الغزو العثماني، كان هناك تحسن قصير الوقت دام من عام ١٥٣٠ وحتى بداية القرن السابع عشر حين زادت سيطرة الحكومة وتم بذل جهود مضنية من أجل النهضة بزراعة الأرض التي دمرت أثناء الغزو العثماني أو في أعقابه مباشرة. انظر: Stanford J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798,* Princeton Oriental Studies; no. 19 (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1958), p. 68.

(٩) Robert McCormick Adams, *Land Behind Baghdad: A History of Settlement on the Diyala Plains* (Chicago, Ill.: Chicago University Press, 1965), graph on p. 115.
حتى إذا لم نتفق مع أدامز في الأرقام التي أتى بها، الا أننا لا نختلف معه بلا شك في الاتجاه الذي أشار إليه.

ألف نسمة في عام ٨٠٠ تقريباً، ثم انخفض على نحو حاد إلى ٦٠ ألف نسمة بعد أن حطم الغزو المغولي أعمال الري، وبقي هذا الرقم على ما هو عليه طوال خمسة قرون تالية. ومع بداية القرن التاسع عشر اقتصرت الزراعة المنتظمة في العراق على القليل من المساحات الصغيرة[١٠].

أما في سوريا، فلم يكن انكماش عدد السكان والأراضي المزروعة بذلك العنف نفسه، إذ كانت زراعتها المعتمدة على الامطار اكثر مرونة من مثيلاتها العراقية والمعتمدة على شبكة ري حساسة. غير أن ڤولني كان قد أشار في كتاباته في أواخر القرن الثامن عشر إلى أنه في مناطق البشالق في حلب، حيث أكدت الدفاتر الأولية «وجود ٣٢٠٠ قرية آنذاك، فإننا لا نجد فيها في الوقت الحالي سوى ٤٠٠ فقط». وقد وصف ذلك التدهور المستمر بالتفصيل في تقارير القنصليات البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[١١].

ويمكن تتبع الظاهرة نفسها في مصر. ووفقاً لرواية المقريزي وغيره من المؤرخين انخفض عدد القرى من ١٠ آلاف تحت حكم الفاطميين الى ٢١٧ قرية في القرن الخامس عشر. وقد صحب ذلك انخفاض حاد في عوائد ضرائب الأرض فتقلصت من ١٠,٨ ملايين دينار في عام ١٢٩٨ و٩,٤ ملايين في عام ١٣١٥ الى ١,٨ مليون في عام ١٥١٧. إنما لا يمكننا قبول مثل هذه الأرقام دون تمحيص نقدي لها. فالقول إن عدد القرى كان ١٠ آلاف في العصر الفاطمي هو على الأرجح شديد المبالغة[١٢]. ومرّة أخرى، فإن وحدة الحساب المستخدمة في تقدير ضرائب الأرض ربما لم تكن ثابتة، بل يرجح أيضاً أن الانخفاض في العوائد لم يكن بهذه الضخامة[١٣]. والأكثر من ذلك أن الرقم المقدر لعام ١٥١٧ انما يعكس الفوضى التي سبّبها الغزو العثماني. ثم

---

(١٠) لمزيد من التفاصيل، انظر:

Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966), p. 130.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٥٨ - ٢٦١. وللاطلاع على المزيد في ما يتعلق بتاريخ سوريا في العصور الوسطى وبدايات العصور الحديثة. انظر:

Ira Marvin Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages,* Harvard Middle Eastern Studies; 11 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967); Jean Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du xixe siècle* (Paris: Geuthner, 1941), and Philip K. Hitti, *History of Syria: Including Lebanon and Palestine,* 2nd ed. (London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1957).

(١٢) Ahmad Darrāj, *L'Egypte sous le règne de Barsbay, 825-841/ 1422-1438* (Damas: [s.n.], 1961), pp. 64-65.

ومن الجدير بالذكر أن عدد القرى المصرية اليوم - رغم وجودها على مساحة مزروعة أكبر، وفي إطار كثافة سكانية أعلى - يصل الى ٤ آلاف قرية فقط.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠.

تـزايدت عـوائد الضرائب مـرة أخرى في القـرن السادس عشر وأوائـل القرن السـابع عشر[١٤]. ورغم ذلك، كان التدهور العام حقيقياً.

وتقلّ الدلائل الخاصـة بالأنـاضول وضـوحاً عن تلك التي سبق ذكـرها. ووفقـاً لبرقان، شهد القرن السادس عشر مرحلة من النمو السكاني تبعتها مرحلة انحطاط في نهايته، «فمع مطلع عام ١٦٥٣، كتب حـاجي خليفة مشيـراً إلى أن السكان قـد بدأوا يخـرجون في أفواج من القرى الى المدن اثناء حكم سليـمان، بل كـانت هناك قـرى مهملة ومهجورة في كـل أنحاء الامبراطوريـة في الوقت الـذي كان يكتب فيـه»[١٥]. ولا يعني ذلك بـالضرورة أن اجمالي عـدد سكان الأناضول كان آخذاً في الانخفاض، لأن بعض المدن الرئيسيـة على الأقـل كان يشهد نمواً ملحـوظاً. ولكن يمكننـا قبول مـا يتعلق بدلائـل تغضب سكان الـريف[١٦]. ويبدو أن الظروف قد ازدادت سوءاً في القرن الثامن عشر.

أما في إيران، فعـلى العكس من ذلك، كـانت آثار الأزمـة التي حلت في بدايـة القرن الثامن عشر واضحة جداً على السكان والنشاط الاقتصادي، كما أكدت روايات الشهـود العيان والمسـافرين (مثـل كروزنسكي وهـانـواي). وإذا كـان هنـاك قـدر من الصحة في الأرقام التي قدّمها لورد كرزون، فإن انتاج الحرير من المناطق الشماليـة كان قد انخفض وأصبح جزءاً ضئيلاً جداً من الحجم السابق[١٧].

ولا ينطوي انخفاض عدد السكان بالضرورة ـ حتى وإن صحبه انخفاض مماثـل في المساحة المزروعة ـ على انخفاض في مستوى المعيشة. ففي الواقع، إذا مـا تضاءلت العوائد، وافترضنا أن الأراضي الأقل خصوبة هي التي تُهمَل قبل غيرها، فإن ذلك قد يؤدي الى انتاجية حدية أعلى وإلى متوسط أعلى لنصيب الفرد. ويسمـح ذلك لـلأجور الفعلية بالارتفاع؛ كما قد يؤدي نقص العمال إلى دفع أصحاب الأراضي لعـرض أجور

---

(١٤) Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798.*

(١٥) Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London; New York: Oxford University Press, 1961), pp. 32-33.

(١٦) يرجّح أن عدد سكان اسطنبول قد ارتفع من ٥٠٠ ألف في منتصف القرن السادس عشر إلى ٦٠٠ ألف ـ ٧٥٠ ألفـاً في نهاية القرن السابع عشر. انظر:

Robert Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale* (Paris: Maisonneuve, 1962), pp. 44-47.

ويرجّح أن مدينة بورسة كانت مزدهرة في تلك الفترة. انظر:

«Bursa,» in: *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed.

وانظر من أجل معرفة المزيد عن التطور العام لسكان الحضر:

Omar Lutfi Barkan, «La Méditerranée de Fernand Braudel,» *Annales*, vol. 9 (January- March 1954).

(١٧) George N. Curzon, *Persia and the Persian Question*, 2 vols. (London: Longman, 1892), vol. 1, p. 367.

أعلى. وقد حدث هذا في أوروبا بعد انتشار وباء الطاعون، وربما في بعض أجزاء الشرق الأوسط أيضاً. ولكن، حتى إذا كان الأمر كذلك، فإن مثل هذا الانخفاض، لا بد من أن يؤدي إلى انخفاض في الفائض المتاح من أجل التصدير ومن أجل أي استخدام آخر ما لم يكن مصحوباً بتحسن في التقانة، أو باستخدام أفضل لرأس المال (وهو الذي لم يحدث في الشرق الأوسط)، أو ما لم تكن الانتاجية الحدية للعمل أقل من استهلاك العامل ومن يعيلهم، وهو ما لم يحدث في تلك الفترة على الأرجح[١٨]. وربما يفسر هذا الافتراض جزئياً السبب في توقّف الشرق الأوسط، تدريجياً، عن أن يكون واحداً من أكبر مناطق تصدير المواد الغذائية ـ بعد أن كان كذلك في العصور الرومانية ـ وعدم استعادته هذا الدور الا مع التوسع الذي بدأ في القرن التاسع عشر[١٩].

ب ـ الحِرف

لا تقلّ صادرات الشرق الأوسط من السلع المصنعة الى الشرق والغرب في العصور الرومانية وأوائل العصور الاسلامية أهمية عن صادراته من المواد الزراعية. ومن الواضح أنه قد حدث، في ما بعد، تدهور في الصناعات اليدوية، ومن ثم في قدرة الشرق الأوسط على التصدير. فقد تقلص عدد النساجين في الاسكندرية من ١٤ ألفاً عام ١٣٩٤ الى ٨٠٠ عام ١٤٣٤. وانخفض عدد العمال في معامل السكّر في الفسطاط من ٦٦ ألفاً عام ١٣٢٥ إلى ١٩ ألفاً فقط عام ١٤٠٠ تقريباً[٢٠]. وبشكل عام، استمر التدهور الكمي والكيفي في البلدان العربية حتى القرن التاسع عشر مع بعض الاستثناءات القليلة (مثل سوريا). ففي تركيا، أدى تدفق العمالة الأجنبية في

---

(١٨) على سبيل المثال، افترض ان ٥ ملايين شخص يزرعون ٥ ملايين فدان تنتج ١٠ ملايين إردب من الحبوب وهو الذي يعطي إردبين للفرد في المتوسط، ثم افترض أن الاستهلاك المنزلي يصل إلى إردب واحد في العام، فان الفائض هو (١٠ ملايين ـ ٥ ملايين) = ٥ ملايين إردب. ثم افترض ان عدد السكان قد تناقص الى ٣ ملايين والأرض الزراعية الى ٣ ملايين فدان والانتاج ٧ ملايين. هنا يزداد نصيب الفرد من الناتج الى ٢,٥ بوشل أما الفائض فانه يكون (٧ ملايين ـ ٣ ملايين) أي ٤ ملايين إردب.

(١٩) «عند فحص الدلائل المتاحة لا بد أن يستخلص المرء أن الامبراطورية العثمانية كانت تتمتع بفوائض زراعية حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر. أما عن العقد الذي تلا وفاة السلطان سليمان (١٥٦٦) فهناك الكثير من الدلائل على انتشار الجفاف والمجاعات. وبعد ذلك بفترة وجيزة، شكلت الحروب الطويلة مع الفرس (١٥٧٨ ـ ١٧٩٠) ومع النمسا (١٥٩٣ ـ ١٦٠٦) عبئاً هائلاً على كل الموارد الانتاجية في الامبراطورية». انظر:

Carl M. Kortepeter, «Ottoman Imperial Policy and the Economy of the Black Sea Region in the Sixteenth Century,» *Journal of the American Oriental Society*, vol. 86, no. 2 (April-June 1966).

(٢٠) Subhi Y. Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517* (Wiesbaden: F. Steiner, 1965), pp. 420-421.

القرن السادس عشر (اليهود، الايرانيون، السوريون، المصريون) الى تحسين تقنيات العمل، رغم ما تبع ذلك من ركود وتردٍّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر[٢١].

وفي إيران، حتى في أوج عظمة الحكم الصفوي، فقد هال شاردان تراخي الحرفيين وكسلهم وافتقارهم إلى الرغبة في الابتكار أو حتى في التقليد[٢٢]. ولا بد من أن ما تبع ذلك من انحطاط قد ترك آثاره بحدة على الحِرف في إيران.

ويرجع ذلك التدهور العام، جزئياً، الى الصدمات التي سبق ذكرها والتي عادة كان أثرها في الحرف أكثر سلبية منه في الزراعة[٢٣] غير أن هناك عدداً آخر من العوامل التي تفسر فشل حِرف الشرق الأوسط كمثيلاتها الأوروبية.

أولاً، يجب الاشارة الى ضعف قاعدة الموارد في الشرق الأوسط وافتقاره الى الخشب (وهو مادة أساسية في فجر الثورة التقانية) وافتقاره إلى الانهار الصالحة للملاحة والى الطاقة المائية والى المعادن، وهي التي أقيمت عليها مشروعات ضخمة جداً في أوروبا في العصور الوسطى المتأخرة. ويمكن المرء أن يضيف أيضاً افتقار الشرق الأوسط الى الفحم في حين أنه استُخدم في الصين منذ عهد هان، وفي أوروبا في أواخر العصور الوسطى.

ثانياً، كان هناك فقر في الابتكارات الآلية، وفشل في استحداث مصادر طاقة غير بشرية، والأمثلة على ذلك تكمن في اختفاء طواحين الهواء التي تم اختراعها في ايران، ووجود عدد محدود من طواحين المياه، والاستخدام المستمر للنوع اليوناني منها وتفضيله على النوع الفيتروفي؛ كما كان هناك فشل في تحسين أدوات الحرب... الخ[٢٤].

---

(٢١) Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale,* pp. 420-421; Hamilton Alexander Rosskeen Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East,* 2 vols. (London; New York: Oxford University Press, 1950), vol. 1, pp. 295-296, and Traian Stoianovich, «The Conquering Balkan Orthodox Merchant,» *Journal of Economic History,* vol. 20, no. 2 (June 1960).

(٢٢) John Chardin (Sir), *Voyages du chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient,* 4 vols. (Amsterdam: Aux dépens de la compagnie, 1735), vol. 3, pp. 97-99.

(٢٣) ومن ثم فقد كان الطاعون أكثر فتكاً في المدن عنه في القرى، وكان أصحاب الحرف يشكلون صعوبة في استبدالهم عند الزراع، ولم تفق الاسكندرية أبداً من الغارات الصليبية في عام ١٣٦٥، كما كان تهجير أصحاب الحرف على يد تيمورلنك ضربة قاسية لدمشق، كما كان انهيار الحكم ضربة قاسية أيضاً وان كان هذا الانهيار أقل وضوحاً في المدن منه في الريف.

(٢٤) لمزيد من التفاصيل، انظر:

Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914,* pp. 4-6.

ثالثاً، كان هناك ما يتعلق بهيكل الحكومات المختلفة وسياساتها (المماليك، العثمانيون، والصفويون)، ففي كل هذه الحكومات، كانت السيطرة في يد العسكريين الذين كانوا عادة من أصول أجنبية. أما أفراد الطبقة البرجوازية من أصحاب المشروعات من تجار وحرفيين ونقاباتهم فلم يحصلوا أبداً على السلطة أو التنظيم الكافيين للضغط على الحكومة أو اقناعها بأخذ مصالحهم وحاجاتهم في الاعتبار. ونتيجة ذلك، كانت الملكية الخاصة معرضة دائماً للخطر أكثر منها في أوروبا، وكان أي مشروع ناشىء أكثر عرضة للدمار. وتفسر هذه الاعتبارات نفسها، على نحو جزئي، عملية تخفيض العملة التي كادت أن تكون بلا انقطاع، كما تفسر الارتفاع في الاسعار في الشرق الأوسط من القرن الرابع عشر وحتى القرن التاسع عشر، وهو الاتجاه الذي يبدو أنه أكثر حدة بكثير منه في أوروبا، والذي لا يمكن تفسيره بتدفق السبائك الذهبية الأمريكية فقط، حيث إن أوروبا كانت أكثر عرضة لآثار ذلك، بل لا بد من أنه كان قد خلف اضراراً جسيمة في الاقتصاد[٢٥]. وتساعد هذه الاعتبارات أيضاً على تفسير أن الشرق الأوسط لم يخرج عما سمّاه هيكشر في وصفه أوروبا في العصور الوسطى **سياسة التموين**؛ فلم تكن الأهداف الرئيسية لسياسة الحكومة تشجيع الانتاج المحلي، وإنما كانت تتركز على ضمان الوفاء بالحاجات المالية، والتأكد من إمداد المدن الرئيسية، خاصة العاصمة، بما تحتاج إليه من المؤن[٢٦]. وحتى بعد أن مر وقت طويل ـ بعدما أظهر رجال الدولة أمثال كرومويل وكولبير، كم كانت البلاد مستعدة للعودة الى مساندة الصناعة الوطنية والنقل البحري والتصدير ـ استمرت حكومات الشرق الأوسط في فرض ضرائب باهظة على المشاريع المحلية، ورسوم على الصادرات أكثر من تلك المفروضة على الواردات، بل استمرت في جعل النقل البحري الساحلي يقع

---

(٢٥) Traian Stoianovich, «Factors in the Decline of Ottoman Society in the Balkans,» *Slavic Review* (December 1962)

يقول الكاتب في هذه الدراسة ان اسعار الحبوب في الفترة ١٥٥٠ ـ ١٧٩٠ ازدادت اكثر من ٧ مرات. كما ازدادت أجور العمال غير المهرة بمقدار النصف، وهي الحقيقة التي يرجع الكاتب اليها معظم الفوضى الاجتماعية التي كانت سائدة في دلك الوقت. انظر أيضاً:

Issawi, ed., Ibid., pp. 520-524; Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517*, pp. 423-438; Darrāj, *L'Egypte sous le règne de Barsbay, 825-841/ 1422-1438*, pp. 91-107, and Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xvue siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale*, book 2, chap. 2.

(٢٦) Kortepeter, «Ottoman Imperial Policy and the Economy of the Black Sea Region in the Sixteenth Century,»; S. Ülgener, *Iktisadi Tarihimizin Ahlak ve Zihniyet Meseleleri* (Istanbul: [n.pb.], 1951); Bernard Lewis, «Some Reflections on the Decline of the Ottoman Empire,» *Studia Islamica* (1958), and W. Hahn, «Die Verpflegung Konstantinopels durch Staatliche Zwangswirtschaft,» *Beihefte zur Vierteljahrschrift für Sozial und Wirtschaftgeschichte*, vol. 6 (1926)

في أيدٍ اجنبية وفي إعفاء الأجانب من بعض الرسوم المرورية التي كان يدفعها الرعايا[٢٧].

إلى أي مدى يمكن إرجاع هذا الركود التقاني والسياسات الحكومية غير الملائمة ـ كما يحدث كثيراً ـ إلى الاسلام لتحريمه الفائدة وحظره المضاربة، وموقفه من الزراعة؟ لقد أكد مكسيم رودنسون على نحو مقنع في كتابه القيّم **الإسلام والرأسمالية** أن الاسلام في العصور الوسطى من حيث المذهب والممارسة كان مناصراً للنشاط الاقتصادي بوجه عام، وأشكال الرأسمالية بوجه خاص[٢٨]. انما يمكن ملاحظة ثلاثة آثار سلبية في النشاط الاقتصادي: **أولاً**، بعد ظهور الفكر العلمي والعقلاني ـ في الفترة من القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر والذي هدد بتقويض الأسس الدينية للمجتمع ـ كان هناك تحوّل نحو التصوف، وقد أدى ذلك الى خلق حيوية روحية كبيرة، «ولكن أدى بالأساس الى انحطاط المستويات الفكرية لأن الحدس الصوفي حل محل المعايير الموضوعية للاستنتاج الارثوذكسي والعلم الهيلنستي. ثم انحط المستوى الأخلاقي في ما بعد...»[٢٩]. إن أحد أبعاد التدهور في المعايير الاخلاقية هو عجرفة المسلمين إزاء الثقافات والمعتقدات الأخرى، ولم تكن تلك الصفة بالطبع مميزة لهم ولكنها اصبحت، في ما بعد، صفة مدمرة حينما استمرت لفترة طويلة بعد انحطاط حضارتهم وازدهار حضارة أوروبا. ويمكن قياس ضيق الافق والافتقار إلى حب المعرفة ـ الناتج من الاحساس بالتفوق ـ من خلال ضآلة عدد المسافرين المسلمين الذين زاروا أوروبا من القرن السادس عشر وحتى

---

(٢٧) يمكن هنا أن نستشهد بدراسة مانتران الرائدة: Mantran, Ibid.
لم يكن هناك اهتمام مباشر من قبل الخلافة العثمانية بالانفتاح القومي، وكان الاهتمام أقل بغزو الاسواق الخارجية، وبالتالي لم تكن هناك رأسمالية للدولة، بل ادارة تهدف الى محاولة إنعاش عاصمة المال في الامبراطورية، وتوفير الوسائل الخاصة ببقائها بالاضافة الى توفير سيولة نقدية لخزانة الامبراطورية. وفي تركيا بدا أن الحكومة لا تكترث كثيراً بهذه القضايا وتجاهلت النتائج المتولدة عن الركود منه. وفي القرن السادس عشر، كانت السياسة الاقتصادية العثمانية اكثر استنارة وهدفت الى توسيع التجارة مع الغرب وللاحتفاظ بالبحر الأسود ولبناء مدن جديدة وإعادة احياء تلك التي انهارت. ولكن من الواضح أن مسيحيّي البلقان واليهود والارمن كانوا هم المستفيدين الرئيسيين من ذلك الوضع. انظر على سبيل المثال:

Cecil Roth, *The House of Nasi: The Duke of Naxos*, Gitelson Library (Philadelphia: Jewish Publ. Society of America, 1948); Stoianovich, «The Conquering Balkan Orthodox Merchant,», and Kortepeter, Ibid.

من أجل دراسة للسياسة الاقتصادية للمماليك، انظر:

Labib, Ibid., and Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages.*

أما بالنسبة الى السياسة الاقتصادية للصفويين، فانظر:

Vladimir Fedorovich Minorsky, *Tadhkirat al-Mulūk* (London: Luzac, 1943).

(٢٨) Solomon Dob Fritz Goitein, *Studies in Islamic History and Institutions* (Leiden: Brill, 1966), chaps. 11-13.

(٢٩) Hamilton Alexander Rosskeen Gibb, «The Community in Islamic History,» *Proceedings of the American Philosophical Society*, vol. 107 (April 1963).

القرن الثامن عشر، وأيضاً بالنظر إلى أن العرب والاتراك لم يكونوا يفكرون في الذهاب إلى أراضي الكفرة للتجارة، وانهم على اقصى تقدير كانوا يسمحون للأوروبيين بالمجيء الى بلادهم(٣٠).

أخيراً، ربما كان اندماج السلطة الدينية والعلمانية في الاسلام أحد العوامل التي منعت ظهور مراكز مستقلة للسلطة تراقب الحكومة المركزية. فالاسلام ـ مثله مثل معظم الحضارات غير الغربية ـ لم يكن له أبداً جماعات تمارس السلطة مثل تلك التي وُجدت في أوروبا (كملّاك الأرض الاقطاعيين، والكنيسة المستقلة، والمدن، والجامعات وغيرها من الجماعات)، هذا رغم اعطاء جماعات مثل العلماء والاشراف فرصة لممارسة النفوذ. وعلى نحو أدق، وكما أشرنا سابقاً، فقد فشل البرجوازيون في إشعار الحكومة بوزنهم واخضاعها لمصالحهم كما فعل نظراؤهم الأوروبيون.

٢ ـ الطلب

في الفترة الزمنية موضع الدراسة، تحوّل الطلب الأوروبي على كثير من السلع التي كان يصدّرها الشرق الأوسط، كلياً أو جزئياً، الى منتجين آخرين يستطيعون تقديم انتاج أجود أو أرخص. فبالنسبة إلى الانتاج الزراعي، كان ذلك بعد فتح مناطق جديدة ذات تربة وطقس وتنظيمات اقتصادية أفضل، مثل الضياع المدارة مركزياً في أوروبا ومزارع العبيد عبر البحار. أما بالنسبة إلى السلع الصناعية، فقد جاء هذا التحول نتيجة نقل التقانة الى أوروبا أو ظهور تقنيات جديدة في تلك القارة وفي الهند. سوف ندرس، أولاً، الوضع في منطقة البحر المتوسط ثم ندرس لاحقاً الوضع في منطقة المحيط الهندي.

أ ـ منطقة البحر المتوسط

يمكن دراسة الطلب في ما يتعلق بثلاثة انواع من السلع: السلع المصنعة؛ المواد الخام والمواد الغذائية؛ المنسوجات ومواد النسيج.

(١) حتى نهاية القرن العاشر، كان البردي إحدى أهم المواد التي يصدّرها الشرق الأوسط إلى أوروبا ثم استبدل الورق به في ما بعد؛ وكان يصدّر إما مباشرة أو عن طريق القسطنطينية. ولكن، مع بداية القرن الثاني عشر، أصبحت اسبانيا تنتج

---

(٣٠) Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale*, p. 604.
لقد ذهب عدد قليل من الاتراك الى فيينا للتجارة، انظر: Stoianovich, Ibid.
كما ذهب القليل من المغاربة إلى مرسيليا وجنوى: انظر:
Jean-Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894* (Paris: Presses universitaires de France, 1961), vol. 2, p. 28.

الورق، ثم تبعتها ايطاليا في القرن التالي[٣١]. ومع مطلع القرن الرابع عشر، أصبحت مدينة فابريانو الصغيرة أكبر مراكز العالم الغربي لانتاج الورق[٣٢] وسرعان ما أصبح الشرق الأوسط يستورد الورق من أوروبا، ولا يزال حتى الوقت الحاضر[٣٣].

وكان الزجاج العالي الجودة ينتج في سوريا وغيرها من المناطق، وكانت بعض الصناعات الزجاجية تصدّر الى أوروبا والى الشرق معاً[٣٤]. لكن هناك بعض الدلائل التي تشير الى أن عمال الشرق الأوسط قد اتجهوا الى الغرب بعد الحملات الصليبية ليعيدوا إحياء الصناعة الغربية في البندقية وغيرها[٣٥]. ومع نهاية العصور الوسطى، كان الشرق الأوسط يستورد زجاج النوافذ وغيره من صناعات الزجاج في أوروبا، وظل يستوردها، في حين استمر انتاجه في التدهور من حيث الجودة[٣٦].

أما السكّر، فكان يصدّر بكميات كبيرة بخاصة من مصر وسوريا وقبرص[٣٧]. إلا أن رجال الحملات الصليبية جلبوا قصب السكّر الى اوروبا، وسرعان ما أصبح يُزرع في العديد من بلدان البحر المتوسط[٣٨] غير أن الضربة الحقيقية لانتاج السكّر في

---

(٣١) Philip K. Hitti, *History of the Arabs from the Earliest Times to the Present* (London: Macmillan, 1943), p. 564, and Thomas Francis Carter, *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward*, reviewed by L. Carrington Goodrich (New York: Ronald Press, 1955), pp. 137 and 247-250.

(٣٢) Robert Sabatino Lopez, «The Trade of Medieval Europe: The South,» in: Moissey Postan and E.E. Rich, eds , *The Cambridge Economic History of Europe* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1952), vol. 2, p. 299.

(٣٣) Morris S. Goodblatt, *Jewish Life in Turkey in the xvith Century as Reflected in the Legal Writings of Samuel de Medina* (New York: Jewish Theological Seminary of America, 1952), p. 51, and Paul Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au xviie siècle* (Paris: Hachette, 1896), pp. 505-506.

ومن الجدير بالذكر ان قائمة الحِرف في اسطنبول في القرن السابع عشر والتي قدمها أوليا شلبي لم تذكر صناعة الورق. انظر: Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale*, p. 412.

ورغم ذلك يرجّح أن صناعة الورق ظلت مستمرة في بورسة.

(٣٤) Aziz Atiya, *Crusade, Commerce and Culture* (Bloomington: Indiana University Press, 1962), vol. 1, p. 185; A.H. Christie, «Islamic Minor Arts,» in: Thomas Walker Arnold (Sir) and Alfred Guillaume, eds., *The Legacy of Islam* (Oxford: Clarendon Press, 1931), pp. 129-130; Wilhelm von Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge*, 2 vols. (Leipzig: O. Harrassowitz, 1923), vol.1, p. 180 and vol. 2, pp. 710-711, and Adolf Schaube, *Handelsgeschichte der Romanischen Völker* (Munich: [n.pb.], 1906), p. 16.

(٣٥) D.B. Harden, «Glass and Glazes,» in: Charles Singer, ed., *A History of Technology* (Oxford: Clarendon Press, 1956-1957), vol. 2, pp. 327-328.

(٣٦) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Colin, 1949), p. 336, and Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle. Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale*, p. 407.

(٣٧) Labib, *Handelsgeschichte Agyptens im Spätmittelalter, 1171-1517*, p. 320, and Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge*, vol 2, pp. 9 and 680-693.

(٣٨) Hitti, *History of the Arabs from the Earliest Times to the Present*, p. 351, and Lopez, «The Trade of Medieval Europe: The South,» p. 352.

الشرق الأوسط انما ظهرت، في الواقع، حين بدأت زراعة قصب السكر تأخذ طريقها الى مزارع جزر ماديرا وآزور والرأس الأخضر في القرن الخامس عشر، ثم جاءت الضربة الكبرى حين زرع في البرازيل بعد عام ١٥٥٠[٣٩].

وكان الشرق الأوسط يصدّر مختلف الكيميائيات كما يتضح من وثائق الجنيزة، ولكن سرعان ما بدأ الأوروبيون يصنعونها ويستخرجونها من مناجمهم، وهكذا كان حجر الشب من أهم بنود التصدير الخاصة بمصر. ففي القرن الثالث عشر تم شحن ما بين ٥ آلاف و١٣ ألف قنطار إضافةً إلى كميات كبيرة صدّرتها الأناضول[٤٠]. ولكن في عام ١٤٦١، اكتشف المفوض البابوي للدخل احتياطياً ضخماً بالقرب من شيفيتا فيكيا، وتنبأ بأن المشروعات الكبيرة التي أُنشئت تحت إشرافه لمصلحة اليابا سوف تضمن هزيمة الكفّار، وذلك عن طريق تحرير أوروبا من اعتمادها الطويل على الشرق الأدنى[٤١] وفي ذلك الوقت نفسه، كانت المناجم المصرية قد نضبت.

(٢) أما بالنسبة إلى المواد الغذائية والمواد الخام، فقد كان الشرق الأوسط يصدّر بعض الخمور في أوائل العصور الوسطى، وبالتدريج اختفت هذه الصادرات ربما بسبب التحريم الاسلامي وربما ـ وهو الأهم ـ بسبب الضرائب التي أدت إلى انكماش مزارع الكروم في سوريا وقبرص والأناضول[٤٢].

وقد شهدت تجارة الحبوب تذبذباً شديداً في حجم المحاصيل. ففي سنوات الرخاء، صدّرت مصر وسوريا والأناضول القمح الى جنوب أوروبا. وفي السنوات التي جاءت بمحاصيل سيئة، كانت تستورد ما تحتاج إليه، ولكن الشرق الأوسط كان مصدّراً رابحاً، بوجه عام[٤٣]. ولكن بعد عام ١٥٩٠ تقريباً، افتُتح مصدر جديد للإمداد: فكان قمح شمال أوروبا (وخاصة البلطيق) يدخل البحر المتوسط على سفن هولندية وبريطانية. ولم تحلّ هذه المنافسة بالكامل محل قمح الشرق الأوسط، ولكن لا بد من انها حدّت من اسواقه وخفّضت اسعاره. ومع مطلع القرن الثامن عشر، شكلت الحبوب التي تنتجها البلقان والدانوب وروسيا (بما في ذلك الذُرة) المزيد من المنافسة.

---

(٣٩) Braudel. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,* p. 470

(٤٠) Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spatmittelalter, 1171-1517,* p. 314, and Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge,* vol. 2, pp. 565-570.

(٤١) John U. Nef, «Mining and Metallurgy...,» in: Postan and Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe,* vol. 1, p. 471.

(٤٢) Heyd, Ibid., vol. 2, p. 10, and Xavier De Phlanhol, *The World of Islam* (Ithaca, N.Y.: [n.pb.], 1957), pp. 50-53.

(٤٣) Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spatmittelalter, 1171-1517,* p. 323, and Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,* pp. 452-470.

وكان البن من المواد الغذائية التي عـانت، في وقت لاحق، وجود مصـادر انتاج جـديدة. ومـع منتصف القرن السـابع عشر، كـانت أوروبا قـد بدأت تتـذوق البن، وبدأت تستورد كميات كبيرة منه، من اليمن أو عن طريق مصر[٤٤]. غير أن الهولنديين كانوا قد استزرعـوا النبات الى الشرق من جـزر الأنتيل وانهوا بـذلك الاحتكـار الذي تمتع به الشرق الأوسط. وفي عام ١٧٢١، كان ٩٠ بـالمئة من البن المصـدّر الى أوروبا عن طريق الشركة الهولندية للهند الشرقيـة يأتي من «مخـا» و١٠ بالمئـة فحسب يأتي من جاوه. لكن سرعان ما انعكست الآية بعد ذلك بخمس سنوات[٤٥]. ومرة أخـرى، لا يعني ذلك أن حجم صادرات الشرق الأوسط انخفض، ولكنـه يعني أن السعر لا بـد من أنه قد تأثّر. ومع منتصف القرن الثامن عشر، كانت المنافسة الاجنبية شديـدة الى الحـد الـذي جعـل الشرق الأوسط يستـورد البن بـالفعـل من جــزر الأنتيـل (الهنـد الغربية).

وقد ظلت بعض المواد الخام (مثل جذر نبات الفوة ونبات العفصة المستخدمـين في الصباغة، والبلوط المجفف المستخدم في الدباغة) تصدَّر طوال القرن التاسع عشر. غير أن مواد الصنـاعة ـ الشرق أوسـطية كـانت بدأت تجـد بعض المنافسـة منذ القـرن الثالث عشر من جانب المعامل الايـطالية[٤٦]. ومنـذ القرن السـادس عشر، تم استيراد العديد من المواد من أمريكا الوسطى. ومنذ نهاية القرن الثـامن عشر، انضـم إلى تجارة الشرق الأوسط بنـد جديـد هو الافيـون، الذي كـانت السفن الأمريكيـة والأوروبيـة تحصل عليه من تركيا، ثم من إيران في ما بعد، من أجل الاستخدام المحلي أو لإعادة التصدير الى الصين[٤٧].

---

(٤٤) Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au xviie siècle,* p. 415, and Kristof Glamann, *Dutch- Asiatic Trade, 1620-1740* (Copenhagen: Danish Science Press, 1958), pp. 183-195.

تم افتتاح أول مقهى في اكسفورد عـام ١٦٥٠ وفي لندن عـام ١٦٥٢ وفي مرسيليـا عام ١٦٧١ وفي بـاريس عام ١٦٧٢.

(٤٥) Charles Ralph Boxer, *The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800,* History of Human Society (London: Hutchinson, 1965), p. 199.

(٤٦) Lopez, «The Trade of Medieval Europe: The South,» p. 388.

(٤٧) Frank E. Bailey, *British Policy and the Turkish Reform Movement: A Study in Anglo-Turkish Relations, 1826-1853* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press; London: H. Milford; Oxford University Press, 1942), p. 94, and N.A. Khalfin and A.A. Muradian, *Yanki na Vostokye* (Moscow: [n.pb.], 1966), pp. 35-36.

في أوائل التسعينيات من القرن التاسـع عشر كان محصـول الافيون الايـراني (والذي كـان يصدر نصفـه) يقـدر بحوالى ٧٠ ألف «بـود» (Puds) (أي حوالى ١,١٥٠,٠٠٠ كغم) تبلغ قيمتهـا ٦ ملايـين روبـل (حـوالى ٦٠٠ ألف دولار). انظر:

M.L. Tomara, *Ekonomicheskoye Polozheniye Persii* (Petersburg: [n.pb.], 1895), pp. 12-13.

وللحصول على الارقام الخاصة بالسنوات السابقة على ذلك، انظر:

=

وينبغي أن نشير ايضاً الى تجارة اللؤلؤ؛ فقد صدّر الشرق الأوسط الى أوروبا في العصور الوسطى اللؤلؤ المستخرج من الخليج الفارسي ومن سيلان. وقد سيطر البرتغاليون لمدة مئة عام تقريباً (من عام ١٥٠٨ الى عام ١٦٠٢) على البحرين، ومن ثم على المزارع الرئيسية للؤلؤ، ثم اعيدت السيطرة الى العرب والفرس، فاستؤنفت تلك التجارة من جديد. ولكن الأوروبيين كانوا في ذلك الوقت قد وجدوا سبيلاً مباشراً الى لؤلؤ الهند والشرق الأقصى. وقد تزايدت صادرات البحرين من اللؤلؤ طوال القرن التاسع عشر على نحو ضخم، ولكن يبدو أن معظمها كان موجّهاً الى الهند. وبعد الحرب العالمية الأولى، كان لمنافسة اللؤلؤ الياباني الصناعي وقع الضربة القاضية على تلك التجارة(٤٨).

(٣) ظل النسيج ومنتوجاته من أهم صادرات الشرق الأوسط حتى تم اكتشاف النفط حديثاً؛ انما حدثت تغيرات هائلة من قرن الى آخر في تركيبه كما حدث التحول من تصدير السلع المصنعة الى تصدير المواد الخام. ويمكن دراسة هذه التجارة من خلال ثلاثة عناوين فرعية: **الكتّان والحرير والقطن**.

كان تصدير الصوف الخام محدوداً، وكانت المنتوجات الصوفية تُستورد من أوروبا منذ أوائل العصور الوسطى أو من تونس حيث كانت هناك صناعة مزدهرة أقامها مهاجرو الاندلس.

وكانت مصر لفترة طويلة المصدر الرئيسي للكتان وخيوطه(٤٩)، ثم انخفضت تلك الصادرات تدريجياً، ربما بسبب تدهور الصناعات الحرفية وتزايد المنافسة الأوروبية، إضافة أن فرنسا كانت قد توقفت عن شراء الكتّان مع مطلع القرن السابع عشر. ورغم ذلك ظلت مصر تصدّر كميات صغيرة الى مناطق أخرى حتى نهاية القرن الثامن عشر(٥٠).

أما بالنسبة إلى خيوط الكتّان، فقد ظهرت مناطق جديدة أكثر وفرة في انتاجها،

= Baring, «Report on Trade and Cultivation of Opium in Persia,» in: Great Britain, *Accounts and Papers 1881*, vol. 69.

(٤٨) Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge*, vol. 2, pp. 648-651, and Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, pp. 312-313.

(٤٩) Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517*, p. 312, and Goitein, *Studies in Islamic History and Institutions*, p. 322.

(٥٠) Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au xviie siècle*, p. 409, and Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, pp. 304-307.

ومع مطلع القرن الرابع عشر، كانت أوروبا تصدر الكتان الى أقصى الشرق حتى الصين. انظر: Lopez, «The Trade of Medieval Europe: The South,» p. 332.

أولاً رومانيا ثم، وعلى نطاق أوسع، فرنسا ومنطقة البلطيق[٥١]. وقد أشار بول ماسون في كتابه عن القرن السابع عشر إلى خيوط الكتّان باعتبارها أحد بنود التجارة[٥٢]، ولكنه لم يشر إليها في كتابه عن القرن الثامن عشر[٥٣] رغم أن كميات صغيرة كانت لا تزال تصدر في الواقع. ولعلها إشارة ذات مغزى ألا يتضمن تحليل جيرار عن التكاليف والعوائد الخاصة بأربعة عشر محصولاً مصرياً أساسياً، في عام ١٨٠٠، محصولَ خيط الكتان[٥٤].

وظل الحرير، حتى القرن الثامن عشر، سلعة التصدير الرئيسية، وثمة معلومات متوافرة عن هذه السلعة تفوق تلك الموجودة عن معظم السلع الأخرى، وتتسم الخطوط العامة لتجارة الحرير بالوضوح[٥٥].

في العصور الوسطى المبكرة، كانت المصنوعات الحريرية العالية الجودة تصدَّر من الشرق الأوسط إلى أوروبا، وكانت تلك الصناعة تعتمد، جزئياً، على الحرير المحلي الذي كان يزرع في إيران وسوريا ومورا وغيرها؛ وتعتمد من ناحية أخرى على الحرير المستورد من اسبانيا وصقلية، كما تشير وثائق الجنيزة[٥٦]. ولكن، مع القرن الثالث عشر، انتهى الاحتكار الذي تمتع به المسلمون في أوروبا؛ ومع بداية القرن الخامس عشر كانت المصنوعات الحريرية الايطالية تباع في الشام. ولكن هذا لا يعني انحطاط صناعة الحرير المحلية في إيران وبورسه وسوريا، وحتى في العراق؛ فقد ظلت تفي بحاجات الشرق الأوسط، بل تكفي للتصدير الى بعض المناطق المتاخمة كالسودان والهند. غير أن التصدير إلى أوروبا توقّف عملياً. وأصيب نساجو الحرير في الشرق الأوسط بضربة قاسية مع تدفّق السلع الأوروبية التي استخدمت الآلات في صناعتها.

وعلى العكس من ذلك، أصبح الحرير الخام البند الرئيسي في قائمة الصادرات الى أوروبا، وكانت إيران المنبع الرئيسي لتصدير الحرير، فتصدّر منتوجاتها عبر حلب وأزمير وأحياناً عبر الخليج العربي. وإلى جانب انتاج إيران، كان هناك انتاج متزايد من المنطقة الواقعة حول بورسه، وبعض المناطق الأخرى في غرب الأناضول وشمال سوريا ولبنان، الأمر الذي أمكن بسببه الاحتفاظ بحجم انتاج الشرق الأوسط من الحرير في

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٩٨ و٣١١.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٥٠٣، و
Alfred Cecil Wood, *A History of the Levant Company* (London: Frank Cass, 1935), p. 77.

(٥٣) Paul Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au xviiie siècle* (Paris. Hachette, 1911).

(٥٤) Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 378.

(٥٥) انظر: «Harir,» in: *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed.

(٥٦) Goitein, *Studies in Islamic History and Institutions*, p. 320.

الوقت الذي شهد انهيار صناعة الحرير الإيرانية في أوائل القرن الثامن عشر وحتى ازدهارها مرة أخرى في القرن التاسع عشر. ولكن على الرغم من الاحتفاظ بحجم الانتاج، فلا بد من ان تكون قد تأثرت بالمنافسة المتزايدة، خاصة أن نوعية الانتاج في الشرق الأوسط كانت دون المستوى. في البداية، كان المنافسان الاساسيان ايطاليا وفرنسا، ثم ازدادت منافسة كل من الصين والهند. «وفي عام ١٦٣٦، ظهرت على الساحة ثالثة المناطق من حيث انتاج الحرير؛ البنغال. ومع نهاية القرن كانت تجارة الحرير البنغالي تفوق تجارة بلاد فارس والصين»[٥٧]. وفي أواخر القرن التاسع عشر، كانت المنافسة اليابانية اكثر حدّة، ورغم ذلك، تزايد انتاج الشرق الأوسط على نحو ملحوظ نتيجة المبادرات الحكومية والخارجية على حد سواء، ويعتقد أنه في عام ١٩١٤ كان الشرق الأوسط لا يزال ينتج ١٠ بالمئة من الانتاج العالمي[٥٨]. وإضافة إلى منافسة الحرير الصناعي، أدى الدمار الذي لحق بلبنان والأناضول وإيران بعد الحرب العالمية الأولى الى القضاء على انتاج الشرق الأوسط.

أما بالنسبة إلى القطن، فقد كانت أوروبا تستورد القطن الخام في العصور الوسطى من مصر، وبدرجة كبيرة من سوريا، ومن قبرص واليونان؛ ولكنها لم تكن، على ما يبدو، تستورد كميات كبيرة من القماش والخيوط[٥٩]. ومع مطلع القرن السابع عشر، أصبحت صادرات القطن الخام من الشرق الأوسط الى فرنسا وانكلترا، وغيرهما من الدول، ذات أهمية كبيرة حتى أنها فاقت أهمية صادرات الحرير مع مطلع القرن العاشر.

غير ان الاقبال على المنتوجات القطنية كان يتزايد في أوروبا. فبدأ القماش الهندي يكتسب شعبية في القرن السابع عشر، وبدأ الفرنسيون يشترون الخيوط والقماش من مصر[٦٠]؛ وهذا ما هدد صناعة الصوف، حتى أن استيراد القطن كان محظوراً فترة من الوقت في كل من بريطانيا وفرنسا. وقد أدى رفع هذا الحظر في أوائل القرن الثامن عشر الى زيادة كبيرة في الصادرات من منتوجات شمال سوريا وجنوب الاناضول وشمال العراق ومصر واليونان[٦١]. ولكن مع بداية العقد الثامن من القرن الثامن عشر، تزايدت المنافسة الهندية. وفي عام ١٧٦١ فرضت رسوم باهظة على

(٥٧) Boxer, *The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800*, p. 200.
ولمزيد من التفاصيل، انظر:
Glamann, *Dutch-Asiatic Trade, 1620-1740*, pp. 114-127 and 282-284, and Holden Furber, *John Company at Work* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1948), pp. 161-165.

(٥٨) انظر: «Harir,» in: *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed.

(٥٩) Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517*, pp. 311-312, and Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge*, vol. 2, pp. 611-614.

(٦٠) Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au xviie siècle*, p. 409.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٤٥٦، و Stoianovich, Ibid.

واردات الخيوط الى فرنسا من أجل حماية الغزالين الفرنسيين ومنتجي غرب الهند. وقد زاد كل ذلك من ربحية صادرات الشرق الأوسط من القطن عند تصديره في صورته الخام. وبالفعل، أصبح القطن الخام أهم بنود صادرات الشرق الأوسط مع بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وقد تأكد هذا الاتجاه في القرن التاسع عشر، فمنذ عام ١٨٢٠ وبسبب الانقلاب (الصناعي)، والملاحة البخارية، غمرت المنسوجات المصنوعة آلياً الشرق الأوسط ودمرت الصناعات الحرفية فيه. وفي الوقت نفسه ازداد الطلب على القطن الخام، وهو ما أدى الى حصول مصر على أرباح طائلة. وقد أدت الحرب الأهلية الأمريكية الى التوسع، لفترة زمنية قصيرة، في زراعة القطن في الأناضول وسوريا وإيران. ولكن لم يصبح الشرق الأوسط، من جديد، أحد أهم مصادر تصدير القطن إلا في القرن الحالي[٦٢].

وبطبيعة الحال، كان لهذا الانخفاض في قدرة الشرق الأوسط على التصدير وانحسار الطلب على منتوجاته، آثاره في قدرته على الاستيراد. وهناك دلالات واضحة في القرن الثامن عشر تؤكد انكماش اسواق السلع الهندية والأوروبية في مصر وإيران، وبعد ذلك بقليل في العراق وبعض أجزاء سوريا[٦٣]. وقد شهدت تجارة الشرق الأوسط مع أوروبا في القرن التاسع عشر بوجه عام فائضاً كبيراً في الواردات، وهو الذي كان يغطّى على الأرجح عن طريق استيراد رأس المال من ناحية، وعن طريق شحن جزء كبير من السبائك التي كانت قد تراكمت في قرون سابقة.

ب ـ منطقة المحيط الهندي

في أوائل العصور الوسطى، تمثلت صادرات الشرق الأوسط الرئيسية إلى شرق افريقيا في الأقمشة والمنتوجات الزجاجية والأسلحة. ويرجّح أن المنطقة كانت تصدّر إلى الهند والشرق الأقصى «منتوجات الكتّان المرتفعة الأسعار، والصوف والقطن بما في ذلك الأغطية والمنتوجات المعدنية، وخام الحديد والسبائك»[٦٤] وتتضمن قائمة صادرات الشرق الأوسط في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، المستقاة من وثائق الجنيزة، المنسوجات والملبوسات والمعادن، والمنتوجات المعدنية والزجاجية والأدوات المنزلية والكيميائيات

---

(٦٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914,* passim.

(٦٣) Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au xviiie siècle;* Wood, *A History of the Levant Company,* pp. 162-165; Furber, *John Company at Work,* p. 167, and Glamann, *Dutch-Asiatic Trade, 1620-1740,* p. 165.

(٦٤) George Fadlo Hourani, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1951), p. 75.

والأدوية والصابون والورق والكتب والمرجان والمواد الغذائية والسبائك. وبالمقابل، كانت واردات الشرق الأوسط من شرق افريقيا تتضمن الخشب، وكان يستورد التوابل والحديد والصلب والمنتوجات المعدنية والمنسوجات الحريرية والقطنية والمصنوعات الجلدية والخزف والفواكه والأخشاب من الهند[٦٥]. غير أن البند الأكثر أهمية كان على الأرجح تجارة الرقيق «على الرغم من أن مجموعها في أي سنة بعينها لم يصل أبداً الى الذروة التي بلغتها أرقام تجارة الرقيق الأوروبية. ومع ذلك كان عدد الأفارقة الذين تم تصديرهم مذهلاً بكل تأكيد»[٦٦]. وقد أرسل بعض هؤلاء الرقيق الى مناطق مختلفة في الشرق الأوسط، واقتيد آخرون الى الهند أو الى مناطق أبعد من ذلك تجاه الشرق.

وثمة انطباع بأنه في الوقت الذي كانت تتدهور الحِرف في الشرق الأوسط كانت تزدهر مثيلاتها في الهند[٦٧]. وعلى أية حال، يبدو أنه كان هناك تحول ملحوظ في نمط التجارة في الفترة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. ويبدو واضحاً أن الشرق الأوسط كان يستورد كميات كبيرة من المنسوجات القطنية الهندية وبعض الحرير، وكان يصدِّر في المقابل اللؤلؤ والتمر والفواكه والحبوب والخيول والسجاجيد وكميات كبيرة من السبائك[٦٨].

وقد توقفت تجارة الرقيق المزدهرة بعض الوقت بسبب سيطرة البرتغاليين على شرق افريقيا. ولكن بعد عام ١٦٥٠، استعاد العُمانيون النصف الشمالي من ساحل شرق افريقيا وأعادوا هذه التجارة التي اشترك فيها الأوروبيون وبعض الامريكيين. وعلى مدار القرن التاسع عشر، كانت تجارة الرقيق تتضاءل، تدريجياً، بسبب جهود البريطانيين، لكنها لم تتلاش كلياً حتى وقتنا هذا.

---

(٦٥) Goitein, *Studies in Islamic History and Institutions*, pp. 339-343.

(٦٦) Reginald Coupland (Sir), *East Africa and Its Invadors from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856* (Oxford: Clarendon Press, 1938), p. 35.

يرجح أن تجارة العبيد عبر الاطلسي قد حملت ١٢ مليون عبد على الأقل في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر. ويعتقد أن تجارة العبيد من غرب أفريقيا الى شمالها كانت تبلغ مليونَي شخص على الأقل في القرن الواحد. انظر المصادر التي ذكرت في:

Leon Carl Brown, «Color in North Africa,» *Daedalus* (Spring 1967).

(٦٧) ومن الجدير بالذكر أن مستلزمات السوق الحضرية في كل من الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا كانت ذات تأثير قوي للغاية في تطور انتاج القطن في غجرات والساحل الشرقي للهند (وقد تفضل د. جوبتا بتقديم المعلومات).

(٦٨) Moreland, Ibid., p.209; Radhakamal Mukerjee, *The Economic History of India, 1600-1800* (London; New York: Longman, 1945), p. 88; Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale*, p. 587; Masson, Ibid., p. 520; Furber, *John Company at Work*, p. 167; Glamann, *Dutch-Asiatic Trade, 1620-1740*, chap. 7, and J.G. Lorimer, *Gazeteer of the Persian Gulf* (Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1908-1915), vol. 1, p. 165, and

محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق: التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي، ١٨٦٤ - ١٩٥٨ (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٦٥)، الفصلان الثاني والثالث.

ثانياً: تجارة الترانزيت والنقل

سوف يتركز هذا البحث على تجارة التوابل، وهي التجارة التي كانت الأكثر أهمية في التجارة الدولية حتى القرن الثامن عشر على مدى ألف عام. وسوف يقتصر هذا البحث أيضاً على طريق البحر الأحمر، الذي أصبح منذ القرن العاشر أو القرن الحادي عشر أكثر أهمية من الطريق الإيراني الى البحر الاسود أو طريق الخليج العربي الى البحر المتوسط[69]. وطوال هذه المدة، كان السعر الذي يدفعه المستهلكون في أوروبا أكبر بكثير من ذلك الذي يحصل عليه المنتجون في جزر الهند الشرقية. ويعني ذلك أن الوسطاء كانوا يحصلون على مبالغ طائلة وهم التجار والأشخاص الذين حملوا البضاعة في البحر المتوسط، وكذلك التجار وحكام المناطق التي مثلت دور الجسر بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، إضافة الى الذين كانوا يحملون البضاعة في المحيط الهندي.

١ ـ البحر المتوسط

أثناء الصراع على السيادة في البحر المتوسط بين الأسطول العربي والاسطول البيزنطي (من عام ٦٥٠ ـ عام ١٠٥٠) بدأ التجار الايطاليون يسيطرون على التجارة في ذلك البحر. ومنذ منتصف القرن التاسع، وفدوا الى مصر وسوريا على سفنهم الخاصة، ثم تولوا بعد ذلك أمر التجارة مع بيزنطية أيضاً. ومن ناحية أخرى، ليس ثمة دليل على قيام السفن الاسلامية بالاتجار مع الموانىء الأوروبية[70]. وفي القرن الحادي عشر، انتقلت السيطرة البحرية الى الايطاليين، الأمر الذي مكّنهم من نقل الحملات الصليبية وتموينها، وقد أحيت تلك التجارة البلدان اللاتينية، لأن أعداداً كبيرة من التجار الأوروبيين ظلوا في الموانىء البحرية لمصر وسوريا وقبرص وكيليكيا والقسطنطينية. وفوق ذلك لم يفقد الاوروبيون أبداً سيطرتهم على البحر المتوسط الا لفترة قصيرة سيطر فيها العثمانيون في القرن السادس عشر، وحتى حين أفزعتهم

---

(٦٩) أخذ جزء من هذا القسم من مقال آخر للمؤلف نفسه:
«Crusades and Current Crises in the Near East: A Historical Parallel,» *International Affairs* (July 1957).

(٧٠) Robert Sabatino Lopez, *The Birth of Europe*, translated from the French by the author (London: Phoenix House, 1967), pp. 284-291; Hélène Ahrweiler, *Byzance et la mer, la marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux viie-xve siècles*, bibliothèque byzantine, études; 5 (Paris: Presses universitaires de France, 1966); Ekkehard Eickhoff, *Seekrieg und Seepolitik Zwischen Islam und Abendland: Das Mittelmeer unter Byzantinischer und Arabischer Hegemonie, 650-1040* (Berlin: De Gruyter, 1966), and Armand O. Citarella, «The Relations of Amalfi with the Arab World before the Crusades,» *Speculum* (April 1967).

القرصنة المغربية كثيراً، فقد ظلوا يحتفظون بالسيطرة على النقل التجاري على الجزء الأكبر من التجارة الساحلية لشرق المتوسط اليهم[٧١]. ومنذ عام ١٨٢٠ فصاعداً، اضطلعت السفن البخارية الأوروبية بمعظم التجارة؛ وبمعنى آخر، كانت الأرباح الناتجة من تجارة البحر المتوسط في السلع المحلية وفي تجارة الترانزيت تعود إلى الأوروبيين منذ بداية العصور الوسطى.

وبطبيعة الحال، لم يكتفِ الأوروبيون، وخاصة الايطاليين، بالسيطرة على البحر المتوسط، فكان أحد أهم اسباب الحملات الصليبية، ولا سيما الأخيرة منها، السعي للسيطرة على الجسر الأرضي بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وكانت حملات رينو الكتيليني في البحر الأحمر في عام ١١٨١ أكثر تلك المحاولات نجاحاً. وقد أدرك صلاح الدين الخطر الذي مثّلته تلك الحملات على الأماكن الاسلامية المقدسة وعلى تجارة التوابل معاً. ولم يهزم صلاح الدين رينو ويعدمه فقط وإنما انتهج سياسة ـ اتبعها خلفاؤه من بعده ـ تقوم على تأكيد السيطرة المسلحة، فمنع التجار اليهود والبيزنطيين والأوروبيين من الاتجار في منطقة البحر الأحمر، وقد حلّ محلهم التجار الكارميون الذين كانوا جميعهم من المسلمين[٧٢]. وأصبح الأوروبيون الذين كان مصرحاً لهم ـ في ما مضى ـ بانشاء وكالات في القاهرة، مقيدين بإقامتها في الاسكندرية ودمياط فقط، وهما الميناءان الرئيسيان لمصر على البحر المتوسط.

وقد حاول الأوروبيون جاهدين اختراق هذه العوائق عن طريق مهاجمة الموانىء البحرية المصرية، غير أن المنافسة المريرة في ما بينهم جعلت من المستحيل قيام أي عمل مشترك وحرمتهم من استغلال أي انتصار مثل الاستيلاء على دمياط (عام ١٢١٩ـ١٢٢١ وعام ١٢٤٩) والاستيلاء على الاسكندرية (عام ١٣٦٥). وقد انتهت محاولات التحايل على العوائق ـ بفتح طرق برية الى الشرق ـ بنجاحات جزئية أو مؤقتة أثناء الفترة المغولية حين سيطر الايطاليون على البحر الأسود، وأبحر ابناء جنوى ـ عبر بحر قزوين ليحضروا من هناك (إيران) ذلك النوع من الحرير الذي كان يسمى جيلاني[٧٣]. كما انتهت محاولات الأخوين فيفالدي عام ١٢٩١ بالابحار الى الشرق عبر الاطلسي ـ بكارثة.

---

(٧١) Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale,* p. 491, and Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914,* p. 37.

وكان هناك أيضاً زيادة كبيرة في التجارة البحرية اليونانية والالبانية والبرجوازية. انظر: Stoianovich, Ibid.

(٧٢) Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517;* Goitein, *Studies in Islamic History and Institutions,* chap. 18, and Gaston Wiet, «Les Marchands d'épice sous les sultans mamlouks,» *Cahiers d'histoire égyptienne,* vol. 7 (1955).

(٧٣) *The Travels of Marco Polo* (New York: Modern Library, 1926), book 1, chap. 4.

وهكذا تم التوصل الى حل وسط وهو ما أتاح لمصر الحصول على دخل مرتفع جداً. فمثلت الضرائب الباهظة على التوابل البند الرئيسي لعوائد الحكومة. ومن ثم يقول صبحي لبيب «ليس من المستغرب أن ترتفع أسعار السلع الشرقية (التوابل) الى ثلاثة أو أربعة أضعاف، ولا هو من المستغرب أيضاً أن نعلم أن الحكومة المصرية كانت تجبي ما يوازي قيمة حمولة سفينة لكل ثلاث أو أربع سفن»[٧٤]. ويمكن ان نفترض أن الطلب الأوروبي على التوابل لم يكن مرناً والاسعار الأعلى كانت تنتقل عادة الى المستهلك، ومن ثم استمر الايطاليون وغيرهم من التجار في تحقيق الربح[٧٥].

وقد ظلت هذه الحالة من التوازن غير المستقر ـ وان كان مربحاً للطرفين ـ حتى عهد برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨). في ذلك الوقت، بدأت النتائج المتشابكة لانخفاض عدد السكان وانحطاط الزراعة والصناعة وتدهور التجارة وتزايد الإنفاق العسكري والتضخم وتخفيض قيمة العملة، في طرح نفسها على حكام مصر في شكل أزمة اقتصادية ضخمة. وكان الحل الذي طرحه برسباي هو تحوّل تجارة التوابل الى احتكار حكومي على أن تأخذ طريقها عبر مصر مستبعدة بذلك سوريا، ثم يمتد الاحتكار الى فروع أخرى من التجارة وربما الانتاج (مثل السكّر)[٧٦]. ويمكن تقييم النتائج من خلال الارقام التالية: كانت حمولة الفلفل الأسود التي تساوي دينارين على الأكثر في الموانىء الهندية تباع في مكة بـ ١٠ دنانير، غير أن برسباي أجبر التجار الأوروبيين على دفع ٨٠ ديناراً أو ١٠٠ دينار أو حتى ١٢٠ ديناراً. ومن ثم ارتفعت الأسعار في أوروبا. ويبدو على نحو أو آخر ان احتكار تجارة التوابل قد استمر حتى الاقتحام البرتغالي المحيط الهندي[٧٧].

ولم تثمر محاولات التجار الأوروبيين والكارميين في الحد من تلك السيطرة الخانقة، وتحطم الكارميين، وهم القطاع الأكثر أهمية في البرجوازية الشرق أوسطية. واندفع الاوروبيون الى العمل من جديد للبحث عن وسيلة للدوران حول بلاد

---

(٧٤) صبحي لبيب، «التجار الكارميون،» مجلة الجامعة المصرية للدراسات التاريخية (القاهرة)، (أيار/مايو ١٩٥٢).

(٧٥) في الوقت نفسه كان هناك تحول في الاهتمام، كما جسدته جنوى. «ففي بداية القرن الرابع عشر ظلت تفضل بلاد فارس والهند والصين وغيرها من البلدان التي تقع على طرق تجارة التوابل والحرير، ولكن حيث أن هذه الطرق أصبحت مسدودة فقد تحولت على نحو متزايد الى السلع الرديئة والاسواق الأقل مستوى في الدول حديثة الظهور في شرق أوروبا من Valachia إلى «بولندا»». انظر:

Robert Sabatino Lopez, «Market Expansion: The Case of Genoa,» *Journal of Economic History* (December 1964).

(٧٦) Darrāj, *L'Egypte sous le règne de Barsbay, 825-841/ 1422-1438*, chap. 6, and Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517*, chap. 9.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٣٣٣، ٣٩١ و٣٩٧.

المسلمين. وقد كللت هذه الجهود بالنجاح حين أبحر البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح وقضوا على سيطرة المسلمين على المحيط الهندي[٧٨].

٢ ـ المحيط الهندي

كان هدف البرتغاليين الأساسي السيطرة على تجارة التوابل. وقد سعوا الى ذلك عن طريق السيطرة على جزر وموانىء استراتيجية، وعن طريق تنظيم الملاحة في المحيط الهندي. ومن ثم فقد قاموا، بعد الاستيلاء على مضيق هرمز في عام ١٥٠٨، بمنع أي سفينة من الاتجاه الى الخليج دون تصريح[٧٩]. وفي عام ١٥١٥ أبلغ البوكرك سفير الشاه اسماعيل: «إذا وُجد أي تاجر من فارس في أي منطقة هندية بخلاف ميناء غوا، فإنه سوف يفقد تجارته ويتعرض لما نفرضه عليه من أقسى انواع العقاب»[٨٠] وكانت النتيجة مزدوجة: انحساراً في الملاحة المحلية ـ سوف نشرحها في ما بعد ـ ونقصاً في كمية التوابل المتجهة الى الشرق الأوسط.

ولكن يتضح الآن أن التجارة بين مصر والبندقية قد استمرت على نطاق واسع، وان محاولة البرتغاليين احتكار تجارة التوابل في عام ١٥٥٠، باءت بالفشل، لأن البرتغاليين، من ناحية، لم ينجحوا أبداً في السيطرة على مصادر الامداد في جنوب شرق آسيا، ومن ناحية أخرى، منعهم العثمانيون من شق طريق الى البحر الأحمر؛ وأضعفوا، بالاشتراك مع الماراكار الهنود، سيطرتهم على بحر العرب. بل أكثر من ذلك، اتصف المسؤولون البرتغاليون بالفساد واشتركوا في العديد من الاتفاقات العلنية وغير القانونية مع العديد من التجار وأرباب السفن المحليين في منطقة الخليج العربي[٨١]. ونتيجة ذلك يرى برودل أن تجارة التوابل المصرية بلغت حوالى ٣ ـ ٤

---

(٧٨) وقد بذلت محاولة مماثلة قصيرة الأخيرة في القرن الثامن عشر، وهدفت الى الحصول على أرباح ضخمة من انتقال البضائع بين المنتجين في المحيط الهندي والمستهلكين الأوروبيين. وقد قام حاكم مصر، منبهراً بالحجم الهائل لتجارة الترانزيت الخاصة بالبن في ١٦٩٩ برفع الرسوم بنسبة ١٢,٥ بالمئة في انتهاك لكل المعاهدات التي كانت سارية. غير أن تشبع الاسواق الأوروبية في ذلك الوقت قد مكّن التجار الاوروبيين من رفض الحصول على البن المفضل لديهم. «وقد بذلت محاولة مشابهة من جانب حاكمي مكة وجدة، وفي ١٧١٩ أرسل السلطان العديد من المبعوثين الى اليمن من أجل الحصول على تحريم التصدير من جانب الأوروبيين. ولكن كان الرد الذي تلقاه هو أنه إذا كان السلطان يرغب في الحصول على كل البن من بلاده، فان مثل هذا الاحتكار يجب أن يؤمن من جانب التجار الأتراك إذا ضمنوا للعرب مقداراً نقدياً سنوياً يماثل على الأقل ذلك الذي يدخله الأوروبيون الى اليمن». انظر:

Glamann, *Dutch-Asiatic Trade, 1620-1740*, pp. 191-192,

(٧٩) Arnold Talbot Wilson (Sir), *The Persian Gulf: An Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the Twentieth Century* (Oxford: Clarendon Press, 1928), p. 116.

(٨٠) Hadi Hasan, *A History of Persian Navigation* (London: Methuen, 1928), p. 147.

(٨١) Auguste Toussaint, *History of the Indian Ocean*, translated from the French by June Guicharnaud (London: Routledge and Kegan Paul, 1966), p. 114.

آلاف طن سنوياً بين عامي ١٥٥٤ و١٥٦٤، وهي كمية تساوي تلك التي قدِّرت لفترة حكم المماليك[٨٢]. وينبغي أن نضيف الى هذه الكمية نسبة أقل كانت تمرّ عبر سوريا. ولكن رغم كل ذلك، فقد أدى وجود مصدر انتاج بديل - وهو الذي كان بمقدور أبناء البندقية أن يلجأوا إليه من فترة إلى أخرى - الى كسر احتكار مصر والهبوط بالاسعار[٨٣].

ومن المعروف عموماً الآن أن تدفّق التوابل عبر الشرق الأوسط قد انتهى نهائياً، ليس على يد البرتغال وإنما على يد الهولنديين الذين اكتسبوا سيطرة أكبر على مصادر الانتاج واحتفظوا بقوة بحرية أضخم[٨٤]. ومع بداية عام ١٦٣٨، كتب ماندلسلو أن الهولنديين «غمروا كل بلاد فارس بالفلفل الأسود وجوز الطيب والقرنفل وغير ذلك من التوابل» وفي عام ١٦٧٧، أشار فراير - حين تحدّث هو أيضاً عن بلاد فارس - إلى «تجارة التوابل التي احتكرها الهولنديون»[٨٥]. وقد تناقصت مشتريات الأوروبيين من التوابل من منطقة الشرق الأوسط في القرن السابع عشر، ومع بداية القرن الثامن عشر كان الشرق الأوسط يحصل على معظم توابله من أوروبا.

ويبقى أن نشير إلى انحطاط النقل التجاري عند المسلمين، ومعه الاشكال الأخرى من التجارة الساحلية في المحيط الهندي. فحتى القرن السادس عشر، سيطر المسلمون على غرب المحيط الهندي. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تحدت السفن الصينية الاحتكار الاسلامي (ومن ثم، أبحر ابن بطوطة على سفينة شراعية صينية وأكد وجود التجار الصينيين في مالابار). وفي أوائل القرن الخامس عشر شنت حملات شهيرة وصلت الى سواحل افريقيا الشرقية[٨٦]، غير أن الاهتمام الصيني كان قصير المدى، فذهبت بعد ذلك سفن صينية قليلة إلى غرب مالقة وذهب عدد قليل

---

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.

(٨٣) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,* p. 421; Labib, *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517,* pp. 470-476, and Frederic Chapin Lane, «Venetian Shipping during the Commercial Revolution,» *American Historical Review,* vol. 38, no. 2 (January 1933).

(٨٤) انظر: Glamann, *Dutch-Asiatic Trade, 1620-1740;* Boxer, *The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800;* Jacob Cornelis Van Leur, *Indonesian Trade and Society: Essays in Asian Social and Economic History* (The Hague: Van Hoeve, 1955), and Marie Antoinette Petronella Meilink-Roelofsz, *Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago between 1500 and about 1630* (The Hague: Nijhoff, 1962).

(٨٥) Wilson, *The Persian Gulf: An Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the Twentieth Century,* pp. 163 and 166; Glamann, Ibid., pp. 92-110, and Dasgupta, *Malabar in Asian Trade,* pp. 12-18.

(٨٦) T. Yamamoto, «On Tawalisi Described by Ibn Batuta,» *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko* (1936).

من التجار إلى ما وراء البنغال[٨٧].

وكانت الآثار الأولى للاقتحام البرتغالي مدمِّرة، وقال باروس عن ذلك دون مبالغة: «لقد ظلت هذه التجارة النشطة (الى مالَقَة) قائمة حتى وصلنا إلى الهند. غير أن السفن الاسلامية والعربية والفارسية وسفن غوجارا، لم تجرؤ أن تقوم بالرحلة خوفاً من اسطولنا، وإذا فعلت أي من تلك السفن ذلك، فإنما كانت تقوم به خلسة وعن طريق الهروب من سفننا»[٨٨].

غير أن قوة البرتغاليين كانت قد بدأت تضعف منذ أوائل القرن السابع عشر، ولم يحاول البريطانيون والهولنديون، على عكس البرتغاليين، أن يمنعوا مرور السفن المحلية. وكانت النتيجة ـ كما سبق أن أشرنا ـ اعادة إحياء تجارة الرقيق مع شرق افريقيا. كما انتعشت أشكال أخرى من التجارة حتى جاء ما عُرف بالانقلاب البحري في منتصف القرن الثامن عشر. «وحتى ذلك الوقت كان نقل البضائع بين الهند والخليج يتم، جزئياً، عن طريق السفن التي يملكها تجار سورات أو عن طريق سفن يملكها تجار عرب من مسقط»[٨٩] ويمكن أن نضيف «ان انشغال وكالات بومباي والملاحين الوطنيين بالتجارة المتنامية مع الصين، قد أعطى المزيد من الحرية في الرحلات العربية للمسلمين والأرمن والفرس. ولا يبدو أن تدفّق الكرونات الألمانية والفضة والذهب من البندقية ومن لبنان الى كوشين، على متن المراكب الشراعية العربية والهندية، قد هبط في سبعينيات القرن الثامن عشر»[٩٠].

غير أن النمو المنتظم للسفن الأوروبية المبحرة وتحسّن كفاءتها إضافة إلى التزايد السريع لرؤوس الأموال المتوافرة للتجار الأوروبيين قد بدأت تقلل من عدد التجار وأصحاب السفن المحليين[٩١]. ومع مطلع عام ١٨٤٠ بدأت السفن البخارية تمخر عباب المياه الهندية؛ وفي عام ١٨٦٢ بدأ تسيير خط منتظم بين الهند والخليج[٩٢]. وفي

---

(٨٧) Dasgupta, Ibid., pp. 6-7, and Jung-Pang Lo, «The Emergence of China as a Sea Power during the Late Sung and Early Yüan Periods,» *Far Eastern Quarterly* (August 1955).

(٨٨) Hasan, *A History of Persian Navigation*, p. 146.

ومن أجل الأطلاع على نظام جوازات السفر البرتغالي، انظر: Dasgupta, Ibid., pp. 9-12.

(٨٩) Lorimer, *Gazeteer of the Persian Gulf*, vol.1, p. 166, and Abu Hakima, *History of Eastern Arabia, 1750-1800: The Rise and Development of Bahrain and Kuwait*, chap. 6.

(٩٠) Dasgupta, Ibid., pp. 90-92, and Furber, *John Company at Work*, pp. 167-168.

(٩١) Dasgupta, Ibid., pp. 135-136 and 168-169, and Toussaint, *History of the Indian Ocean*, pp. 169-170.

(٩٢) ارتفعت الحمولة الطنية للسفن التي تأتي من الخليج الفارسي الى الموانىء الهندية البريطانية من حوالى ١٠٠ الف طن سنوياً في أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر الى ما يزيد عن ٢٠٠ الف طن في أوائل القرن العشرين (١٩٠٠) ثم انخفضت الى أدنى من مستواها الاصلي مع بداية الحرب العالمية الأولى. وحيث ان هذه الارقام تشمل السفن التجارية البريطانية وغيرها، قد يعتقد المرء أن انحسار عدد السفن الهندية والفارسية والعربية كان حاداً، هذه الأرقام مستقاة من:

Pelis Thottathil, *Statistical Abstract Relations to British India, 1841-1911.*

وهو طالب دراسات عليا في جامعة كولومبيا.

الوقت نفسه أدى قمع الاسطول البريطاني القرصنة في الخليج الى مزيد من إضعاف الأسس البحرية للتجارة الغربية، إذ عبر غوته عن ذلك بقوله: «الحرب والتجارة والقرصنة ثالوث لا يتجزأ»[٩٣].

وقد أشار أحد التقارير البريطانية الصادرة عام ١٩٠٥ عن مسقط ـ المركز السابق للتجارة والقرصنة[٩٣] ـ الى أن «أربعة أخماس تجارة مسقط كانت مع الهند وفي يد الرعايا من الهنود البريطانيين العاملين من خلال شركاء أو وكالات في بومباي»[٩٤].

وقد أدت اسباب مشابهة الى انحطاط مماثل في تجارة البحر الأحمر، بخاصة بعد افتتاح قناة السويس. ويذكر تقرير تجاري بريطاني لعام ١٨٩٨ «منذ قرن من الزمان، كانت جدة بلا شك عروس البحر الأحمر، ومركزاً مهماً للتجارة وتضطلع بتجارة ساحلية مهمة. غير أن استعمال البخار، بالاضافة إلى التطور المتزايد في سهولة الاتصالات البحرية وسرعتها قد أدى الى تغير الاوضاع رغم استمرار التجارة الساحلية للسفن الشراعية في الازدهار لما بعد منتصف القرن. غير أن معظم عملياتهم للنقل التجاري قد استوعبتها شركة الخديوي، وثلاث بواخر أصغر حجماً تحمل العلم البريطاني. وكان التجار العرب في هذه المدينة ـ في ذلك الوقت ـ يملكون سفينتين كبيرتين فقط سعة ٢٥٠٠ طن تقريباً (إحداهما بخارية والأخرى شراعية)، وهو ما يعني انهم لم يقدروا على الوقوف أمام المنافسة من جانب الشركات المنظمة، ولم يكونوا على درجة من القوة أو الثروة تسمح لهم بالاتحاد لإقامة شركة محلية»[٩٥].

واستنتاجاً مما سبق، يمكن إرجاع انحطاط تجارة الشرق الأوسط بصورة أولية جداً إلى:

١ ـ الانحسار في قوة المنطقة الانتاجية (في مجال الزراعة والصناعات اليدوية) التي قلصت القدرة التصديرية، وبالتالي القدرة على الاستيراد.

٢ ـ انخفاض الطلب الأجنبي على سلع المنطقة نتيجة ظهور مصادر إمداد بديلة.

٣ ـ فقدان القوة البحرية من البحر المتوسط، الأمر الذي نقل معظم النقل التجاري عبر ذلك البحر الى الأوروبيين منذ بداية القرن التاسع.

---

(٩٣) ويجدر هنا ان نستشهد بالكلمات الآتية في وصف مسقط: «مسقط مركز لتجارة ضخمة حيث إنها مركز اعداد كبيرة من السفن التي تقوم بالاتجار الى سورات وبومباي وغوا على طول سواحل مالابار وإلى مخا وجدة على البحر الأحمر. فهي مركز لعرض، أو تخزين، البضائع التي تأتي من تلك الأماكن». انظر:

Abraham Parsons, *Travels in Asia and Africa* (London: Longman; Hurst, 1808), p. 207.

هذه الكلمات للكاتب السابق كما جاءت في:

Abu Hakima, *History of Eastern Arabia, 1750-1800: The Rise and Development of Bahrain and Kuwait*, p. 175

(٩٤) Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, p. 310.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٣١٩

٤ ـ فقدان القوة البحرية في المحيط الهندي وهو ما نتج عنه تحويل تجارة التوابل منذ القرن السادس عشر.

٥ ـ المنافسة المتزايدة في المحيط الهندي من جانب السفن الشراعية الأوروبية الأكبر والأفضل، أولاً، ثم من جانب السفن البخارية التي دعمتها الأموال والائتمانات التي كانت أكبر من أن تضاهيها قوة الشرق الأوسط في ذلك الوقت.

٦ ـ وقد تفاقم كل ذلك بسبب ضعف حكومات الشرق الأوسط وعجزها وسياساتها الاقتصادية الخرقاء، وهي العوامل التي ارتبطت بالهيكل الاجتماعي للمنطقة.

الفصل الخامس

أوروبا والشرق الأوسط وتحول النفوذ

لنفترض أن هناك خطين في رسم بياني، يلتصق كل منهما بالآخر ويسيران في الاتجاه نفسه، وعند نقطة معينة يبدأ أحدهما في الابتعاد عن الآخر؛ حينئذ تتسع الفجوة بين الاثنين على نحو ملحوظ بعد فترة من الوقت. هذه هي ببساطة الصورة التي يتفق بشأنها الكثيرون في ما يتعلق بشرح المسارات المختلفة للحضارة الغربية وحضارة الشرق الأوسط أو الحضارة الاسلامية على مدى الأعوام الألف الأخيرة. وربما يذهب الإجماع حول هذا الأمر إلى أبعد من ذلك، فوفقاً لأي معيار من المعايير المقبولة، كان الشرق الأوسط في القرنين التاسع والعاشر أكثر تقدماً من الغرب في تطوره الاقتصادي، وفي مجال العلوم والفلسفة والأبحاث والتعليم وإنشاء المدن والمعمار والحرف اليدوية وغيرها. بالمعيار نفسه، كان الغرب أكثر تقدماً من الشرق الأوسط في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. والسؤال هنا هو: في أي لحظة تاريخية، وفي أي المجالات انتزع الغرب الصدارة وتفوّق على الشرق الأوسط؟

هناك رؤية حديثة تؤكد أن هذا لم يحدث حتى القرن السابع عشر، ويكمن أحد أسباب هذا الاعتقاد في حقيقة مؤداها أن القوة العسكرية للامبراطوريات الاسلامية (حتى ذلك القرن) كانت تفوق القوة العسكرية للامبراطوريات الأوروبية بوضوح. صحيح أن الإسبان قد غزوا العالم الجديد في حين سيطر البرتغاليون والهولنديون على المحيط الهندي وسواحل افريقيا، من خلال السيطرة على بعض الجزر ذات الموقع الاستراتيجي وبعض الموانئ الحصينة، إلا أن العثمانيين قد حافظوا على قوّتهم إزاء النمسا وحاصروا فيينا في عام ١٦٨٣، وهزموا بطرس الأكبر في بروث في عام ١٧١١، كما سلب التتر القرميون موسكو في عام ١٥٧١، وهزموا جيش غولستين الكبير في أوكرانيا في عام ١٦٨٩، كما طرد الأفارقة الشماليون الإسبان والبرتغال في

القرن السادس عشر، وشنّوا غارات على جنوب انكلترا وإيرلندا في القرن السابع عشر، كما طرد الصفويون البرتغاليين، بمساعدة الانكليز، من قشم وهرمز، ولم يكن البريطانيون ولا الفرنسيون ليحلموا بإقامة قاعدة قوية في الهند قبل القرن الثامن عشر. غير أن القوة العسكرية الاسلامية لم تعتمد فقط على التفوق العددي، وإنما كانت تعتمد، أيضاً، على البقاء على مستوى التقدم نفسه في التقانة العسكرية الأوروبية.

أولاً: عرض نقدي لمقولة مارشال هودجسن

إلا أن المسألة لم تكن إطلاقاً مسألة «قوة عسكرية»، فحتى عام ١٥٠٠ تقريباً - كما يقول مارشال هودجسن - في كتابه البارز والمتفرد **مغامرة الاسلام** الذي يعدّ أنجح المحاولات المبذولة لدراسة الحضارة الإسلامية في سياقها العالمي، كان المجتمع الاسلامي بالتأكيد أكثر المجتمعات امتداداً وتأثيراً في العالم[١]، ومرة أخرى يقول: «في ذلك الوقت، اتسعت الامبراطورية الاسلامية بسرعة، رغم أن أقل من خمس عدد سكان العالم، على الأرجح، كان من المسلمين. ومع ذلك احتل المسلمون أبرز المواقع الاستراتيجية حتى ضم المجتمع الذي ينتمون إليه الجزء الأكبر من البشرية التي تسكن المدن»[٢]؛ وبالطبع كانت المدينة تعني التجارة والثقافة معاً.

وفي شغفه لمواجهة نزعة التمركز الأوروبي حول الذات والانحياز إلى الغرب من جانب المستشرقين وغيرهم من الباحثين، يذهب هودجسن إلى أبعد من ذلك فيقول: «في القرن السادس عشر بصفة عامة، كما رأينا، كان تكافوء المجتمعات المدينية بين الشرق والغرب لا يزال سائداً. هذا المظهر من تاريخ العالم إنما يعكس التاريخ الأوروبي من زاوية أن ازدهار النهضة لم يكن، في حد ذاته، تخطياً لحدود مستوى المجتمع الزراعي. ولكن التغيرات الجوهرية كانت في طريقها إلى الحدوث مع نهاية القرن السادس عشر، وبنهاية القرن الثامن عشر، كانت كلها قد اكتملت على الأقل في ما يتعلق بمجالات معينة وأماكن معينة، مثلاً ما يتعلق بالفيزياء الفلكية في نصف الكرة الغربي وإنتاج الأقمشة القطنية في انكلترا»[٣].

وقد أكد هودجسن فكرته تلك عن طريق ثلاث حجج: **أولاً**، هناك الكثير من الروايات عن «عظمة القرن السادس عشر: الازدهار الفارسي» مع وصف حماسي للتصوير والفلسفة والتصوف والثقافة والمؤسسات في الامبراطوريات الثلاث الكبرى التي استوحت منها كل ذلك الامبراطورية الصفوية والعثمانية والمغولية، بما تمتعت به من

---

(١) Marshall G.S. Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, 3 vols. (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1974), vol. 2, p.3.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٠.

درجة عالية من النظام والرفاهية[4]. ثانياً، هناك تقليل مذهل من شأن عصر النهضة «غير أن النهضة في ذاتها لم تتعدّ، في إبداعها وحداثة مؤسساتها، عدداً من النهضات الكبيرة الأخرى التي ظهرت في العصر الزراعي من التاريخ الأوقوميني (العالمي)[5]. فهي لم تكن أكثر عظمة من ازدهار الصين تحت حكم سونغ، أو حتى من المبادرات وعمليات التحديث الثقافي المذهلة في أوج عهد الخلافة الإسلامية»[6]. ثالثاً، يمكن تفسير السمات الفريدة التي مكّنت أوروبا الغربية من تخطي غيرها من الحضارات بما يلي:

«ان التحول إذن من الاعتماد على العادات والأعراف إلى الاعتماد على الحساب والتجديد ـ رغم أنه قد ظهر على نطاق محدود ـ لم يكن في حد ذاته ما شكّل خصوصية التحول الغربي الحديث ولم يكن ذلك هو الذي جعل الغربيين في مكانة تختلف عن مكانة سابقيهم وعن بقية العالم. إذ لم يكن إلا مجرد مصاحب ومسهّل للتغير في أنماط استثمار الوقت والمال. وقد ظهر هذا على نحو فريد، وهو ما سوف أطلق عليه تعبير النزعة نحو النظرة التقنية للعالم إذ أصبح للاعتبارات التقنية المتخصصة الأولوية على غيرها من الاعتبارات. وفي هذا الشكل ـ لا في غيره ـ وصل التحول إلى مدى غير مسبوق»[7].

هناك عيبان رئيسيان في رؤية هودجسن. أولاً، لقد اهتم أكثر من اللازم بالمستويات ولم يعطِ الاهتمام الكافي للاتجاهات. وباستخدام التعبيرات الرياضية، فهو لم يعطِ الاهتمام الكافي بعلامة المشتقات الأولية. وقد قاده ذلك إلى خطأ بالغ الخطورة في التوقيت، ومنعه من أن يدرك أن أوروبا بدأت تلحق بالشرق الأوسط قبل القرن السادس عشر بفترة طويلة. ثانياً، لم يدرك هودجسن أن هذا التطور قد حدث لأن الأوروبيين قد بدأوا في مرحلة مبكرة جداً يوجهون عقولهم في المجالات التي يمكن للعقل البشري أن يعمل فيها بصورة أكثر كفاءة، إذ يمكنه أن يعمل على أساس كمية

---

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٦ ـ ١٣٣.

لقد كان هودجسن محقاً في لفته الأنظار إلى الانحياز «العروبي» للمستشرقين الغربيين. وهو الذي جعلهم يسوون بين حضارة «الشرق الأوسط» أو الحضارة «الاسلامية» والحضارة «العربية». ولسنا في حاجة إلى القول ان العرب أنفسهم يشتركون مع هؤلاء المستشرقين في ذلك الانحياز وهم يميلون إلى أن الشرق الأوسط قد دخل في الفترة ما بعد عام ١٢٠٠ ميلادية في مرحلة من الانحطاط الممتد. وقد كان هودجسن محقاً تماماً حينما ركز على الأهمية الكبرى لاسهامات الفرس والأتراك في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والسابع عشر. وتعقّد هذه الحقيقة عملية التحليل التي يقوم بها هذا البحث حتماً، حيث ينبغي مقارنة أوروبا بكيانين مختلفين، العالم العربي في الفترة من القرن السابع وحتى القرن الثاني عشر، والعالم الفارسي ـ العثماني في الفترة من القرن الحادي عشر وحتى القرن الثامن عشر.

وحيث ان كلاً من أوروبا والشرق الأوسط يحتويان على مناطق تتباين بدرجات كبيرة من حيث درجة التنمية بها، فإن المقارنات التي أجريت في هذا البحث إنما كانت بين أفضل المراكز في الشرق الأوسط وأفضلها في أوروبا.

(٥) الجزء الأكبر من شمال آسيا وشرقها.

(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧١ وانظر أيضاً ص ١٧٦.

(٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٢.

كبيرة من البيانات التجريبية وأن يخرج منها بنتائج تراكمية (مثل التقانة والعلوم الطبيعية والاقتصاد والإحصاء) ولولا أن كانط سبق أن استخدم مصطلح «العقل العملي» (Practical Reason) ليعبّر به عن أمر آخر، لاستخدمنا هذا التعبير لوصف ذلك النشاط. وهذا أمر ينبغي أن نميزه بوضوح عن البحث في مسائل اللاهوت والميتافيزيقا والأخلاق والقانون والسياسة والجمال. وربما كانت هذه المجالات أكثر عمقاً وأهمية، ولكن العقل البشري قد وقف بشأنها، منذ وقت طويل، أمام حواجز يبدو أنها مستعصية على التجاوز حتى الآن، ومن ثم فإن رؤية زرادشت وغوتاما وأشعيا وايسخيلوس، ناهيك عن أفلاطون وأرسطو، لم تساوها مساهمات أخرى إلا نادراً، ولم تتفوق عليها مساهمات أخرى حتى الآن.

لقد بدأ التقدم التقاني الأوروبي في تاريخ مبكر جداً، ودعمه جزئياً النقل عن الثقافات الأخرى (مثل إدخال صناعة الورق وزراعة العديد من محاصيل الشرق الأوسط وجلب صناعة اللجام وحدوات الخيول من وسط آسيا) وكانت الصين هي المصدر الرئيسي للكثير من هذه المنقولات[8]. ولكن هذا التقدم كان بالأساس نتيجة للعبقرية المحلية. وقد لخص لين وايت - وهو أحد الخبراء في هذا المجال - الوضع كما يلي: «منذ القرن السادس تقريباً، بدأت أوروبا تُظهر إبداعاً في مجال التقانة يفوق في أهميته ذلك الذي حدث في الامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية الأكثر تطوراً في ذلك الوقت. ومع منتصف القرن الرابع عشر، بعد أن زاد اختراع ساعة الحائط الآلية من عدد الحرفيين المهرة في صناعة الآلات المعدنية، تفوقت أوروبا على الصين وتصدرت الزعامة العالمية في مجال التقانة»[9].

وفي مجال الزراعة، يشير وايت إلى ابتكارات مثل المحراث كثير العجلات ولجام الخيول[10] وحدواتها، وشيوع استخدام المنجل وتطوير المسلفة، وما تبع ذلك من تطوير نظام المحاصيل الثلاثة وجلب الكثير من المحاصيل الاستوائية أو محاصيل

(٨) وكما ذكرنا جوزيف نيدهام في كتابه:

Joseph Needham, *Science and Civilization in China* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1954-).

ذكرنا بأن إسهام الصين في مجال العلم والتكنولوجيا كان عظيماً.

(٩) «The Expansion of Technology,» in: Carlo M. Cipolla, ed., *The Fontana Economic History of Europe* (London: Fontana, 1972), vol.1, p.144.

وانظر أيضاً:

Lynn Townsend White, *Medieval Technology and Social Change* (Oxford: Clarendon Press, 1962); Charles Singer, ed., *A History of Technology* (Oxford: Clarendon Press, 1956-1957), vols.2 and 3; Maurice Daumas, ed., *Histoire générale des techniques*, publiée sous la direction de Maurice Daumas (Pàris: Presses universitaires de France, 1962; 1965), vols. 1 and 2, and Moissey Postan and E.E. Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1952), vols. 1-4.

(١٠) Lefebvre des Noëttes, *La Force motrice animale à travers les âges* (Paris: [s.n.], 1924).

الشرق الأقصى إلى أوروبا المطلة على البحر المتوسط ـ وهي المحاصيل التي تم نقلها قبل ذلك إلى الشرق الأوسط وشمال افريقيا مثل التوت والسكّر والأرزّ والقمح والقطن والعديد من الخضار[١١].

ويمكن إعطاء صورة عن التقدم الزراعي بما حدث من ارتفاع معدل المحصول إلى البذور في ما يتعلق بأربعة من أهم محاصيل الحبوب هي القمح، والجاودار والشعير والشوفان، فكان متوسطها في إنكلترا بين عامي ١٢٠٠ و ١٢٤٩ حوالى ٣,٧، ولكنها ارتفعت مع مطلع القرن الرابع عشر إلى ٤,٧، ومع بداية القرن السادس عشر بلغت ٧. أما فرنسا، فكان المتوسط فيها ٣ بين عامي ١٢٠٠ و ١٢٤٩، و ٤,٣ في القرن الرابع عشر، وما يزيد على ٦ مع مطلع القرن السادس عشر[١٢]. وبالمقارنة ببعض أرقام الشرق الأوسط، تكون هذه الأرقام منخفضة، فكان القمح في مصر، مثلاً، قد وصل إلى ١٥ عام ١٨٠٠ تقريباً، و ٥ ـ ٦ في الأناضول في منتصف القرن التاسع عشر، وهو الوقت الذي تزايد فيه أيضاً المحصولان الفرنسي والانكليزي[١٣]. ولكن مرة أخرى، نشير إلى أهمية الاتجاه الذي سار فيه التغيير، وليس ثمة سبب للاعتقاد بأن درجة التقدم التي تحققت في أوروبا كان لها ما يناظرها في الشرق الأوسط. ويتضح في هذا المجال التناقض الشديد بين ردود الأفعال المختلفة التي اتخذتها كل من أوروبا والشرق الأوسط إزاء النقص الحاد في عدد سكان الريف الذي نتج عن وباء الطاعون. ففي الشرق الأوسط، يبدو أن ذلك لم يساعد على التطور طويل الأمد للتقانة الزراعية كما حدث في أوروبا[١٤]. وتشير المعلومات التي جمعها أندرو واتسون إلى أن الزراعة في المجتمع الاسلامي قد شهدت انخفاضاً في مساحتها وكفاءتها، وذلك بعد أن وصلت إلى أوج تقدمها في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر[١٥].

أما بالنسبة إلى الحِرف، فقد كانت طواحين المياه أكثر انتشاراً في أوروبا منها في غيرها من الحضارات «فمع مطلع عام ١٠٨٦ سجل كتاب وليام الفاتح أن كل قرية من القرى

---

(١١) Andrew M. Watson, «The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion, 700-1100,» *Journal of Economic History*, vol. 34, no.1 (March 1974), pp. 8-35.
وكتاب وشيك الصدور للكاتب نفسه. وقد أشار واتسون إلى أن الأوروبيّين كانوا أكثر بطئاً في إدخال الكثير من هذه المحاصيل.

(١٢) B.H. Slicher van Bath, *Yield Ratios, 1810-1820* (Wageningen: [n.pb.], 1963), p.16 ff.

(١٣) Charles Philip Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966), p.377, and Charles Philip Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914,* Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.13 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1980), pp. 214-215.

(١٤) Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, ©1977), p.271.

(١٥) Watson, «The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion, 700-1100».

الانكليزية التي بلغ عددها ٣ آلاف (والتي كان عدد سكانها حوالى ١,١٠٠,٠٠٠) قد احتوت على طاحونتين تقريباً»[١٦]، وفي القرون الثلاثة التالية، استخدمت طواحين المياه استخدامات متعددة على نحو لم يسبق له مثيل، فقد استخدمت في صناعة النسيج والصناعات المعدنية والخشبية وغيرها، كما شجع وجودها استحداث، أو نقل، العديد من المخترعات مثل الحدبة والكَرْنك. أما طواحين الهواء، فمن المؤكد أنها أخذت عن الشرق الأوسط، فهي مذكورة في الحوار الشهير بين عمر بن الخطاب وأبي لؤلؤة في عام ٦٤٤ م[١٧]، وإن كان قد طرأ عليها تطوير كبير وانتشرت على نطاق واسع في كل أوروبا الغربية. ويمكن تقييم الفرق الذي أحدثه الاستخدام الواسع النطاق لطاقة المياه والرياح من خلال الحقيقة التالية: في حين أن معدل العمل للإنسان يبلغ حوالى ٠,١ حصان، وتبلغ بالنسبة إلى الثور ٠,٦٦ والجمل ٠,٢، فإنها بالنسبة إلى طاحونة المياه المتحركة تتراوح قوتها ما بين ٢ ـ ٥، بينما تبلغ قوة طاحونة الهواء الثابتة ٢ ـ ٨ أحصنة[١٨]، وربما يكون الأمر الأكثر أهمية هو دخول الآلات إلى كل القرى تقريباً ومعرفة كل الأهالي بكيفية عملها واستخداماتها.

ويركز وايت أيضاً على الابتكار في مجال بناء السفن والملاحة وصناعة السلاح، رغم أنه لا يبدو أن السفن الأوروبية كانت قد تفوقت على السفن الشراعية الصينية حتى القرن الخامس عشر. ونظراً إلى الاستعانة المكثفة بالخبراء الأوروبيين، استطاع العثمانيون الاحتفاظ بمستوى تسلح يقترب من مستوى التسلح الأوروبي طوال القرن السادس عشر.

غير أن هناك ثلاثة اختراعات تستحق مزيداً من الاهتمام ألا وهي ساعات

(١٦) White, *Medieval Technology and Social Change,* p.155.

(١٧) M. J. de Goeje [et al.], eds., *Al-Tabarî Ta'rikh* (Leiden: [n.pb.], 1879-1901), vol.1, pp.2 and 722.

(١٨) Alfred René Ubbelohde, *Man and Energy,* Pelican Books; A 600 (Baltimore, Mad.: Penguin Books, 1963), pp. 50-51.

كانت طواحين الهواء البرجية التي حلت في أوروبا محل طواحين الهواء الثابتة أكثر قوة. ويعرض متحف ادينبرج عجلة مائية عملاقة صنعت عام ١٨٢٦ وكانت تستخدم حتى عام ١٩٦٥ لطحن الشعير، وغزل القطن وتفكيك الأنسجة لصناعة الورق. وكانت طاقتها تبلغ حوالى ١٥٠حصاناً. ومن ناحية أخرى، يبدو أن طواحين الهواء كانت قد اختفت من الشرق الأوسط في تاريخ مبكر، فقد أشار الجبرتي إلى تلك الطواحين التي جاء بها الفرنسيون إلى القاهرة في عام ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ باعتبارها ظاهرة غير مألوفة. انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار (بيروت: [د.ن.]، ١٩٧٨)، مج ٢، ص ٢٣١. وقد أقام الأوروبيون في تاريخ يسبق هذا التاريخ سبع طواحين أو ثمانياً في الاسكندرية كما جاء في مقال جيرارد (P.S. Girard)، الذي أشار إلية شارل عيساوي في كتابه:

Issawi, *The Economic History of the Middle East, 1800-1914,* p.377.

كما أشار الجبرتي إلى عربات اليد على أنها أيضاً لم تكن ظاهرة مألوفة. انظر: الجبرتي، المصدر نفسه، مج ٢، ص ٢٣٢.

الحائط، والنظارات، والطباعة. فقد كان تأثير الساعة في عادات الإنسان في عمله وأنماط تفكيره مذهلاً. إنما إضافة إلى ذلك كانت ساعات الحائط من أولى الآلات المعقدة التي تم استحداثها. وكان شيبولا محقاً حينما اعتبر وصول ساعات الحائط من إيطاليا إلى الشرق الأوسط عام ١٣٣٨ بمثابة بداية تصدير الميكنة الأوروبية عبر البحار[19]. كما شكلت النظارات خطوة مهمة إلى الأمام إذ إنها أطالت من الحياة العملية للإنسان على نحو ملحوظ، وقد تم أيضاً تصديرها سريعاً إلى الشرق الأوسط. أما بالنسبة إلى الطباعة، فقد طُبعت الآلاف من الكتب في الصين واليابان في زمن مبكر بالطبع، غير أن أوروبا استطاعت أن تقفز قفزة كبيرة إلى الأمام في هذا المجال فمع بداية عام ١٥٠٠ تقريباً، كانت اثنتا عشرة دولة قد عرفت الطباعة وتمّ طبع ٤٠ ألف نسخة من الكتب[20] وكمثال آخر، «بيعت ٧٥٠ ألف نسخة على الأقل من كتب ايرازموس أثناء حياته (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦)، ولا يدخل في ذلك ترجمته الإنجيل»[21].

ولم يكن ذلك كله يعني أن التقانة الأوروبية فاقت تقانة الشرق الأوسط في كل الفروع، فقد ظل العكس صحيحاً لقرون عدة في ما يتعلق ببعض الفروع الأخرى (مثل الخزف والفخّار وبعض أنواع النسيج). وقد أثبت مهندسو الشرق الأوسط مهارة عالية وقدرة على الابتكار في بعض فروع الهيدروليكا[22]. وفي المقابل، هناك ما يدل على أن تدهوراً واضحاً قد حدث في مجالات أخرى في أواخر العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث. ويلحظ أشتور ارتباطاً مباشراً بين التقدم التقاني الأوروبي وجمود الشرق الأوسط. ويرجع هذا الجمود إلى استبدال المشروعات الحرة تحت الحكم العباسي والحكم الفاطمي بأشكال مختلفة من السيطرة والاحتكار والابتزاز تحت حكم المماليك. ونتيجة لذلك «لم يعد معظم صناعات الشرق الأدنى في القرن الرابع عشر قادراً على المنافسة مع السلع الغربية المصنعة التي استوردها التجار الإيطاليون وغيرهم»[23]، وهو الأمر الذي أدّى إلى مزيد من تدهورها[24].

---

(١٩) انظر: «Preface,» in: Carlo M. Cipolla, *Clocks and Culture* (New York: Walker, c1967).

(٢٠) Hermann Kellenbenz, «Technology in the Age of the Scientific Revolution,» in: Cipolla, ed., *The Fontana Economic History of Europe,* vol.2, p.180.

(٢١) György Faludy, *Erasmus of Rotterdam* (London: Eyre and Spottiswoode, 1970), p.257.

(٢٢) من أجل الحصول على دراسة جديدة وحديثة، انظر:

Donald Routledge Hill, *The Book of Knowledge of Ingenious Mechanical Devices,* by Ibn al-Razzāz al-Jazari (Dordrecht:[n.pb.], 1974).

(٢٣) Eliyahu Ashtor, «L'Apogée du commerce vénitien,» in: Hans - Georg Beck, Manoussos Manoussacas and Agostino Pertusi, eds., *Venezia Centro di Mediazione tra Oriente e Occidente, Secoli xv-xvi* (Florence: L. Olshki, 1977), vol.1, pp. 318-321.

(٢٤) في هذه النقطة، قد يكون من المفيد أن نفكر في ما إذا كان التقدم التقاني لكل من الشرق الأوسط =

ولم يصحب التقدم التقاني المستمر حتى في ظل ظلام القرن الرابع عشر تقدمٌ علمي مماثل. ولم تكن أوروبا قد سبقت المسلمين في الرياضيات وعلوم الفلك وغيرها في أواخر العصور الوسطى، غير أن أمراً جديداً قد حدث مع بداية القرن الخامس عشر تمثّل في ظهور هنري الملّاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) وليوناردو دا فنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩). ولم يكن بالطبع المعهد الذي أنشأه هنري الملاح في ساغرس الأول من نوعه فقد سبقه متحف الاسكندرية ودار الحكمة في بغداد. غير أن الجديد في تلك المنشآت كان العزم على تحقيق هدف أكثر عملية وهو الاكتشافات البحرية. ومن أجل هذا الغرض مرّ هنري على معظم فروع العلم المتصلة بهذا الأمر (مثل الجغرافيا والفلك وبناء السفن والملاحة). ورغم ميله الديني ـ وربما الصليبي العميق ـ انكبّ على كل العقائد والثقافات طالباً المساعدة من العلماء المسلمين واليهود. أما عن ليوناردو دا فنشي، فما ينبغي للمرء إلا أن يدرس مخطوطاته ومذكراته عن الميكنة الخاصة بالعمليات العسكرية والانتاجية على حد سواء وعن الهيدورليات والتشكيلات الجيولوجية والتشريح وعالم الحيوان والنبات، وذلك من أجل أن يدرك ظهور روح علمية جديدة تستخدم الملاحظة إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وكالعادة فقد كان سيغموند فرويد محقاً حين قال عنه «أنه مثل رجل استيقظ مبكراً للغاية في الظلام بينما ظل الآخرون نياماً»[(٢٥)] كلا، ففي الواقع، لقد بزغ فجر عصر جديد. وكانت مثل تلك الحقائق هي السبب في جعل مقارنة هودجسن بين عصر النهضة وبين الصين في عهد سونغ، وبغداد في عهد الخلفاء مقارنة غير ذات معنى. فمن غير المجدي أن يدّعي المرء أن الاكويني كان مفكراً أكثر ذكاء من ابن رشد أو أن القديس فرنسيس كان أكثر تعمّقاً في التصوف من ابن العربي، أو أن الكوميديا الالهية كانت أعظم من

= وأوروبا مرتبطاً على أي نحو بتوجهات سكانها، فقد يكون عامل السكان هو الحافز الذي دفع إلى حدوث الثورة الزراعية العربية في الفترة من القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر، كما أنه من المؤكد أن هذه الثورة قد مكنت من حدوث نمو ملحوظ في عدد السكان. وكذلك كانت الحال عند بداية النهضة الأوروبية. وقد أدى الطاعون الأسود إلى تخفيض عدد سكان المنطقتين بدرجة كبيرة، غير أن التحسن قد طرأ على أوروبا في مرحلة مبكرة عنه في الامبراطورية العثمانية. أما بالنسبة إلى البلدان العربية فلم تظهر أي بوادر لحدوث ارتفاع طويل الأمد وذلك حتى القرن التاسع عشر. من الممكن إذن أن يعزى الإبداع التقاني الأوروبي الأكبر على نحو ما إلى الضغط السكاني. انظر:

Charles Philip Issawi, «The Area and Population of the Arab Empire: An Essay in Speculation,» in: Abraham L. Udovitch, ed., *The Islamic Middle East, 700-1900· Studies in Economic and Social History* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1981).

(٢٥) جاء ذلك في استشهاد قدمه:

Ladislao Retti, *The Unknown Leonardo* (New York: [n.pb.], 1974), p.6

ويعتمد هذا الكتاب على مذكرتين تم العثور عليهما في مدريد عام ١٩٦٥ وهو يعطي فكرة عن عمق فكر ليوناردو ورحابته

الشاهنامة، أو أن بوتيتشيللي كان أدق في رسمه من بهزاد، أو أن كنيسة القديس بطرس كانت أكثر رفعة وسمواً من مسجد السليمانية، كما أنه من غير المجدي بالمثل أن نبحث عن نظراء لهنري وليوناردو خارج أوروبا. وإذا كان هناك حاجة إلى المزيد من المقارنة، يمكن للمرء أن يتذكر تحريم بايزيد الثاني للطباعة بالعربية والتركية في عام ١٩٨٥[٢٦]، واستحالة إقامة مطبعة تركية في اسطنبول حتى عام ١٧٢٧، من ناحية، وتدفّق الكتب العربية من المطابع الإيطالية من ناحية أخرى.

ثانياً: السبق الأوروبي في مجال الاقتصاد

كان لأوروبا السبق المبكر في مجال الاقتصاد، مثله مثل التقانة والعلوم. وينبغي أن نميز بين ثلاثة أبعاد: الفكر الاقتصادي، والممارسة الاقتصادية، والسياسة الاقتصادية. ففي الفكر الاقتصادي ـ مثله مثل كل العلوم الاجتماعية ـ تفوّق ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) على كل معاصريه الأوروبيين والمسلمين على حد سواء، وكانت له نظريات واضحة ومتماسكة عن القيمة والأسعار والانتاج، وأفكار ممتازة في قضايا متعددة مثل قضية دور الذهب والفضة في التجارة الدولية، ووظيفة الانفاق الحكومي... الخ[٢٧]. وقد استغرق الاقتصاديون الأوروبيون عدداً من القرون ليلحقوا بأفكاره في الكثير من المجالات المهمة، وقد أثبت تلميذه المقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) فهماً عميقاً للظواهر الاقتصادية وقدّم تحليلاً جيداً لتخفيض قيمة العملة والتضخم اللذين كانت تعانيهما مصر، وذلك في كتابه **إغاثة الأمة بكشف الغمّة**[٢٨]. وقد اهتم ابن تغري بردي تلميذ المقريزي بدراسة الأسعار وغيرها من القضايا الاقتصادية الأخرى.

ولم تشهد أوروبا في العصور الوسطى نظيراً لابن خلدون، وإن كان نيكولا أوريزم قد كشف عام (١٣٦٠) في كتابه *Traictie de la Première Invention des Monnaies* عن فهم واضح لقانون غريشام ولخطورة خفض قيمة العملة. كما أشار كوبرنيكس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) إلى النظرية الكمية للنقود. وفي عام ١٥٦٩ عبّر عنها

---

(٢٦) سمح في ذلك الوقت بطباعة الكتب بالعبرية، واليونانية، واللغات الغربية وتم نشر الكثير منها.

(٢٧) انظر:

M.A. Nashaat, «Ibn Khaldun: Pioneer Economist,» *L'Egypte contemporaine,* vol. 38 (1944).

وانظر أيضاً المقدمة والفصلين الثالث والرابع في:

Charles Philip Issawi, ed., *An Arab Philosophy of History* (London: John Murray, 1950), and Jean David Boulakia, «Ibn khaldun: A Fourteenth Century Economist,» *Journal of Political Economy,* vol 79, no.5 (September - October 1971).

(٢٨) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة (القاهرة: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال، ١٩٤٠).

جان بودان بوضوح شديد وقدّم تحليلاً جيداً لأسباب الارتفاع الشديد في الأسعار[29].

وسرعان ما تلاشىء الاهتمام بالقضايا الاقتصادية في الشرق الأوسط بعد المقريزي. ويمكن إدراك ذلك بوضوح من خلال كتابات اثنين من أكبر مؤرخي العصر العثماني: نعيمة (١٦٦٥ - ١٧١٥) في اسطنبول، والجبرتي (١٧٥٣ - ١٨٢٥) في القاهرة. وقد قرأ نعيمة ما كتبه ابن خلدون وقال عنه: «ان الكاتب، وهو شخص عظيم، قد تخطى كل المؤرخين وقدّم كل ما تعلّمه من خلال مقدمته»[30]. ولكن كان الشغف بالقضايا الاقتصادية من بين الأمور الكثيرة التي لم يتعلمها نعيمة من ابن خلدون، وقد كشفت الترجمة الانكليزية لدراسته في وصف الفترة من عام ١٠٠٠ إلى ١٠٢٦ هجرية (١٥٩١ - ١٦١٧ ميلادية) والتي تقع في ٤٦٧ صفحة عن نموذج واحد فقط: تصحيح محمد باشا لمظالم الضرائب التي كانت تعانيها مصر ومحاولته تقنين عملية صك العملة (١٦٠٧ م)[31]. وقد كان الجبرتي أكثر أهمية في ما يتعلق بموضوع هذا المقال من نعيمة. ويمكن للمرء أن يجازف بالادعاء بأن الجبرتي كان مؤرخاً متواضعاً باستثناء تأريخه للغزو الفرنسي لمصر في عام ١٧٩٨، وهو الذي قلب حياته رأساً على عقب. فقد كان وصفه للفترة من ١١٧١ - ١١٨٧ هـ (١٧٥٧ - ١٧٧٣ م) التي تسجل ارتفاع نجم علي بك الكبير وأفوله[32] خالياً من أي معلومات اجتماعية أو اقتصادية: خمس حالات مصادرة، حالة فرض ضريبة جديدة، إلغاء العملة التي أصدرها علي بك الكبير، وإحصاء المواشي التي كان يملكها أحد كبار العلماء[33]. غير أن الاضطراب الذي أوجده الغزو الفرنسي قد عمل على زيادة إدراكه، فاحتوى وصفه لعام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ - ١٧٩٩ م) الكثير من الملاحظات المهمة، على سبيل المثال: الأسعار السخية التي كان يقدمها الفرنسيون مقابل المواد الغذائية، وعادتهم الغريبة المتمثلة في دفع مبالغ لأصحاب الإبل والحمير وسائقيها مقابل خدمتهم، وأيضاً عادتهم المتمثلة في دفع رواتب للعمال بدلاً من مجرد إجبارهم على العمل[34]. كما قدّم وصفاً مفصلاً لنوع الضرائب المفروضة ومعدلاتها والصعوبات التي واجهها أصحاب الأراضي في الحصول على صكوك ملكية وفقاً لأوامر السلطات وخفض أسعار

---

(٢٩) انظر الاقتباسات المطولة من:

Oresme and Bodin in: A.E. Monroe, *Early Economic Thought* (London: [n.pb], 1924).

(٣٠) Lewis Victor Thomas, *A Study of Naima*, edited by Norman Itzkowitz, Studies on Near Eastern Civilization; no.4 (New York: New York University Press, 1972), p.112

(٣١) Mustafa Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era*, translated by Charles Fraser (London: John Murray, 1832-), vol.1, pp 371 and 377.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٧ - ٤٤٠.

(٣٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٦، ٣٢٠، ٣٦٣ - ٣٦٤، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٩٩ و٤١٦.

(٣٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٩ - ٢٨٧.

المأكولات بمرسوم أو قرار، وأثر الحصار البريطاني في السوق المحلي. . . الخ[٣٥]. وحين أتى على عهد محمد علي، كانت كراهيته الشديدة لسياسات الباشوات التي كانت ذات آثار عكسية في طبقة العلماء التي كان ينتمي إليها، هي ما جعله يؤرخ بالتفصيل للعديد من الإجراءات المهمة (مثل إلغاء ضريبة الالتزام ومصادرة الهبات)[٣٦]. غير أن كتاب الجبرتي قد ظل محظور التداول حتى عام ١٨٧٠، وظل نقص الاهتمام بالقضايا الاقتصادية مستمراً حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر[٣٧].

وإذا كان لي أن استطرد، فيمكن القول ان نعيمة والجبرتي قد مثّلا نقصاً ضخماً في البناء الفكري للشرق الأوسط:

«لقد أصبح العثمانيون كزعماء للعالم الاسلامي والحضارة الاسلامية منكفئين على الذات إلى درجة كبيرة (وعلى ثقة كبيرة أنهم يجسدون الحق والخير) إلى الحد الذي فشلوا معه في تقديم الحد الأدنى الذي لا غنى عنه من الاهتمام بعالم «الكفّار». ومن الواضح أن نعيمة كان لا يعلم شيئاً عن أوروبا المعاصرة ويعلم القليل جداً عن أوروبا في الماضي. لقد كان ليبرالياً بالمفهوم العثماني ومتفتحاً وشغوفاً بالبحث في إطار الحضارة العثمانية الاسلامية، إلا أنه لم يجد غضاضه في المقارنة بين أوروبا القرن الثامن عشر (أوروبا في عهد الأمير أوجين ومارلبورو ولويس الرابع عشر) وأوروبا في عهد الحزوب الصليبية. فكل من هذه العصور شهد العديد من الشخصيات مثل «نمجي» الجرمان وكان لهم امبراطورهم. وكان نعيمة، بالتأكيد على درجة عالية من الدراية والعلم بمفهوم عالمه، غير أنه من المؤكد أيضاً أن التعليم لم يؤهله للدفاع عن عالمه ضد التحديات الجديدة التي كانت أوروبا الحديثة تضغط بها على عالمه بالفعل»[٣٨].

إلا أن المسألة لم تكن مجرد أوجين ومارلبورو؛ إذ كان نعيمة معاصراً لكل من نيوتن وليبنتز، ولكنه استنتج بعد أن أعد قائمة بأسماء عدد من الباحثين العثمانيين غير الأكفاء، من أولئك الذين درسوا العلوم الدينية والآداب:

---

(٣٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٣، ١٩٦ ـ ١٩٧، ٢٠٩ ـ ٢١٠، ٢١٦ ـ ٢١٨، ٢٣١ ـ ٢٣٢، ٢٤٦ و ٢٤٩.

(٣٦) انظر ترجمة بعض الفقرات المتصلة بذلك الموضوع، في:

Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800 -1914,* pp. 380-383.

(٣٧) في ما يتعلق بالأتراك، انظر:

Serif Mardin, *The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas,* Princeton Oriental Studies; v.21 (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1962).

في ما يتعلق بالعرب، انظر: رئيف الخوري، الفكر العربي الحديث: أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي (بيروت: دار المكشوف، ١٩٤٣). وانظر أيضاً:

Bernard Lewis and P.M. Holt, eds., *Historians of the Middle East,* Historical Writing on the People of Asia (London; New York: Oxford University Press, 1962).

(٣٨) Thomas, *A Study of Naima,* pp. 82-93.

«في هذا ما يكفي لإثارة حقد المسيحين».
«إذا لم يَرُقْكَ هذا، فأعرض عنه ولا تحفل به»[٣٩].

وقد جاء الجبرتي بالمثل معبّراً عن عدم اكتراثه بالثقافة الغربية حتى حين طرقت أبوابه بواسطة جيش نابليون، فقد دعاه المعهد المصري وبعض العلماء الآخرين لحضور بعض التجارب الكيميائية. غير أن هذا قد أثار مزيجاً من الحيرة والانبهار مثله مثل المحاولات الهادفة إلى التأثير على المصريين عن طريق إطلاق المناطيد[٤٠]. وقد شكّل كل ذلك تناقضاً مذهلاً مع اليابان حيث تزايد الاهتمام بالتعليم الغربي في القرن الثامن عشر، حتى أصبح لدى عدد غير قليل من الباحثين فهم واضح لنظام كوبرنيكس وللدورة الدموية[٤١].

وبالعودة إلى النقطة موضع البحث، كان الاهتمام بالاقتصاد يسير جنباً إلى جنب مع الاهتمام بالأرقام[٤٢]. وهنا أيضاً تخطت أوروبا الشرق الأوسط بسرعة كبيرة. وعلى الرغم من أن مصر، على سبيل المثال، كانت تخضع للمسح الدوري لأغراض مساحية، لم يتبّق أي شيء على درجة التفصيل التي جاء بها كتاب دومسداي (١٠٨٦ م)، وذلك حتى ظهور الدفاتر العثمانية في القرن الخامس عشر[٤٣]. وقد قدّم الاسلام في العصور الوسطى مساهمات قيّمة في مجال الرياضيات، غير أن علم

---

(٣٩) Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era*, p.98.

(٤٠) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مج ٢، ص ٢٣٠ - ٢٤٤.

(٤١) Donald Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1969), passim.

(٤٢) وقد أدرك السير وليام بيتي (Sir William Petty) هذه العلاقة بوضوح، وهو الذي أطلق عليه ماركس «مؤسس الاقتصاد السياسي». ففي كتابه *Political Arithmetic* الذي كتبه عام ١٦٧٢ تقريباً يقول: «بدلاً من استخدام صيغ التفضيل والمقارنة وأحجيات المثقفين فقد أخذت على نفسي أن أعبر عن أفكاري على أساس الأعداد والأوزان والمقاييس». نقل ذلك عنه:

Eric Roll, *A History of Economic Thought* (London: Faber and Faber, 1961), p.100.

(٤٣) بالطبع هذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه، فالقول بأنه لم تبق أية وثائق لا يعني أنها لم توجد أصلاً. غير أنه في مجتمع كان قد تمتع بتلك الغزارة في الإنتاج الأدبي وحظي بذلك العديد من علماء التاريخ الذين اتسموا بالدأب والصلة الوثيقة بالدوائر الموسمية، من الصعب الاعتقاد بأنه كانت معلومات ذات قيمة في ما يتعلق بالسكان أو الإنتاج أو التجارة الخارجية، وانها لم تحظ باهتمام الباحثين أمثال ابن خلدون والمقريزي والقلقشندي. أما في ما يتعلق بالمسائل التي كانت تلقى اهتمام حكومات الشرق الأوسط في العصور الوسطى وهي الضرائب والجيش، فإنه توجد معلومات كثيرة وعدد لا بأس به من الأرقام. وقد أعطى حسنين ربيع فكرة واضحة عن مدى المعلومات الاقتصادية المتاحة وحدودها عن مصر، التي كانت أكثر بلدان الشرق الأوسط تقدماً وخضوعاً لحكومة قوية. انظر:

Hassanein Rabie, *The Financial System of Egypt, A.H. 564 - 741, A.D. 1169 - 1341*, Oriental Series; v.25 (London; New York: Oxford University Press, 1972), especially chap.1· «A Critical Survey of Sources».

الاحصاء لم يكن أفضل مـا تمّ تقديمـه. وقد يبحث المرء دون جدوى في أعـمال علماء التاريخ أو الإدارة العرب والعثمانيين لكي يجد مثيلاً لتلك البراعة الفكريـة التي تتضح عند جيوفاني فيلاني (١٢٧٦ ـ ١٣٤٨) في قوله:

«من خلال كمية الخبز المطلوبة بانتظام في فلورنسا، قدِّرت عدد الأفواه في المدينـة بـ ٩٠ ألف فم مقسمـة بين الـرجـال والنسـاء والأطفـال. وقـد اعتقـد البعض أنـه كـان في تلك الفـترة (١٣٣٦ ـ ١٣٣٨) نحـو ٨٠ ألف رجل في أراضي فلورنسا وأحيائهـا وعن طـريق القس الـذي يعمّـد أطفـال المدينة، والذي كان يودع حبة فول سوداء لكل ذكر يتم تعميده، في سان جيوفاني، وحبة فول بيضـاء لكل انثى، وذلك من أجل التأكد من عددهم، نجد أن عدد المعموديات التي أجـريت في تلك الفترة كان يتراوح بين ٥,٥٠٠ و ٦٠٠٠ سنوياً، وكان عدد الذكور عادة مايفوق عـدد الإناث بحـوالى ٣٠٠ إلى ٥٠٠. كما نجد أن عدد الأولاد والبنات الذين كانـوا يتعلمون القـراءة والكتابـة قد تـراوح بين ٨ آلاف و ١٠ آلاف، وأن عـدد الأطفال الـذين كانـوا يتعلمون العـد والحسابـات قد تـراوح بـين ألف و ١٢٠٠، وأن الـذين تعلمـوا النحـو والمنطق في أربـع مـدارس كـبرى تـراوح عـــددهم بـين ٥٥٠ و ٦٠٠».

وكان عدد ورش النسيج الصوفي قد وصل إلى ٢٠٠ أو ما يزيد، وكانت تصنـع حوالى ٧٠ إلى ٨٠ ألف قطعة قماش يصل ثمنها إلى ١٢,٠٠٠,٠٠٠ فلورين ذهبيـة. وقد بقي حوالى ثلث هذا المقدار داخـل الأراضي كمكافـأة للعمال، دون حسـاب ربح التـاجر، وقـد عاش أكـثر من ٣٠ ألف شخص عليها. ولـمزيد من التـأكد، نجـد أن حوالى ٣٠٠ ورشة أو ما يقرب من هذا الرقم كانت موجودة قبل ذلك بثلاثـين عامـاً، وهي التي كانت تصنع ١٠٠ ألف قطعة قماش سنوياً، غير أن هذه الأقمشة كانت أكثر رداءة وأقّـل جودة بمقـدار النصف، لأن الصـوف الإنكليـزي في ذلـك الـوقت لم يكن يستورد ولم يكن أهل المدينة يعرفون ـ كما عرفوا فيما بعد ـ كيف يستخدمونه[٤٤].

ويتطلب التوثيق السليم للاختلاف ما بين الممارسات الاقتصادية للشرق الأوسط وأوروبا كتابـة التاريـخ الاقتصادي الخـاص بالمنـطقتين وذلـك عبر عـدد من القرون. وينبغي هنـا فقط أن نشير إلى تنـاقضين: أولاً، التفـوق الكبير في أسـاليب المحـاسبـة الأوروبية التي تم اكتسابها بعد استخدام نظام القيد المزدوج لمسـك الدفـاتر في أواخـر القـرن الثالث عشر وأوائـل القرن الـرابـع عشر[٤٥] (وقـد يصـدق القـول نفسـه عـلى

(٤٤) انظر:

Robert Sabatino Lopez and Irving W. Raymond, *Medieval Trade in the Mediterranean World*, Records of Civilization, Sources and Studies, 52 (New York: Columbia University Press, 1955), pp. 71-74.

وقارن ذلك بعمل مشابه عن ميلانو في عام ١٢٨٨، ص ٦٢ ـ ٦٦. ووصف عربي لمدينة فاس في القرن الرابع عشر، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٩ ـ ٣٧٧.

التأمين)[٤٦]. ثانياً، قدرة الأوروبين على بناء هياكل اقتصادية أكبر وأكثر تعقيداً وديمومة. ويمكن أن نسوق هنا أمثلة كثيرة، ولكن يكفي الأمثلة الأربعة التالية: **أولاً**، لقد كانت الأصناف (نقابات التجار والصناع) الأوروبية وشرق الأوسطية التي قد تعبر أو لا تعبر عن العصر العثماني، تشترك في الكثير من الخصائص، ولكن امتازت الأوروبية عن مثيلاتها في الشرق الأوسط بأنها أكثر هيكلية وديمومة وأكثر استقلالية، بل أقوى من الناحية السياسية[٤٧]. **ثانياً**، لقد تفوقت أوروبا على الشرق الأوسط في المسائل البحرية، ويمكن المرء أن يشعر بالإعجاب إزاء تنظيم قوافل السفن التجارية التي كانت ترسلها البندقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى أجزاء مختلفة من البحر المتوسط، وهي التي فاقت في تألقها كل مثيلاتها في الشرق الأوسط. وقد كانت صناعة السفن والخرائط، إضافة إلى التقنيات الملاحية الأوروبية، أفضل من نظيرتها الشرق أوسطية[٤٨]. **ثالثاً**، يمكن المرء أن يقارن الهانز بمعاصريهم ونظرائهم من التجار الكارميين[٤٩] فقد عمل الكارميون في مساحة أكبر، ونظراً إلى ثروة إقليم المحيط الهندي وارتفاع أسعار التوابل وغيرها من المواد التي كانوا يعملون بالاتجار بها، فمن المرجح أن بعض التجار الكارميين يتاجرون بقيمة إجمالية تساوي، أو حتى تزيد على نظرائهم من الهانز. غير أن غياب السجلات وتناثر المعلومات المتاحة يؤكدان افتقار

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٥ - ٢٦٥.

(٤٧) بالنسبة إلى أوروبا، انظر: Postan and Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe*, vol.3, pp. 230-280.

بالنسبة إلى الشرق الأوسط، انظر:

«Sinf,» in: *Encyclopaedia of Islam;* Claude Cahen, «Y a-t-il des corporations professionelles dans le monde musulman classique?» in: Albert Habib Hourani and S.M. Stern, eds., *The Islamic City* (Oxford: Bruno Cassirer Publishers, 1970), pp. 51-64; Gabriel Baer: *Egyptian Guilds in Modern Times,* Oriental Notes and Studies; no.8 (Jerusalem: Israel Oriental Society, 1964); «Administrative, Economic and Social Functions of Turkish Guilds,» *International Journal of Middle East Studies,* vol.2, no.1 (January 1970), and«Guilds in Middle Eastern History,» in: M.A. Cook, ed., *Studies in Economic History of the Middle East: From the Rise of Islam to the Present Day* (London: Oxford University Press, 1970); Bernard Lewis, «The Islamic Guilds,» *Economic History Review* (1937), and Charles Philip Issawi, ed , *The Economic History of Iran, 1800-1914,* Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.8 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1971), pp. 284-292.

(٤٨) قارن:

Solomon Dob Fritz Goitein, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza* (Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1967), vol.1: *Economic Foundations,* pp. 301-353.

بما جاء في:

Fredric Chapin Lane, *Venice: A Maritime Republic* (Baltimore, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1973), pp. 118-134.

(٤٩) انظر المقال غير المنشور الذي كتبه أودوفيتش (A.L. Udovitch) والذي قدم إلى مؤتمر سبوليتو عام ١٩٧٧.

الكارميين إلى التنظيم والقوة، بل إلى الطموح الذي تميّز به الهانز، وفي فترات لاحقة ربما كانت البرجوازية في وضع أسوأ[٥٠]. وأخيراً، تباينت التنظيمات والأساليب المصرفية. ويؤكد العديد من الأعمال الحديثة أن الشرق الأوسط في العصور الوسطى كان يمتلك الأدوات القانونية اللازمة لعمليات الائتمان (المضاربة، القراض، المقارضة) والمشاركة (المفاوضة)، إضافة إلى امتلاكه أساليب تنظيمية من أجل الاضطلاع بالعمليات التجارية الكبرى الواسعة النطاق. وقد تواتر ظهور كلمات مثل «جهبذ» و«صرّاف» للدلالة على الشخص الذي يقوم بعملية الصرافة؛ وكلمة «سفتجة» و«صك» للدلالة على أذونات أو أوراق ملكية. وكانت النقود تستبدل وتحوّل، وكانت الشيكات تُسحب وتصرف، والأموال تودَع والقروض تقدَّم، كما كانت الفوائد تُفرَض عن طريق مختلف الحيل والوسائل. وكان الملوك والوزراء يقترضون من أصحاب البنوك ويخولونهم سلطة جمع الضرائب[٥١]. ولكن علينا مرة أخرى أن نشير، هنا، إلى

---

(٥٠) إن الدراسة الأكثر تفصيلاً هي دراسة أندريه ريموند:

André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au xviiie siècle*, 2 vols (Damas: Institute français de Damas, 1973).

وهي الدراسة التي تغطي فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر وهي تظهر بوضوح ركود، أو بالأحرى، تردي الصناعات الحرفية، وتشير إلى انخفاض دخول أصحاب الحرف ومكانتهم (ص ٢٠٦ - ٢٤٢) وكان التجار أكثر غنى، وكانوا مرتبطين عن طريق الزواج والمشاركة ليس فقط ببعضهم البعض (ص ٤١١ - ٤١٥) وإنما أيضاً بطبقة العلماء (ص ٤٢٣ - ٤٢٤) والانكشارية (ص ٥٧٨ - ٨٠٨). إلا أن هذا لم يؤدِّ إلى تقوية التجارة أو النهوض بالمصالح التجارية «اهتم سادة مصر بصفة عامة باستغلال الموارد على نحو يومي دون أي اكتراث بالفائدة التي يمكن أن تتحقق من خلال عملية التنمية». وقد بنى بعض باشوات القرن السادس عشر (ص ٧١٠) الأسواق، إلا أن هذا قد توقّف سريعاً، وقد منحت أوجاكيات الانكشارية للتجار بعض الحماية في الوقت الذي كانوا يستغلونهم على نحو واضح. ومع مقدم القرن الثامن عشر، انتقلت القوة إلى البكوات وهم الذين لم يكن ابتزازهم مصحوباً بأية حماية أو منافع أخرى (ص ٧٨٣ - ٧٨٥). ولدراسة تفسير آخر، انظر:

Afaf Lutfi al-Sayyid-Marsot, «The Political and Economic Functions of the Ulamā in the 18th Century,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 26 (19-), pp. 2-3, and Peter Gran, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840*, foreword by Afaf Lutfi al Sayyid-Marsot, Modern Middle East Series; no.4 (Austin, Texas: University of Texas Press, ᶜ1979).

لقد تأثرت بهذه الاحجيات ولكن لم أقتنع بها.

(٥١) Goitein, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, pp. 229-266; Abraham L. Udovitch, *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton Studies on the Near East (Princeton,N.J.: Princeton University Press, 1970), pp. 77-82 and passim; Eliyahu Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (Berkeley, Calif.: University of California Press; London: Collins, 1976), pp. 144-147;

عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨)، ص ١٥٨ - ١٧٩، و

Subhi Y. Labib, «Geld und Kredit,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol.2 (1959).

ومن أجل الاطلاع على دراسة أحدث تغطي العالم الاسلامي، انظر:

The Dawn of Modern Banking (New Haven, Conn.: [n.pb.], 1979).

أن حجم الأعمال وتنظيمها ونطاقها التي قامت بها تلك الشركات المصرفية الفلورنسية مثل باردي وبيروزي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ومدتشي وبازي في القرن الخامس عشر، قد فاقت بكثير أي أمر آخر يماثلها في الشرق الأوسط حتى القرن التاسع عشر. ويمكن أيضاً أن نذكر مصارف أخرى نشأت في جنوى وبروسه وغيرهما(٥٢).

وأخيراً، هناك قضية السياسة الاقتصادية، ويمكن أن نقدم لها من خلال كلمات ديفيد ماكفرسون حين كتب في عام ١٨٠٥: «لم يكن من الممكن أن يصنع رجال الكنيسة أو العسكر قواعد تجارية حكيمة (وهم الذين شكلوا الطبقات الوحيدة التي كانت تمتلك السلطة أو النفوذ)، إذ أنهم احتقروا التجارة، وبالتالي لم يكن لديهم أي معرفة بها»(٥٣). وكان ماكفرسون يتحدث وفي ذهنه تجربة حكومات أوروبا العصور الوسطى، غير أن حكمه ربما يصدق، على نحو أكبر، على حكومات الشرق الأوسط. ففي تلك الحكومات تمثلت العناصر المسيطرة في البيروقراطيين والعسكر الذين اقتصر اهتمامهم على مسائل الضرائب والتموين. فكانت الضرائب تقدم الموارد اللازمة لتغطية نفقات البلاط والجيش والبيروقراطية. ومن غير المستغرب أن تكون الاحصاءات الوحيدة المتاحة بالعربية والتركية هي سجلات الجيش وعوائد الضرائب. ويتعلق التموين بالمدن التي يمثل سكانها مشكلة في حالة حدوث مجاعة. ومن ثم كان من الضروري اتخاذ إجراءات مدروسة من أجل ضمان وصول الإمداد اللازم من الحبوب والمستلزمات الأخرى إلى العاصمة والمدن الكبرى. وفي حالة ندرة السلع، كان عادة ما يتّم فرض التسعير(٥٤). وبالطبع لقد أدرك الحكام أنه ينبغي وجود حد أدنى من النظام والعدل لكي ينتج الفلاح الفائض الذي يعتمدون عليه، وأنه ينبغي الاستماع إلى النصح من وقت إلى آخر لتنفيذ ذلك. لكن هذا كان جل الاهتمام بالتنمية الاقتصادية. ويمكن تقديم المزيد من التوضيح من خلال الدراسة الممتازة التي قدّمها برنارد لويس بعنوان «المراقبون العثمانيون للانحطاط العثماني»(٥٥). ففي منتصف القرن السادس عشر، أعاد الصدر

---

(٥٢) Postan and Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe,* vol. 33, pp. 75-97.

(٥٣) جاء ذلك في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٨١.

(٥٤) لمزيد من التفاصيل عن اسطنبول في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، انظر:
Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914,* pp. 24-33.
وهو الذي يتضمن ترجمة لمقال Lütfi Gucer عن إنتاج الحبوب. وانظر أيضاً المقال الوافي لـ :
W. Hahn, «Die Verpflegung Konstantinopels durch Staatliche Zwangswirtschaft,» *Beihefte zur Vierteljahrschrift für Sozial und Wirtschaftsgeschichte,* vol.7 (1926).

(٥٥) Bernard Lewis, *Islam in History: Ideas, Men and Events in the Middle East* (London: Alcove Press, 1973), pp. 199-213.
ويتضمن هذا المقال العديد من الإشارات إلى مصادر أوروبية وتركية على تثبيت الأسعار وقوانين الأسعار.

الأعظم لطفي باشا النظر في حال الامبراطورية في كتابه عسافنامه وقدّم بعض التوصيات. وقد اقتصرت ملاحظاته عن القضايا الاقتصادية على ما يلي:

«إن السيطرة على الأسعار مسؤولية عامة شديدة الأهمية، وينبغي على الصدر الأعظم أن يوليها رعاية خاصة. وليس من السليم أن يكون أحد كبار المسؤولين من تجار الأرزّ أو أن يكون منزل أحدهم متجراً للأدوية، فتثبيت الأسعار إنما هو في مصلحة الفقراء».

أما عن الضرائب فقال: «تنهض السلطنة على خزانتها وينهض عمل الخزانة على الإدارة الناجحة، وهي (السلطنة) تسقط بالظلم». وقد ذهب إلى القول إنه ينبغي أن ترد عوائد الضرائب إلى مندوبي الحكومة وليس إلى الملتزمين بجباية الضرائب، وأنه ينبغي أن يقوم رئيس الخزانة بتحديد حجم الضريبة. وأضاف الكاتب أنه ينبغي أن تكون الضرائب الاستثنائية المفروضة على الفلاحين غير باهظة ولا دائمة، كما ينبغي أن تُتخذ الخطوات اللازمة لمنع هجرة سكان الريف. وفي عام ١٦٣٠، كان كتاب كوتجو بك ثاقباً وبليغاً في عرض أمراض الامبراطورية، غير أنه في ما يتعلق بالقضايا الاقتصادية، فإنه استنكر فقط الاهمال والفساد الحكومي وارتفاع نسبة الضرائب إلى مستوى لا يمكن تحمُّله[٥٦]. وفي حوالي عام ١٦٥٣ عقد كاتب شلبي - وهو أحد مسؤولي وزارة المالية - بحثاً مفصلاً ووافياً يحتوي على سجلات الجيش وأرقام العوائد والنفقات. غير أنه، هو الآخر، لم يقدّم إلا توصيات تتعلق بالحد من الإنفاق الحكومي ومنع بيع المناصب. وقد سار العديد من مصلحي القرنين السابع عشر والثامن عشر على النهج نفسه. ويمكن أن نشير، مرة أخرى، إلى كلمات نعيمة الذي تضمنت توصياته:

ينبغي أن تبذل محاولة ذكية من أجل الموازنة بين الدخل والنفقات، وذلك عن طريق بعض وسائل تخفيض النفقات، إنما يجب عدم إثارة الناس عن طريق محو أسمائهم من جداول الرواتب، ولا ينبغي أن يعطى أي شخص الذريعة للشكوى بسبب نقص مكافأته أو انخفاض أجره. كما لا ينبغي أن يؤدي ذلك إلى الحاجة إلى فرض ضرائب طارئة أو جباية ضرائب إضافية (إذا كانت هذه الكلمات تشبه في صياغتها كلمات الحملات الانتخابية الأمريكية، فإن هذا من شأنه أن يثير شفقتنا على الورطة التي كان المسؤولون عن توازن الميزانية العثمانية يمرون بها. كذلك، ينبغي أن يتم استغلال الأقاليم النائية والدولة ككل وإدارتها حتى يشعر المزارعون بالأمن وتنعم أرض الإسلام بالرخاء، وتحصل الحكومة على العوائد كاملة، ويحصل الحكام والقادة

---

(٥٦) لم يكن كوتجو منصفاً إذ تم تثبيت الضرائب بالنسبة إلى الذهب وظلت ثابتة إلا أن الكمية التي كان يتم جبايتها بالفعل بالعملة الفضية، كانت قد ارتفعت بالنسبة إلى تخفيض قيمة العملة والهبوط النسبي لسعر الفضة.

على دخولهم، ومن ثم يتسنّى لهم القيام بواجبهم المحلي على أكمل وجه وبأعلى كفاءة[٥٧].

وقبل دراسة الأبعاد الأخرى للسياسة الاقتصادية العثمانية، ينبغي لنا عقد مقارنة مع أوروبا المعاصرة. وهنا أيضاً تلوح بشدة النزعة المالية والنزعة إلى التركيز على التموين، الأمر الذي يعبّر عنه كارلو شيبولا جيداً بقوله: «ان الاهتمام الأعظم للحكومات الحديثة في مجال السياسة الاقتصادية قد انصبّ في نصف القرن الأخير على «دورة الأعمال»، وكانت البطالة هي الشبح الأكثر خطورة، في حين كان الاهتمام الأعظم للحكومات طوال العصور الوسطى ينصبّ على «دورة المحاصيل»، وكانت المجاعة هي الشبح الأكثر خطورة»[٥٨].

غير أن هناك عاملاً إضافياً شديد الأهمية يرجع إلى تزايد القوة الاقتصادية والسياسية للتجار وأصحاب الحِرف، وهو ما يتمثل في الاهتمام الكبير بمصالح المنتجين على حساب المستهلكين في أغلب الأحيان. وقد كان أصحاب الحِرف والتجار في المدن المستقلة في كل من إيطاليا، وألمانيا وبلجيكا وهولندا هم القوة المهيمنة التي صاغت السياسة الاقتصادية لتتناسب مع مصالحها[٥٩] وكما قال شيبولا:

«في أغلب الحالات، كانت هناك جهود واعية للتصنيع. ففي بداية القرن الرابع عشر، ساد الاقتناع بأن الصناعة تجلب الرخاء، ويمكن قراءة بعض العبارات في قانون عام ١٣٣٦، التي تبدو أنها كتبت بواسطة أكثر دعاة التصنيع حداثة في القرن العشرين»[٦٠].

غير أنه حتى الممالك القومية مثل انكلترا وفرنسا قد أخذت في اعتبارها هي أيضاً الحاجات التجارية والصناعية. ومع مطلع القرن الرابع عشر، كانت انكلترا وفرنسا تنفّذان الاجراءات التي أُرسيت من أجل تأمين ميزان تجاري إيجابي عن طريق الحد من استيراد السلع المنافسة وتشجيع استيراد السلع التي تدخل في صناعة سلع أخرى يمكن أن تسدّ الحاجات المحلية أو التي يمكن تصديرها، وعن طريق التوسع في الصادرات، خاصة تلك التي تحتوي على مكونات ذات قيمة مضافة كبيرة مثل القماش بدلاً من الصوف الخام، وعن طريق تشجيع الانتاج المحلي بشكل عام[٦١]. ومع مطلع القرن

---

(٥٧) Thomas, *A Study of Naima*, p.88.

(٥٨) Postan and Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe*, vol.3, pp. 399-400.

(٥٩) قد يرجع هذا الاختلاف في التوجه إلى اختلاف الهيكل الاجتماعي. ففي أوروبا انهارت الدولة مع سقوط الامبراطورية الرومانية فتركت المجال مفتوحاً بذلك أمام نمو الدول والمدن ونقابات التجار والصناع وقوى الاقطاع واستقلال الكنيسة. أما في الشرق الأوسط فلم يحدث أن انهار الحكم فكان وجوده بمثابة عائق أمام ظهور مراكز أخرى للقوة.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤١٣، و٤٠٨ - ٤١٩.

(٦١) المصدر نفسه، مج ٣، ص ٢٨١ - ٣٦١.

السابع عشر، ظهرت النظرية المركنتيلية. وفي عام ١٦٦٠ كـان السير وليـام بيتي يعبّر عن اهتمام شديد بالانتاج والتشغيل باعتبارهما أساس الرخاء الـوطني(٦٢) وقد كـان لهذه الرؤى أثرها الواضح في سياسة الحكومة(٦٣).

ويمكن أن نلاحظ بعض التناقضات اللافتة للانتباه. فقد شاركت الامبراطـورية العثـمانية ـ مثلهـا في ذلك مثـل أوروبا، وإن بقـدر من البطء ـ في ثورة الأسعـار. وقد عـانت عملتها نتيجـة لذلـك. لكن، وفي الوقت الـذي سرعان مـا عادت فيـه معظم العمـلات الأوروبية الأسـاسية إلى استقـرارها ولم تمـرّ إلا بـالقليـل النـادر من أزمـات تخفيض القيمة في ما بعد، فإن العملة العثـمانية «الأقجـة» قد شهـدت تدهـوراً هائـلاً وغير منقطع تقريباً منذ القرن الخامس عشر، حتى قبل تدفّق الذهب الذهب الأمريكي بـوقت طويـل، وقد استمـر ذلـك حتى منتصف القـرن التـاسـع عشر(٦٤). ولم يتحقق الاستقـرار في أوروبا بـالمصادفـة، وإنما تحقق من خـلال الجهـود المضنيـة التي بـذلتهـا الحكومات، كـما يتضح ذلـك جلياً من تـاريخ حكم الملكـة اليزابيت. هـذا في الوقت الـذي استمـر تـدهـور العملة في تـركيـا (وإيـران)(٦٥). وينبغي أن نضيـف أن قـوة الامبراطورية العثمانية ومواردها كانت أكبر من أي دولة أوروبية أخرى حتى نهاية القرن السابع عشر (باستثناء إسبانيا وفـرنسا)، الأمـر الذي يعني أنها كـانت تمتلك الوسـائل اللازمة للنهوض بعملتها وإن لم يكن لديها الإرادة ولا المهارة.

ويمكننا أيضاً أن نقـارن بين التـوجهات نحـو التجارة، لقـد أدرك حكام الشرق الأوسط بـالطبـع أهمية التجـارة الخارجيـة حتى ولو كمصـدر للحصول عـلى الرسـوم الجمركية، واتخذوا بعض الإجراءات لتشجعيها مثل بنـاء الفنادق والحفـاظ على بعض الطرق الاستراتيجية وتقديم امتيازات إلى التجار الأوروبيّـين(٦٦). إنما في الـوقت الذي كان الأوروبيون يفكرون في التجارة كـوسيلة لزيـادة الثروة القـومية وتشجيـع التشغيل والحصول على الـذهب، واتخذوا مـا ارتأوه منـاسباً من إجـراءات لتحقيق ذلك، اهتم

---

(٦٢) Roll, *A History of Economic Thought*, pp. 61-111, and Joseph Schumpeter, *History of Economic Analysis* (New York: Oxford University Press, 1952), pp. 210-215.

(٦٣) Postan and Rich, eds., Ibid., vol.4, pp.566-575.

(٦٤) انظر الرسم البياني في: المصدر نفسه، ص ٤٥٨. وانظر أيضاً:

Omar Lutfi Barkan, «The Price Revolution of the Sixteenth Century: A Turning Point in the Economic History of the Near East,» *International Journal of Middle East Studies*, vol.6, no.1 (January (1975), and Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914*, chap.7.

(٦٥) Issawi, ed., *The Economic History of Iran, 1800-1914*, pp. 343-350.

(٦٦) Halil Inalcik: *The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300-1600*, translated by Norman Itzkowitz and Colin Imber (London: Weidenfeld, 1973), pp. 121-166, and «Capital Formation in the Ottoman Empire,» *Journal of Economic History* (1960), and Carl M. Kortepeter, «Ottoman Imperial Policy and the Economy of the Black Sea Region in the Sixteenth Century,» *Journal of the American Oriental Society*, vol.86, no.2 (April-June 1966).

العثمانيون بالعوائد والأرباح فقط، ففرضت الرسوم الباهظة على الصادرات والواردات على حد سواء، وتم تحريم تصدير سلع معينة. وعادة ما يعزى ذلك إلى نظام الامتيازات الأجنبية الذي كرّس هذا الوضع بلا شك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، رغم رغبة الأتراك في تغيير التعريفة(٦٧). ولكن السياسات الأصلية قد وضعت من جانب العثمانيين وهم في أوج مجدهم وبكامل إرادتهم الحرة، ومن الواضح أن هذه السياسات قد نظر إليها إما باعتبارها الفضلى لمصالح الامبراطورية أو ـ إذا لم يكن الأمر كذلك ـ باعتبار أن الآثار الاقتصادية الناجمة عنها ذات أهمية أقل نسبياً بالمقارنة بالمزايا السياسية التي كانوا يسعون إليها.

ولم تقع أيدينا بالفعل على أي مرجع يتحدث عن مفاهيم عامة مثل «الصادرات» و«الواردات» و«الميزان التجاري» سواء بالعربية أو التركية قبل القرن التاسع عشر. وقد سألت العديد من الباحثين الذين درسوا السجلات العثمانية، المركزية والإقليمية، عما إذا كانوا قد وجدوا أي استخدام لمثل هذه المفاهيم، ولم أتلقَّ حتى الآن أي رد بالإيجاب.

وأحد أبعاد هذه القضية يستحق الاهتمام: وهو الشحن التجاري. لقد كانت قوانين الملاحة الانكليزية لعام ١٦٥١ هي أشد المحاولات التي قامت بها الحكومات الأوروبية لحماية أساطيلها التجارية وتشجيعها(٦٨). أما العثمانيون، فإنهم على العكس من ذلك، فتحوا تجارتهم ـ بما فيها التجارة الساحلية ـ أمام السفن الأجنبية. وهنا أيضاً، أدى الضعف إلى استمرار السياسة، ولكنها سياسة نشأت في وقت القوة. وهنا، مرة أخرى، لا يمكن للمرء إلا أن يعتقد أن هناك عاملاً آخر قد أدى دوراً إضافة إلى ما سبق ذكره، فقد كانت معظم الملاحة العثمانية ـ مثلها مثل التجارة الخارجية عموماً ـ في يد اليونانيين وغيرهم من غير المسلمين، وهي الحقيقة التي كانت الحكومة العثمانية تعيها تماماً(٦٩). ولا بد أن هذا قد قلّل من رغبتها في تشجيع الملاحة والتجارة التي كانت تعود أرباحها بالأساس إلى مجتمعات مشكوك في ولائها. غير أن هذا الاعتبار لم يكن ليصبح ذا أهمية قبل النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهو لا يفسر الاهمال الذي دام لعدة قرون سابقة. وتجدر بنا الإشارة إلى ما قاله أحد أبرز علماء التاريخ في حكمه بهذا الصدد:

---

(٦٧) Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914,* chap. 3.

(٦٨) كانت قوانين الملاحة أيضا شائعة، وقد ظهرت في فترة مبكرة ترجع إلى القرن الرابع عشر. انظر مثلاً الأوامر التي أصدرها ملك برشلونة في ١٢٢٧ و ١٢٨٦. انظر:

Postan and Rich, eds., Ibid., vol. 3, p.415.

(٦٩) انظر مذكرة الباب العالي إلى الوزير البريطاني، عام ١٨٠٢ (PRO/FO 68/36).

«حتى في أوج عظمة الامبراطورية العثمانية، لم تحقق الأقاليم التركية أياً من الرخاء الغربي. فلم تبذل أية محاولات لاستثمار الموارد البشرية والطبيعية، وأرهقت الأساليب الزراعية المدمرة الأرض الزراعية، واستنفدت القليل الذي تركه جامعو الضرائب»(٧٠).

ثالثاً: استنتاجات

ان الاستنتاج الأول الذي يمكن الوصول إليه من هذا التحليل هو أن صورة الخطين أو الشعاعين اللذين يتقاطعان في نقطة هي صورة غير مناسبة هنا، فما نحن بصدده بالفعل، هو طيف عريض يتداخل عبر مساحة متسعة. ففي مجال القوة والتقانة العسكرية، لم تتفوق أوروبا على الامبراطوريات الاسلامية حتى القرن السابع عشر، وفي مجال الفلك والصباغة والمعمار والفلسفة والتصوف، يمكن القول إن الشرق الأوسط، ظل على المستوى نفسه الذي كانت عليه أوروبا في القرن السادس عشر. غير أن نقطة التقاطع في ما يتعلق بالتقانة، ومعظم فروع العلم والنشاط الاقتصادي والسياسة الاقتصادية، قد جاءت مبكراً ربما في القرن الثالث عشر، أو على الأرجح في القرن الرابع عشر، وكانت قد اكتملت، بالتأكيد، مع حلول القرن الخامس عشر. ويصدق ذلك على العديد من الأبعاد الأخرى المهمة التي لم نتناولها في هذا البحث مثل الأبحاث العلمية والمؤسسات السياسية، وينبغي للمرء أن يفكر في المدن المستقلة، والقضاء والبرلمان وارتباط الضرائب بالتمثيل. بمعنى آخر، كانت كفة أوروبا راجحة في كل مجالات القوة مع مطلع القرن الخامس عشر على الأكثر باستثناء المجال العسكري. وحيث إن هذه القوة كانت قد قامت على أساس من النشاط الذهني المعتمد على قاعدة واسعة من الموارد البشرية والطبيعية، فقد كانت أوروبا قادرة على المزيد من التوسع اللامحدود. وقد اتضح ذلك جلياً بطريقة مؤلمة لبقية العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وبالطبع لم يكن هناك أمر قدري أو حتمي أو نهائي في هيمنة الغرب. وهنا مرة أخرى نشير إلى كلمات هودجسن:

«ويتساءل مثل هؤلاء الأوروبيين عن الأسباب التي جعلت مختلف الشعوب المتخلفة تنشط في الأونة الحديثة بعد قرون طويلة من الجمود المصاحب لتسليمها بواقعها، وهم في ذلك يغفلون في الواقع معجزة الكيفية التي تحقق بها ذلك، فهي بالفعل فترة وجيزة تزيد قليلاً على القرن (كذا!) تلك التي استطاع فيها الأوروبيون أن يتبوأوا تلك المكانة الفريدة في العالم»(٧١).

---

(٧٠) Franz Babinger, *Mehmed the Conqueror and His Time* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978), p. 454.

(٧١) Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization,* vol.3, p.178.

وبما أن اختلاف الأزمنة يتطلب اختلاف الكفاءات، فربما تصبح الخصائص التي أعطت أوروبا وأمريكا موضع الصدارة (العمل الدؤوب، والفردية والتشكك والنظرة المتغطرسة إلى الطبيعة)، غير ذات قيمة في العقود أو القرون المقبلة. غير أن البحث الذي قدمناه هنا ربما يوضح أن هناك وقتاً طويلاً قد ينقضي ما بين اللحظة التي تبدأ عندها حضارة ما في الترقي، واللحظة التي تتمكن عندها من اللحاق بالحضارة الرائدة في عصرها.

الفصل السادس

تأملات في دراسة الحضارات الشرقية

تعتمد رؤية المرء لدراسة تاريخ الشرق وحضارته وتدريسهما، ويعتمد فهمه العلاقة بين الثقافات الغربية والشرقية، في التحليل الأخير، على فلسفته الذاتية للتاريخ، أو إذا أردت أن تتجنب العبارات الفخمة الطنانة وتستخدم بدلاً منها لغة أهل الاقتصاد، فإنهما يعتمدان على النموذج البسيط الذي يفسر المرء العملية التاريخية على أساسه. ويستخدم الشخص المعني بدراسة ثقافة أجنبية، بربطها، عن وعي أو عن غير وعي، بثقافته الأصلية، نموذجاً من هذا النوع. وكما تعلّم مسيو جوردان في مسرحية موليير عن أستاذه، فلا بد من أن نتحدث إما بالشعر أو بالنثر، طالما أننا لا نطق بكلام غير مفهوم. وإذا حاولنا أن نمثل النماذج برسم بياني، فسنجد أنها تقع في مجموعتين: الخطية أو المستمرة، والدائرية أو المغلقة. ومن أجل تحقيق الاكتمال ينبغي أن نضيف مجموعة ثالثة وهي المرادفة للعشوائية. ويمكن أن يتمثل ذلك في مجموعة من النقاط المتناثرة التي تعبّر في مجموعها عن أن التاريخ هو مجرد أمور يحدث أحدها تلو الآخر، أي عبارة عن أحداث بعضها إلى جانب البعض الآخر، أو يحدث الواحد تلو الآخر دون أن يكون هناك بالضرورة ارتباط بينهما. وأود أن أضيف هنا أن هذه النظرة تحظى في وقتنا الحاضر بانتشار واسع.

ويمثّل النموذج الطولي وحده الحضارة واستمراريتها. فهو يؤكد، بالأساس، أنه لا توجد حضارات متعددة، وإنما حضارة واحدة جامعة، وهي حضارة تعبّر عن نفسها عن طريق شعوب مختلفة في أزمنة مختلفة. وترتبط هذه النظرة عموماً بمبدأ التقدم: يتحرك الخط إلى أعلى على الورقة رغم الاعتراف بأن امتداده ليس مطرداً، وأنه قد توجد دورات حول هذا الخط. ومن الممكن أن تحدث انهيارات حادّة؛ ومن الممكن أن نُدخل تعديلات على هذا النموذج. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يلفّ الخط على

الإصبع ليعطي شكلاً حلزونياً وهو الرمز الذي اختاره فيكو.

هذا كل ما يتعلق بشكل العملية، أمّا في ما يتعلق بمضمونها، فهناك صياغات متعددة. هناك نظرة التنوير التي ظهرت في القرن الثامن عشر؛ وهناك الصورة المهيبة التي أعطاها هيغل، والتي يرى فيها أن روح العالم تعبّر عن نفسها من خلال عملية ديالكتيكية، وتجد راحتها الأخيرة في الملكية البروسية؛ وهناك أيضاً وليد هذه الصورة المختلف عنها تماماً وهو «الجدلية الماركسية»؛ وهناك النظرة الليبرالية إلى التاريخ مثل قصة الحرية؛ ـ ونقطة القمة هنا هي الديمقراطية السياسية على النمطين البريطاني أو الأمريكي، وذلك وفقاً لرأي الكاتب.

كل هذه النظريات الخطية تتعرض اليوم لانتقادات خطيرة ينبع معظمها من حقيقة أن كل هذه النظريات قد ابتُدعت من جانب المنظّرين الغربيين، ويفترض صراحة أو ضمناً أن الأوروبيين، أو على أقصى التقدير الحضارة الغربية هي ذروة التاريخ ونتاج المجهودات المضنية عبر العصور المختلفة. إن هذه النظرة تتسم بالغطرسة ومحدودية الأفق وهي تشكّل في حد ذاتها جرحاً لمشاعرنا في تلك اللحظة التاريخية (منتصف القرن العشرين)، وحرجاً لأفكارنا عن العالم الواحد. ومن الواضح أن الحضارتين الصينية والهندية وغيرهما من الحضارات لم تكن مجرد تمهيد للحضارة الغربية. فقد كانت تانك الحضارتان قائمتين بذاتها، وهما تمثلان أهمية خاصة حتى في حالة عدم خروج الحضارة الغربية إلى حيّز الوجود على الإطلاق، أو حتى، إذا ما اختفت في الغد. ويصدق هذا على الماضي كله. وقد عبّر ليونتييف، الكاتب الروسي المحافظ، عن ذلك في القرن التاسع عشر بقوله: «من الصعب أن نصدّق أن الحواريين قاموا بالوعظ، وأن الشهداء تكبدوا المعاناة، وأن الشعراء غنّوا، والصباغين صبغوا، والفرسان لمعوا في سجلات الماضي لمجرد أن يتمكن البرجوازي الفرنسي أو الألماني أو الروسي، في ملابسه المخيفة والسخيفة، من أن يعيش حياة فردية وجماعية تقوم على أشلاء كل عظمة الماضي»[(١)] ولن يكون أقل سخفاً أن نستبدل «رجل الطبقة العاملة بـ «البرجوازي».

والاعتراض الآخر هو أن أي نظرية طولية تميل على نحو حتمي في معظم الحالات إلى أن تكون متفائلة، وترى أن الخط يسير إلى أعلى. أما في هذا العصر، عصر البربرية الجديدة، ومعسكرات الاعتقال والقنابل النووية الحرارية، فإننا نميل إلى الشك في كل وجهات النظر المتفائلة ونظريات التقدم. ونحن أكثر ميلاً إلى الاتفاق مع ريفارول في أن «أكثر الامبراطوريات تحضراً هي أقرب إلى البربرية قرب الحديد الأكثر لمعاناً إلى الصدأ» أو مع رانكه في أن «كل الأجيال قريبة إلى الله».

---

(١) جاءت في: Nickolai Aleksandrovich Berdiaev, *The Origins of Russian Communism* (London: C. Scribner, 1937), p.103.

ومن ثم، لا يكون من المستغرب أن تظهر النظريات الدائرية للحضارة كردّ فعلٍ لتلك النظريات الطولية. وتعدّ نظرية شبنغلر أكثر هذه النظريات تعنتاً. وهي ترى أن كل حضارة تشكّل دائرة مغلقة، وهناك نماذج أخرى يميل إليها أولئك الذين يجدون شبنغلر شديد التعنت أو شديد القسوة. فيمكن، مثلاً، أن تتمثل نظرية توينبي في مجموعة من الدوائر، بحيث يرتبط بعض الحضارات بغيره عن طريق الانتساب. وهناك شكل آخر يتمثل في الدوائر المتداخلة الممتدة في سلسلة بشرط أن يتم توضيح أن السلسلة لا تقود إلى غرض ما ولا تسجل تقدماً بعينه. وترسم هذه الصورة لمعرفة التأثير الذي يمارسه بعض الحضارات في غيره في فترات معيّنة. ولكن، وبصرف النظر عن الأشكال المختلفة، تظل هناك سمة أساسية تجدر الإشارة إليها، وهي أن كل حضارة قائمة بذاتها وتتساوى فلسفياً مع الحضارات الأخرى.

ويبدو أن النظريات الدائرية قد حظيت بقبول واسع، وسواء أكان ذلك القبول صريحاً أم ضمنياً. فهي تتناسب بدرجة كبيرة مع النسبية الثقافية التي دعا إليها علماء الأنثروبولوجيا، وهي تشكل مصدر جذب لأولئك الذين يحاولون تخطّي الأنوية الغربية.

إلا أن تلك النظريات تثير، هي الأخرى، اعتراضات خطيرة، ويأتي أول هذه الاعتراضات من جانب المتدينين أو على الأقل الذين يؤمنون بدين موحى به. بالنسبة إلى هؤلاء فإن التاريخ في النهاية هو وحدة واحدة، لأن كل البشر يشتركون في صنع أحداثه الخطيرة. ومن ثم، يعتقد المسيحيون أن كل البشر شاركوا في «الخطيئة» وأن السيد المسيح قد خلّصهم جميعاً، وأن الرسالة التي أتى بها إنما كانت موجهة إلى البشرية ككل، وانها سوف تصل إلى الجميع يوماً ما، وأن يوم القيامة ينتظر البشر جميعاً على حد سواء؛ وهناك معتقدات مماثلة في اليهودية والإسلام.

وهناك، على الجانب الآخر، اعتراض من أولئك الذين يؤكدون على التأثير الهائل للتقانة في التاريخ. وبالنسبة إلى هؤلاء، أيضاً، فإن للتاريخ وحدة أساسية تقوم على تماثل التطور الثقافي، فحينما توقّف البشر عن جمع الثمار والقنص كوظائف رئيسية وعملوا بالزراعة والحِرف اليدوية، فإنهم أغلقوا بذلك الفصل الأول للتاريخ وبدأوا الفصل الثاني. أما الفصل الثالث، فقد بدأ بالانقلاب الصناعي الذي انتشر بسرعة في العالم كله، ونجد أن الفرق بين المجتمعات التي يعيش فيها المزارعون وأصحاب الحِرف هو فرق غير ذي معنى، إذا ما قورن بالفرق بين حياة جامعي الثمار وحياة الزراعة والحِرف اليدوية، ويصدق ذلك، أيضاً، على الاختلاف بين المجتمعات الصناعية ومجتمعات ما قبل التصنيع.

ويأتي الماركسيون في منتصف المسافة بين الجماعتين السابق ذكرهما، وإن اشتركوا

مع الاثنتين في طبيعتهما. إذ يعتقد الماركسيون أن التطور الثقافي هو أحد أهم أسباب التغير في الهيكل الاقتصادي، الذي يحدد بدوره البنية الفوقية الثقافية والاجتماعية والسياسية، ويؤمن الماركسيون أن رسالة ماركس موجهة إلى البشرية جمعاء وسوف تصل إليها في المستقبل غير البعيد.

وعلى الرغم من أن تلك الرؤى الثلاث (الدينية والتقانية والماركسية) لا تجد صدى في الأوساط الأكاديمية الحالية، فإنها ذات ثقل يجب أخذه في الاعتبار، وينبغي أن تجعلنا على الأقل نتوقف ونفكّر في ما إذا كان رد الفعل قد أصبح مغالى فيه.

وفي هذه المرحلة يمكن عالم الاجتماع أن يقدّم مساهمة ما. فإذا تصفّح أعمال علماء التاريخ والفلسفة والإنسانيات الذين اهتموا بدراسة الثقافات الشرقية، فإن عالم الاجتماع هذا لا يملك إلا أن يشعر بالذهول إزاء تركيزهم على الاختلافات أكثر من تركيزهم على التشابهات، وعلى ما يميز كل حضارة وليس على ما تشترك فيه مع الحضارات الأخرى. وهم في الواقع على حق حين يفعلون ذلك، إذ ينبغي بطبيعة الحال أن يحاولوا «الغوص في أعماق تطور مجتمع بعينه أو حضارة بعينها ودراسة سلوك جماعة واحدة بالتحديد لا سلوك البشر بوجه عام في فترة زمنية محددة، بكل ما في ذلك من تفرّد وأحادية»[٢]. ولكنهم إذ يفعلون ذلك، فإنهم عرضة لخطر نسيان حقيقة ربما تكون أكثر أهمية وهي «عظمة البساطة التي يتمتع بها الإنسان رغم اختلاف طبيعته من مكان إلى آخر»[٣]. إنهم عرضة لنسيان أن أبناء الحضارات الأخرى هم أناس مثلهم لهم المشاعر نفسها ويواجهون المشكلات نفسها، أو مشكلات مشابهة، ويستخدمون المنطق نفسه. ولا أعني بالمشاعر تلك المشاعر الفردية مثل الحب والكراهية والخوف والرهبة. فقد صوّرت الكلاسيكيات تلك المشاعر بوضوح شديد مثل «طوق الحمامة» لابن حزم والشعر الفارسي والشعر الصيني، بما لا يدع مجالاً للشك. أنا أعني هنا المشاعر الاجتماعية، مثل الاستياء من القهر، والرغبة في العدل، والشعور بالتضامن داخل الجماعة، والتوتر بين الجماعات والطبقات، وما يتبع ذلك من صراعات على السلطة. أما المنطق الذي أتصوره، فإنه يتمثل أفضل تمثيل في العلم والتقانة، وفي بناء دراسة المؤسسات الاجتماعية وتحليلها، أي هو المنطق الإنساني الذي يطبّق على الظواهر الطبيعية والاجتماعية. ويمكن المرء أن يفسر هذه النقطة من خلال دراسة التاريخ الإسلامي والحضارة المعاصرة.

---

(٢) انظر: Alan Bullock in: Hans Meyerhoff, ed., *The Philosophy of History in Our Time* (New York: Doubleday Anchor Books, 1959), p.298.

(٣) انظر: Karl Jaspers in: Meyerhoff, ed., Ibid., p.336.

أولاً: الدراسات الإسلامية

لقد نشأت الدراسات الإسلامية في إطار علم فقه اللغة الكلاسيكي النابع من الفقه الديني. وينبغي إذن أن نشعر بالعرفان إزاء هذين العلمين اللذين كانا الأبوين الوحيدين المتاحين آنذاك. إنما يبدو من العدل أن نقول إنها حرما وليدهما، لفترة طويلة، من أي اتصال بالعلوم الأخرى. وكنتيجة لذلك تعاني الدراسات الإسلامية نقطتي ضعف خطيرتين: الأولى أنها أهملت بعض الأبعاد المهمة للتاريخ والثقافة الاسلاميين، والثانية أنها تتخذ مدخلاً غير مناسب لدراسة الكثير من المشكلات الأساسية.

وبالنسبة إلى النقطة الأولى، هناك الكثير من الأعمال قام بها الباحثون في مجالات مثل الأدب واللاهوت والقانون، وبدرجة أقلّ في الفلسفة، في الوقت الذي لم تحظَ مجالات أخرى، لها الأهمية نفسها، بأي اهتمام يُذكر (خذ مثلاً التاريخ الاقتصادي) وكما قال أحد الباحثين البارزين: «من بين كل أنواع التاريخ، يعدّ التاريخ الاقتصادي هو الأساس. وهذا لا يعني أنه أهم نوع. والاساسات توجد من أجل أن تحمل أشياء أفضل... والنشاط الاقتصادي بأدواته ومجالاته وتجارته وابتكاراته واستثماراته إنما يشكّل الدور الأرضي من بيت الإنسان»[٤]. وأكثر من ذلك، يتسم التاريخ الاقتصادي الإسلامي بالتنوع والتعقيد والإثارة بل، بثراء المصادر. ورغم ذلك، فقد بُذل القليل جداً من العمل البحثي في هذا المجال. وسوف تظل معرفتنا بالعالم الإسلامي غير مكتملة حتى يُبذل المزيد من الجهد. ويبدو أن هذا ينطبق أيضاً على ثقافات شرقية أخرى باستثناء اليابانية. ويصدق هذا القول على تاريخ التقانة؛ لقد قدم العالم الإسلامي بعض الابتكارات المهمة، غير أن تاريخ الحِرف الإسلامية لم يُكتب بعد. ولا شك في أنه يثير الكثير من القضايا المهمة حين يُكتب. ومن ثم، وكمثال واحد على ذلك، فإذا كان هناك اعتقاد سائد بأن توافر قوة العمل من العبيد قد حالت دون التقدم التقاني في اليونان وروما، فهل شجع اعتماد الإسلام المحدود على عمل العبيد على حدوث التطور التقاني؟ لم يطرح مثل هذه الأسئلة بعد، ولم تُطرح إجابات عنها. وهناك أسئلة أخرى كثيرة تنتظر إجابة في مجال العلوم الطبيعية، وهو فرع آخر لا يزال يحتاج إلى مزيد من العمل.

هناك أمران تشترك فيهما تلك المجالات المهملة، إلى جانب اشتراكها في عظم الأهمية. أولاً أنها تتعامل مع أنشطة تتقاطع عبر الحدود الثقافية. فالأدب والقانون واللاهوت، على سبيل المثال، فروع ترتبط، عادة، بجماعة بعينها، أما أساليب

(٤) انظر: «Introduction,» in: John Harold Clapham, *A Concise Economic History of Britain from the Earliest Times to 1750* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1949).

التجارة والملاحة وصناعة النسيج ومراقبة النجوم فهي مجالات لها الطابع نفسه، بغضّ النظر عن اختلافات الزمـان والمكان. وقـد تقود دراسـة هذه المجـالات إلى نظرة أقـل إقليميـة، وإلى مزيـد من التأكيـد على الخصـائص العالميـة. وثانيـاً، إن دراسـة هـذه المجـالات لا يمكن أن تتم إلا على يـد أناس بـرعوا في مـا ينـاظـر تلك المجـالات من العلوم، فـالشخص الذي يملك معـرفة واسعـة بالـطب هو الـوحيد القـادر على كتـابة التاريخ الطبي، في حين يكـون المهندس أكـثر الناس إفـادة من دراسة أعـمال الري في العصور السابقة. وكما قال أحد علماء التاريخ الاقتصادي البارزين، إن هـذه العلاقـة بين النظرية ودراسة التاريخ ليست خاصة بعلم الاقتصاد؛ على العكس، إنها ضرورية لأي دراسة تاريخية حتى تقوم عـلى أساس مـا تم التوصـل إليه من الخصـائص العامـة للظواهر موضع الدراسة. وإذا أخذنا مثالاً مـوازياً لعلم الاقتصـاد، وإن كان أكـثر ما يكـون بعداً عنـه، فإننـا نجد أن دراسـة تاريـخ الحروب دائـماً في حـاجـة إلى معـرفـة التكتيكات والاستراتيجيات، وقد تمّت الـبرهنة عـلى وجود هـذه الوحـدة الجوهـرية في التعـامل مـع الحروب عـلى الرغم من أن البعض يـرى أنه قـد طرأ تـطور ثوري عـلى الحروب من خلال استخدام البارود والبخار.

أما بالنسبة إلى الاقتصاد «فإن هذه الوحدة المطلوبة، بصرف النظر عن الزمـان والمكان، هي أكبر بكثير منها في حالة الحروب. فهي هنا مسألة ضرورة دائمة، إذ إن أسس الحياة الاقتصادية، ومن ثم النظرية الاقتصادية، تتسم بالعالمية، فهي الضرورة التي تجعل الطرفين يلتقيان»[٥].

ولهذا السبب، يبدو مهماً على نحو خاص أن نستعـرض تلك الموضـوعات عنـد دراسة الحضارة الشرقية، فذلك قد يشجع بعض طلاب الهندسة والكيميـاء والاقتصاد على السعي مستقبلاً إلى تطبيق تلك المعرفة في سبر غور تاريـخ الحضارات الشرقيـة في العلم الذي تخصصوا فيه.

هذا في ما يتعلق بالإهمال. أما عدم كفاية المقتربات فيرجع إلى الفشل في تطبيق بعض استنتاجات العلوم الاجتماعية على دراسة التاريخ الاسـلامي. فنحن نعلم، على سبيل المثال، أن الإسـلام ضم مدنـاً ضخمة في القـرن العاشر حتى قـدِّر عدد سكـان بغداد بـ ١,٥ مليون[٦] ولم يكن عدد سكان القـاهرة، عـلى الأرجح، أصغـر من ذلك بكثير. ونعلم أنه كان فروق شاسعة بين الأغنياء والفقراء، وأن سكان المدن انتموا إلى جماعات ثقـافية وقـومية شـديدة التعـدد، وأنّ تغيرات اجتـماعية واقتصـادية مهمـة قد

---

(٥) Eli Heckscher, «A Plea for Theory in Economic History,» *Economic Journal*, Economic History Series; no.4 (January 1929).

(٦) انظر: «Article Baghdad,» in: *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed.
ويبدو هذا الرقم مرتفعاً للغاية، إلا أن تقدير ذلك بـ ٥٠٠ ألف هو رقم أكثر معقولية.

حدثت آنذاك. هل يعني ذلك أنّ علينا إعادة دراسة تاريخ الإسلام في العصور الوسطى في ضوء الضغط والصراع الطبقي والاجتماعي؟ إذا كان يمكننا أن نتتبع مثل هذه الحركات في اليونان وروما وأوروبا العصور الوسطى، أوليس من المرجّح وجود مثيل لها في الإسلام؟ بادىء ذي بدء وإذا كان الأمر كذلك، أليس من الجدير بنا أن ننظر بدقة إلى حركات مثل الخوارج والإسماعيلية والقرامطة أو غيرها؟

خذ، مثلاً، قصة الشاعر المتنبي الذي يُعتقد أنه ادّعى النبوة، وكان يطلق أشعاراً على نسق القرآن نفسه، على البدو البسطاء، أملاً في توطيد سيطرته عليهم؛ ومن هذه الزاوية كانت القصة صبيانية. إنما على الرغم من كلّ عيوبه، فإن المتنبي الذي كان بكل المعايير أحد ثلاثة أو أربعة من أعظم شعراء العربية، ليس صبيانياً، غير أن الباحث الفرنسي قد جعل المسألة كلها تبدو منطقية حينما أشار إلى «انتماء الشاعر إلى القرامطة، أي أنه ينتمي إلى إحدى الحركات الاجتماعية التي تطورت - مثل غيرها في الشرق - تحت عباءة الإصلاح الديني»[٧]، وهي حركة ثورية «حاولت أن تحوّل كل الشعائر والعبادات التي نُسبت إلى الأساس الإلهي، والتي تحميها الدولة الإسلامية، إلى مجموعة من القوانين البشرية وإلى قواعد اجتماعية تستهدف سعادة البشرية جمعاء، عن طريق صهر كل الديانات التي نظرت إليها تلك الجماعة باعتبارها طوائف أنانية بسيطة»[٨]. ويبدو أن الأمر نفسه يصدق على الشاعر العربي العظيم أبي العلاء المعرّي. فالذين قرأوا «المجالس» التي كتبها أستاذه وصديقه مؤيد السلماني الداعية الأكبر للطائفة الإسماعيلية، والتي اكتشفت أخيراً، يعلمون أن روح الشك في اللزوميات ورسالة الغفران لا يمكن أن تظل تعتبر خصوصية فردية، وإنما هي تشهد على تطور، في ظروف سيكولوجية مؤاتية، في أصول الشك المنهجي، والنظرة المتعالية والانتقائية التي تتضمنها التعاليم المؤسسة للمجتمعات القائمة على المذهب الاسماعيلي[٩].

ويثير هذا التلميح الشديد الاختصار لكل من المتنبي والمعري نقطة أخرى، وهي أن أعمال الشعراء تعدّ من أهم المصادر التي يمكن دراسة تاريخ الحركات والأفكار الاسلامية من خلالها. فقد مثّل الشعراء العرب، في مجتمعاتهم، على نحو أو آخر، الدور الذي يقوم به كتّاب المقال والمحرّرون، وذلك عن طريق تأييد الأفكار أو الجماعات المختلفة أو مهاجمتها. ومن ثم يكون من المفيد جداً دراسة الشعر العربي من خلال منهج سياسي اجتماعي. أو خذ، مثلاً، موضوعاً أكثر واقعية - التضخم. لقد

---

(٧) Régis Blachère, *Un Poète arabe du ive siècle de l'hégire (xe siècle de J.C.): Abou t-Tayyib al Motanabbi,* essai d'histoire littéraire (Paris: Adrien - Maisonneuve, 1935), p.4.

(٨) Louis Massignon cited in: Ibid.

(٩) Louis Massignon, «Mutanabbi: Devant le siècle jsmaelien de l'Islam,» in: *Al Mutanabbi,* mémoires de l'institut français de Damas (Beyrouth: [s.n.], 1936), p.2.

أثبتت الأعـوام الأربعمئة الأخـيرة مدى الـدمار الـذي يمكن أن ينزلـه الارتفاع الممتـد لـلأسعـار في المجتمعـات المختلفـة ومـدى الفـوضى التي يمكن أن يسببهـا، ومـدى الاضطراب الذي يمكن أن يثيره، وما يمكن أن يؤدي إليـه من طرح أفكـار جديـدة. ونحن نعلم الآن أن هناك العديد من فترات التضخم في التـاريخ الإسـلامي، ولدينـا دلائـل على أن بعضهـا على الأقـل قد سبّب اضـطرابـاً كبيـراً للذين عـاشـوا في هـذه الفترات[١٠]. أليس من الواجب، إذن، أن نستخدم المعلومات التي اكتسبناها بصعـوبة ليس لدراسة تطور حركات الأسعار في التـاريخ الإسـلامي فحسب، وإنما أن نحـاول أيضاً تتبّع آثارها السياسية والاجتماعية وغير ذلك من آثار؟

أو فلنأخذ علماً اجتماعياً آخر: علم دراسة السكان. فلا شك في أن استنتاجات علماء السكـان المعاصرين تلقي مـزيداً من الضـوء على واحـدة من القوى المحـركة في تاريخ كل الحضارات، ألا وهي حركات السكـان. فأي عـالم تاريـخ أو دارس ثقافـة مـا، إنما يفقـد الكثير إذا لم يستخـدم النماذج والاستنتـاجات الـديمغرافيـة الاستخـدام الأكمل. ومن ثم، نذكر، على سبيل المثال، أن أحد المؤرخين البارزين قد نشر حديثاً بعض الأرقام عن سكان الامبراطوريـة العثمانيـة، في القرن السـادس عشر معتمداً في دراسته على السجلات العثمانية وقد بدت تقديراته معقولة إلى حـد كبير وتتـماشى كثيراً ومعظم المعلومات المتاحة. غير أنها احتوت على بعض الأرقام عن إجمـالي عدد سكـان بعض الأقاليم السورية، وتصنيفهم وفقاً للديانة. وقـد تمكنت شخصياً من إثبـات أنها تقدّر عدد السكان المسيحيين تقديراً منخفضاً جداً، وذلك لأنه إذا أخـذنا في الاعتبار ما لدينا من معلومات حول الهجرة من سوريا وإليها والتحول من دين إلى آخـر فيها، فسنجد أن الأرقام التي أتى بها الباحث، والخاصة بالفترة ما بين القرنين السـادس عشر والعشرين، إنما تنطوي على معدل نمو سكاني لم يحدث أبداً - على علمي - في مجتمعات ما قبل الانقلاب الصناعي، كما تنطوي على الافتراض بـأن تكون نسبـة المسيحيين إلى إجمـالي عدد السكـان في القـرن السـادس عشر أقـل بكثير مما هي عليـه الآن، وهي النتيجـة التي تتناقض مـع مـا نعـرفـه جيـداً من خـلال مـا تـوّصلنـا إليـه من مصـادر أخرى[١١].

وهنـاك نقطة أخـرى يمكن أن يقدّم فيهـا علماء الاجتماع مسـاهمـة أخـرى، هي

---

(١٠) انظر على سبيل المثال، الدراسة الممتعـة والمتعمقة التي قـام بها عـالم التاريخ المصري، المقريـزي، الـذي عاش في القـرن الخامس عشر، في: أبـو العباس أحمـد بن علي المقـريزي، إغـاثـة الأمّـة بكشف الغمّـة (القاهرة: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال، ١٩٤٠).

(١١) يمكن للمهتمين بهذا الموضوع أن يجدوا التقديرات الأصلية والانتقادات الموجهة إليهاوالرد عليها في: *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (1957-1958).

التركيز على الأبعاد الأكثر عالمية للمذاهب التي اعتنقها بعض مفكري الشرق العظام. ويمكن، بالطبع، أن يكون هذا المنهج شديد الخطورة، فكما يقول ك. لويس: «حينما نختار أن نعطي مزيداً من الاهتمام للمذاهب التي «تتخطى» فكر العصر أو المذاهب التي «تتمشى مع كل العصور»، فإننا بذلك نفترض أن فكر عصرنا هو الفكر الصحيح لأننا بالتأكيد نعني بالفكر الذي يتخطى عصر «المفكر العظيم» الفكر الذي يتفق مع فكرنا نحن»[12]. وقد أشار أحد أكفأ الباحثين في ذلك المؤتمر نفسه منذ ثلاث سنوات إلى أن: «الدارس سوف يدرك أن العقبة الحقيقية على طريق فهم فكر ابن خلدون لا تتمثل في غرابة فكره أو في تفرُّده، وإنما في التماثل - إن لم يكن التطابق - بينه وبين الفكر الحديث»[13].

وعلى الرغم من وجاهة هذه الاعتراضات فهي ليست فاصلة. فمعرفتنا بالقوانين الطبيعية والظواهر الاجتماعية والنفس الإنسانية أوسع من معرفة من سبقونا؛ ومن ثم يكون من الحماقة، في ذلك الموضوع على الأقل، أن نترك أنفسنا لنصبح فريسة تواضع زائف. وبالمنطق نفسه، من الضروري أن نتذكر أن ابن خلدون، مثلاً، كان مفكراً إسلامياً عاش في العصور الوسطى وليس أستاذاً في جامعة كولومبيا؛ ومن ثم فحين نربط بينه وبين فكر عصره، علينا ألا نجعل الاهتمام بما هو إسلامي أو ما هو خاص بالعصور الوسطى يذهب بنا بعيداً، حتى يطغى على ما هو إنساني وعالمي. وفي النهاية، كان أفلاطون مواطناً ارستقراطياً ناقماً من أثينا، ولكن هذا ليس البعد الأكثر أهمية أو الأكثر خلوداً في فكره. وفي هذه القضايا يصبح انحياز عالم الاجتماع عاملاً مهماً لتصحيح انحياز المستشرقين.

ثانياً: دراسة الشرق المعاصر

غير أن هذا التصحيح يعدّ أكثر ضرورة عند دراسة الشرق المعاصر. فعادة ما يكون دارس الحضارة الإسلامية أو الصينية، أو ما إلى ذلك، ميّالاً إلى التأثر بالخصائص المميزة لتلك الحضارة التي يكون قد سبر غورها بعد طول دراسة وعناء، حتى انه ينسى، في غمار ذلك، العناصر الأخرى المشتركة بين هذه الحضارة وبقية الحضارات، وهي العناصر التي لا تقلّ أهمية. كما أنه عادة ما يميل إلى إهمال التغيرات الكبرى التي تحدث في تلك الحضارة أو التقليل من شأنها، ومن ثم قدرة هذه الحضارة على التغير. وهكذا، أكد لي أحد كبار الباحثين الاسلاميين أنه في الشرق الأوسط اليوم «كلما حدث تغيّر من هذا النوع ثبت على أصله» وقد أجبته أنه بالمقارنة بالتغيرات

---

(١٢) C.S. Lewis, *The World's Last Night*, p.96.

(١٣) Muhsin Mahdi, «Ibn Khaldun,» in: W.T. de Bary, ed , *Approaches to the Oriental Classics* (New York: Columbia University Press, 1959), p.70.

العميقة المتعددة الجذور التي تجتاح الشرق الأوسط اليوم، تبدو كل من أمريكا الشمالية وأوروبا مناطق تتسم بالركود! وقد أعلن مستشرق بارز أن ما يحدث في الصين ليس جديداً، فقد شهدت الصين الكثير من الثورات التي تم فيها تصفية ملّاك الأرض. وقد أشرت وقتها، وبأسلوب هادىء قدر المستطاع، إلى أن هذه هي المرة الأولى في تاريخ الصين التي يتم فيها إنتاج ١٢ مليون طن من الصلب (وقد ارتفع الرقم الحالي عن هذا الرقم)؛ ويمثل هذا فارقاً ضخماً. وقد عبّر بعض الباحثين عن النظام الحالي في مصر باعتباره تجسيداً جديداً للنظام المملوكي، ومن ثم سعوا إلى دراسة هذا الأخير. إنما يمكن إلقاء الضوء على ذلك النظام عن طريق دراسة ظواهر معينة مثل القومية الألمانية في القرن التاسع عشر والبيرونية المعاصرة والشيوعية الصينية والتيتوية، أكثر بكثير من دراسةتاريخ مصر نفسها في القرن الخامس عشر أو القرن الثامن عشر.

وباختصار، تخضع المجتمعات الشرقية لنوعين من القوى، فهي تخضع من ناحية للروابط التاريخية التي تربطها بماضيها وتحمي ثقافتها المتميزة. ومن ناحية أخرى، فإنها تخضع للاتجاهات العالمية التي تجذبها إلى التيار العام للقرن العشرين. ويميل المستشرقون إلى المبالغة في التأكيد على الأولى، بينما يركّز علماء الاجتماع على الثانية، وربما يكون من العبث أن نناقش أيهما أقرب إلى الصواب، فالمهم هنا ضرورة استخدام المنهجين.

ويعيدنا هذا إلى نقطة البداية في هذا البحث، وربما يقودنا إلى طرح نموذج عمل آخر من أجل تمثيل العلاقة بين الحضارات الكبرى مُنذ بداية التاريخ المعروف: سلسلة من الخطوط المتوازية، قد يتقارب أحدها من الخطوط الأخرى، أو يتباعد عنها، أو قد يلمسها في بعض الحالات. ويمثل ذلك التميز والاستقلالية والتكافؤ الفلسفي لكل الحضارات الكبرى. إلا أن أحد هذه الخطوط، خط الحضارة الغربية، قد انحرف في القرون القليلة الأخيرة بعيداً عن الخطوط الأخرى، وغيّر مساره، في ما يبدو لي أنه تغيير إلى «أعلى»، رغم أن الحكم القيمي الخاص بهذه النقطة الأخيرة ليس ضرورياً للنموذج.

إنما المهم هو أن الخطوط الأخرى تتحرك الآن، بصرف النظر عن سرعتها، في الاتجاه نفسه، أو بمعنى آخر أن التغيرات العلمية والتقنية والتنظيمية وغيرها التي بدأت في أوروبا منذ حوالى ثلاثة قرون مضت، وجعلتها تختلف عن غيرها من الحضارات إلى هذا الحد، قد بدأت تجتاح بقية العالم بمعدلات متسارعة وبدأت تحدث تغيرات ثقافية هائلة، ولا يبدو من التفاؤل الشديد حقاً أن نتوقع امتزاج الخطوط في المستقبل غير البعيد، وقد تشهد البشرية طبقة أكثر غنى من الحضارة المشتركة تتكون فوق التعددية القديمة للثقافات التي عرفتها الإنسانية منذ بدء التاريخ.

الفصل السابع

الشرق الأوسط ومذاهب التاريخ الاقتصادي

ماذا يمكن أن يتعلم الباحث المعني بدراسة التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط من المذاهب الرائدة في هذا المجال؟[1] إن الإجابة عن هذا السؤال هي أن بإمكانه تعلّم الكثير إذا نظر إلى أساليب تلك المذاهب (المدارس) ومفاهيمها الأساسية، ليس باعتبارها قوالب الفطائر التي يمكن إعمالها في «عجينة» الشرق الأوسط، التي لا شكل لها، لتتحول إلى كعكة معدّة للخبز، وإنما باعتبارها شموعاً خافتة يمكن أن تساعده ليتبين الأشكال المتجسدة في مادته.

أولاً: المذهب الكليومتري

هذا المذهب (Cliometric School) هو «آخر صيحة» في الولايات المتحدة الأمريكية. وأهم ما يميزه هو محاولة تطويع البيانات التاريخية لنماذج الاقتصاد القياسي (Econometric) وتطبيق الفكر الاقتصادي المتطور على الظواهر التاريخية. وقد يكون للمرء تحفظاته حول الاقتصاد القياسي، وكما قال وندل ويلكي مرة: «إن لم يكن ما يُعدّ من قبيل الرفاهية في أماكن أخرى يعتبر ضرورياً في الولايات المتحدة لكان الاقتصاد الأمريكي قد توقّف عن أداء وظيفته». ويصدق هذا على نماذج الاقتصاد القياسي في كل العصور عدا العقود الأخيرة. إذ تنطبق هذه النماذج على الولايات المتحدة وبعض الدول المتقدمة الأخرى، ولكن حتى هناك، فإن المشككين يشعرون أن ما لدينا ما هو إلا اقتصاد قياسي سيّيء يطبّق على إحصاءات أسوأ. غير أنها تمثل رفاهية لا يمكن تحمّلها، لبعض

(١) سوف أقتصر في هذه الدراسة على الفترة التي تنتهي بالحرب العالمية الأولى، وذلك لأن طبيعة المصادر والبيانات المتاحة عن الفترة التي تلي ذلك تتطلب منهجية مختلفة.

الدول الأخرى خاصة في الشرق الأوسط ربما باستثناء بعض مجالات الاقتصاد المصري، كما أثبت بنت هانسن في مقالاته التي نشرت حديثاً. وكما ذكر جان أوبان لم تكن «الأرقام المقبولة» في ما يتعلق بإيران متاحة قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولم يكن الوضع أفضل من ذلك في أي مكان آخر، في مثل هذه الظروف، ليس ثمة ما يملك المتخصص في الاقتصاد السياسي أن يستخدم فيه مهاراته إلا في أضيق الحدود. غير أننا لسنا في حاجة إلى الإشارة إلى ضرورة تطبيق النماذج المتاحة الأكثر صرامة على هذه الإحصاءات التي نجحنا في إعدادها.

أما بالنسبة إلى الاقتصاديين، فهم لا يستبعدون أي شيء ذي صفة إنسانية، حتى ان بعضهم بالفعل، خاصة أنصار مدرسة شيكاغو، لا يقنعون وحسب بدراسة اقتصاديات التعليم والتمييز العنصري والجريمة، وإنما يدسّون أنوفهم في مضاجع الآخرين، ويناقشون اقتصاديات الزواج والإنجاب. وينبغي أن نضيف أنهم قدّموا إسهامات قيّمة للمعرفة وقدّموا في الوقت نفسه بعض التعبيرات الغربية، وإذا ما جرّدناه من مصطلحاته ولغته الخاصة به، فإن علم الاقتصاد هو عبارة عن التطبيق المنهجي لمفاهيم كالتي سنشير إليها والتي تكون كلها صالحة للصياغة في مصطلحات رياضية بسيطة وتتصل بنطاق واسع من الأنشطة الإنسانية.

١ ـ **نفقة الفرصة البديلة**، يستلزم كل استخدام لأحد عناصر الانتاج (العمل ـ الأرض ـ رأس المال) كلفة ما، وهي التي يمكن قياسها باستخدام البديل الأكثر إنتاجية الذي كان يمكن أن يستغل فيه أحد عناصر الإنتاج.

٢ ـ **الغلة المتناقصة**، ينتج عن الاستخدام المتزايد لأي من عناصر الإنتاج، مع ثبات العناصر الأخرى تناقص مطرد في الإضافات إلى الإنتاج.

٣ ـ **المنفعة المتناقصة**، ينتج عن الاستخدام المتزايد لأي سلعة تناقص مطرد في المنفعة الإضافية للمستهلك. وينظر الاقتصاديون إلى هذا المبدأ على أنه غير ضروري رغم فائدته لرجل الشارع ورجال التاريخ الذين يحاولون فهم الظواهر الاقتصادية.

٤ ـ **التعظيم**، يتصرف المستهلكون والمنتجون على نحو رشيد، أي أنهم يسعون إلى الحصول على المخرجات المطلوبة وذلك من خلال استخدام أقل كمية ممكنة من المدخلات أو ـ بدلاً من ذلك ـ يسعون إلى الحصول على أكبر كم ممكن من المخرجات من عناصر الإنتاج والمواد التي تحت يدهم.

٥ ـ **التوازن**، يوفر السوق آلية (ميكانزما) توازنية، وهي التي تؤدي عند نقص سلعة ما مع ارتفاع سعرها إلى تحريك القوى التي تزيد من العرض، ومن ثم تخفض السعر من جديد ويمكن أن تقوم قوى أخرى أكثر شدّة بمنع هذه النتيجة جزئياً أو كلياً

(مثـل الارتفـاع المستمـر في الـطلب عـلى تلك السلعـة أو حـدوث تضخم عـام في الأسعار).

٦ ـ **المكافأة وفقاً للإنتاجية الحدِّية** تتجدد إيرادات كل عنصر من عناصر الإنتـاج بمدى إسهامه النسبي في الناتج، أو على نحو أدق، بإنتـاجيته الحـدِّية التي تتغـير (انظر ٢) وفقاً لمزيج عناصر الإنتاج، أي للندرة النسبية للعمل والأرض ورأس المال.

٧ ـ **وأخيراً بالنسبة إلى الظواهـر النقديـة**، فإن النـظرية الكميـة تصدق، عـلى الأقل، في حدود التأكيد بأن أي زيادة كبيرة في عرض النقود تنزع إلى زيـادة الأسعار، وأن أي نقص كبير يؤدي إلى تخفيضها، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى معاكسة. وأحد المبادىء الثانوية ـ بالرغم من أهميتـه بالنسبـة إلى الحقب التاريخيـة المبكرة ـ هـو قانـون غريشام الذي ينص على أن العملات الرديئة تطرد العملات الجيدة.

والآن، لا شك في أن المبادىء الثلاثة الأولى ذات طبيعة عالمية في التطبيق وهي تنـطبق على أي مجتمـع في المـاضي أو الحـاضر أو المستقبـل المنـظور: أمـا بـالنسبـة إلى المبادىء الأخرى، فإننا نخوض ساحـة الجدل بشـأنها. هل يسعى المـرء إلى التعظيم، وإذا كان هذا صحيحاً، فما هو الشيء الذي يسعى إلى تعظيمه؟ الدخل؟ رأس المـال؟ إشباع الرغبات؟ الهيبة؟ المتعة؟ الأمن؟ (أي الحد من المخاطر).

لقـد قدّم علماء الأنـثروبولـوجيا الـذين درسوا اقتصـاديات القـرى والقبـائـل في الشرق الأوسط وافـريقيا وأمـاكن أخرى إجـابات مختلفـة عن هـذه الأسئلة، إذ يؤكـد بعضهم رشـادة الاستجابـات من الناحيـة الاقتصاديـة رغم إمكـانيـة اختـلاف القيـود المفروضة (انظر دراسة كليفورد غيرتز عن الأسواق المغربية). بينما يؤكد الآخرون على أن نموذج الاقتصاديين المعتاد للتعظيم يمكن أن ينطبق على سماسرة البورصة في أوروبـا أو أمريكا الشمالية، ولكنه لا ينطبق على فلاحي الشرق الأوسط أو أمريكا الـلاتينية أو آسيا أو أفريقيا.

أو خذ مثلاً مسألة السوق، لقد جعل جون هيكس أحـد أبرز علماء الاقتصـاد، من عملية ازدهار السوق الفكرة الرئيسية في غوصه الممتع في أعماق التاريخ، وذلك في كتابه نـظرية التاريخ الاقتـصادي وهو الذي يتتبع فيه ظهور السوق مرجعاً أصولـه إلى الأزمنة الغابرة. غير أن بعض علماء التاريخ الأكفاء والمستنيرين مثل كارل بولاني و م. فينلي اكدوا لنا أن مفهوم السوق وما يـرتبط به من آليـات (ميكانـزمات) وظـواهر هـو مفهوم مضلِّل إذا ما تم تطبيقه على العصور القديمة بما في ذلك روما[٢].

(٢) من أجل دراسة متعمقة أكثر حداثة، انظر: =

أما في ما يتعلق بمبدأ المكافآت التي تتحدد وفقاً للانتاجية الحدية، فيستوقف المفهوم الكثيرين إذ ينظرون إليه باعتباره شديد الهزلية. وهو ليس هزلياً في الواقع، ولكن الأمر يتطلب تفسيراً جيداً من أجل إقناع القارىء العادي بأن الدخول النسبية للسادة والأقنان (عبيد الأرض) في أوروبا وللملوك والفلاحين في مصر، إنما تعكس اسهامهم الحدّي في الإنتاج «الاقتصادي». ويكون من المفيد بالطبع في هذه المرحلة أن نسوق بعض الاعتبارات غير الاقتصادية.

ثانياً: المذهب الماركسي

وهذا ما يفعله ثاني المذاهب التي نأخذها في الاعتبار وهو المذهب (المدرسة) الماركسي. إذ يعي هذا المذهب تماماً العناصر السياسية والسوسيولوجية التي تخلق موقفاً تاريخياً بعينه. وهو الوعي غير المصحوب في العادة بوعي مماثل بالعوامل الاقتصادية الحاسمة. ويلفت المفهوم المركزي الخاص بـ «أنماط الانتاج» انتباه عالم التاريخ الاقتصادي إلى جوهر التركيب الاجتماعي وهو يدفعه إلى فهم القوى المادية للانتاج أولاً - أي المواد البشرية والطبيعية الموجودة تحت تصرّف المجتمع في لحظة تاريخية بعينها، إضافةً إلى الأساليب التقنية المتاحة، ثم يطالبه فيما بعد بالربط بين الأفراد والجماعات الذين يشكّلون ذلك المجتمع وبين عملية الإنتاج، أو بمعنى آخر، فهو يطالبه بتحديد الأسس الاقتصادية للطبقات الاجتماعية المختلفة ومعرفة نمط التفاعلات فيما بينها. ويحدد كل من نمط الإنتاج وهيكل الطبقة البنية الفوقية مثل المؤسسات السياسية والثقافية وغيرها، إضافةً إلى الأفكار. ويفسر مفهوم الصراع الطبقي الذي ينشأ عن محاولة الجماعات المختلفة الاستيلاء على الجزء الأكبر من الناتج الاجتماعي دينامیات التغير والتحول الاجتماعي، ويعلّل تعاقب العصور القديمة والإقطاع والرأسمالية ثم الاشتراكية. ويمكّننا هذا من أن نضيف الكثير من الأدوات الجديدة القوية المتعددة الاستخدامات إلى أدوات التحليل الخاصة بعلم الاقتصاد. وتتمثل إحدى هذه الأدوات الجديدة في المفاهيم المتعلقة بالقهر والاستغلال التي تقدم إلينا المزيد من المعلومات عن توزيع الأرض والدخل عبر فترات تاريخية طويلة بقدر أكبر مما يقدّمه مفهوم الإنتاجية الحدية. وتتمثل أداة أخرى في المصالح والايديولوجيات الطبقية، وهي المفاهيم التي تتسم بقدرة أكبر على التفسير مقارنة بمجرد الاعتماد على تفصيلات علماء الاقتصاد التقليدي. وهي أيضاً المفاهيم التي تحدد على نحو أكثر وضوحاً تلك القيود التي يعمل الفكر والإبداع والسياسة في إطارها في أي فترة زمنية

Douglass North, «Markets and Other Allocation Systems in History: The Challenge of Karl Polanyi,» *Journal of European Economic History,* vol.6, no.3 (19-), pp.703-716. =

بعينها. ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة من الأدوات الكثير، ولكن هنا ليس مجالها.

وفي العقود القليلة الماضية، قدّم علماء التاريخ الماركسيون عملاً رائعاً حين درسوا أوروبا الشرقية والغربية، بيد أنه ليس ثمة عمل مماثل عن الشرق الأوسط وبقية آسيا. وهذا ليس بمستغرب؛ فقد كان ماركس وأتباعه من الأوروبيين الذين يشعرون بالألفة إزاء تاريخ أوروبا وسياساتها ومجتمعاتها ولكنهم - مثل غيرهم - يجهلون ما يتعلق بالمناطق الأخرى. ولم يكن هناك أي دليل على الإطلاق، يُثبت أن القطاعات الأساسية للاقتصاد الغربي تتماثل مع اقتصاد تلك المناطق. فإذا أخذت، مثلاً، الإقطاع، فهل كان هناك مثل ذلك النظام خارج أوروبا، فيما عدا اليابان وبعض أجزاء لبنان؟ لقد درس كلود كاهين تلك المسألة في بعض المقالات الثاقبة، وكان على وعي شديد بالفرق بين الإقطاع «الشرقي» والإقطاعية الأوروبية (Fief). ثم هل كان هناك نمط آسيوي للإنتاج؟ لقد كان رأي ماكسيم رودنسون وآخرين حول هذا الموضوع أبعد ما يكون عن الوضوح. كذلك، هل مثلت طوائف الصنّاع الإسلامية والتجار دوراً مماثلاً لنظيراتها الأوروبية؟ وهل كان هناك أي طوائف من هذا النوع قبل العصر العثماني؟ لقد كشفت الأعمال المتازة التي قام بها برنارد لويس وس. م. سترين، وكلود كاهين، وغابريال بير جهلنا. وسؤال آخر: هل يمكن أن يتحدث المرء عن أرستقراطية إقطاعية أو حتى عن نبالة موروثة في القرون الستة التي سيطر فيها المماليك والانكشاريون أو خلفاؤهم من الملتزمة؟ هل تمثّل الجفالك في البلقان وغيرها بداية الزراعة الرأسمالية؟ هناك بعض الملاحظات المهمة حول هذا الموضوع الأخير في مخطوط غير منشور لبروس ماكغوان. وبأي معنى يمكن أن يتحدث المرء عن البرجوازية في الشرق الأوسط قبل القرنين التاسع عشر والعشرين؟ لماذا ظلت ضعيفة إلى هذا الحد؟ ولماذا كانت الملكية غير مستقرة؟ ولماذا ندر تراكم الثروات الأسرية وبقاؤها رغم أنها أساس قوة البرجوازية؟ لماذا لم تعضد الطبقة الوسطى بقوتها المدن المستقلة، وإنما ظلت تابعة للغاية للحكومة المركزية؟ وتفيد في هذا الإطار دراسة التناقض بين مصير تجار الهانزا والتجار الكارميين. ولماذا كانت السلطة مركزة إلى هذه الدرجة في أيدي الجيش والبيروقراطية؟ وكيف اتفق هذا مع التأكيد الماركسي الذي مؤداه أن الدولة لا بد أن تمثّل مصالح طبقة اقتصادية عن طريق اشتقاق سلطتها من عملية الإنتاج؟

وتبقى نقطة واحدة جديرة بالذكر، وهي أن الجميع في الشرق الأوسط اليوم، مثل مسيو جوردان في مسرحية موليير، يتحدث بمفاهيم ماركسية أو بالأحرى لينينية. وقلما توضع الماركسية هذه الأيام في استخدامها الأمثل، وذلك باستثناء منطقة البلقان التي حظيت بدراسات جيدة عن الفترة العثمانية - وإن كانت تتسم بدرجة من التحيز -

معتمدة على السجلات العثمانية الموجودة في صوفيا وسارايفو. صحيح أن العرب والإيرانيين والأتراك منشغلون الآن في إعادة دراسة تاريخهم في أواخر العصور الوسطى وفي العصور الحديثة، إلا أن ماركسيتهم لا تذهب أبعد من إدانة الإقطاع (وهو المصطلح الذي يُستخدم أساساً تعبيراً عن الفساد) والإمبريالية، (وهو المصطلح الذي يغطي كل أوجه العلاقات الاقتصادية والدينية والثقافية مع الغرب). وقد صدرت مجموعة أخرى من الكتابات الممتازة في التاريخ الاقتصادي في تركيا، بالأساس وفي مصر أيضاً، غير أنها قد كُتبت في معظمها بأقلام الباحثين الذين تأثروا إما بمدرسة أو بعلماء التاريخ الاقتصادي الكلاسيكيين البريطانيين.

ثالثاً: مذهب «أنّال» (Annales)

ويعوض مذهب «أنّال» (سجل تاريخي للأحداث تُسرد عاماً فعاماً) عن الكثير من عيوب المذهب الماركسي والمذهب الكليومتري. وليس هنا مجال دراسة هذا المذهب، غير أنه يمكن الإشارة إلى بعض أوجه قوّته.

١ ـ ركز هذا المذهب على الجغرافيا الإنسانية أو الطبيعية، بما في ذلك المناخ، وهي العناصر التي تم تجاهلها على نحو واسع، أو تمّ دراستها كثوابت من جانب المذهبين الآخرين. كما يمكن أن نشير على نحو اعتراضي إلى أنه في منطقة تقع على حافة نظم الأمطار الرئيسية (الموسمية، والأطلسية) مثل الشرق الأوسط، يكون تذبذب الأمطار متكرراً وذا أثر حاسم في الإنتاج الزراعي وأشكال النشاط الاقتصادي الأخرى، ومن ثم يمكن أن نستخدم تحديد دورات سقوط الأمطار استخداماً واسعاً عند تفسير عملية التغير الاجتماعي والاقتصادي[٣].

٢ ـ اهتم هذا المذهب اهتماماً كبيراً بمنظومة كاملة من العلوم المتصلة اتصالاً وثيقاً بالتاريخ الاقتصادي مثل علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والآثار وتاريخ الفن. ويعدّ هذا مهماً بالنسبة إلى منطقة الشرق الأوسط مقارنة بغيرها من المناطق إذ إن تلك المنطقة مرت في القرون السبعة أو الثمانية الأخيرة بتحولات اقتصادية واجتماعية أقلّ من تلك التي شهدتها أوروبا، وهو الأمر الذي يعني أن «هياكلها» القديمة (إذا استخدمنا أحد مصطلحات «أنال» (Annales)) قد بقيت في حالة أفضل، ولها اليوم أهمية أكبر. ويمكن الدراسات الجزئية التي درست مستوى القرية والحي والقبيلة ـ التي قام بها الجغرافيون ودارسو الاجتماع والأنثروبولوجيا من وجهة

(٣) انظر: Karl Butzer in: *Erdkunde xi* (1957).

نـظر تاريخيـة ـ أن تكون ذات أهميـة لا تقدّر في مسـاعدة عـالم التاريـخ الاقتصـادي. وبشكل أدق، لقد قام الأناليون بعمل رائع في مجال دراسات السكان، وهـو العلم الذي يعدّ بمثابة الطريق لفهم إحدى أهم القوى المحددة للتاريخ. فعلى سبيل المثال، قد يكون انخفاض عدد السكان الذي سبّبه وباء الطاعون من أهم الأحـداث في تاريـخ الشرق الأوسط، في الفـترة من عام ١٠٠٠ وحتى عـام ١٨٠٠ (انظر ميشيـل دولز، الـطاعون الأسـود في الشرق الأوسط). ويعني غياب السجـلات الكنسيـة في الشرق الأوسط أن العمل الذي تم إنجازه عن أوروبا في العصـور الوسـطى وأوائل العصـور الحديثـة لا يمكن أن يوجد له مثيل بالنسبة إلى منطقة الشرق الأوسط، غير أن السجلات العثـمانية تقدّم مصدراً بديلاً قد بدأ يستخـدم لتوه. وهنـاك اهتمام آخـر لمذهب «أنـال»، وإن لم يكن اهتماماً رائداً أو متميزاً، هـو الاهتمام بـالتاريـخ المسلسل، وخـاصة ذلـك المتصل بالأسعار. وليس لهذا أيضاً نـظير في الشرق الأوسط، إلا أنه من الممكن تقـديم الكثير في هذا المجال في ما يتعلق بالفترة العثمانية، على وجه الخصوص.

وينبغي أن نضيف أن دارس الاقتصاد المدرب يمكنه أن يلحظ أن تحليلات هـذا المذهب لا تتناسب مع قوّته الوصفيـة، وهو اللوم الـذي عادة مـا كان يـوجهه أنصـار المذهب الكليومتري؛ فهناك غياب شبه كامل لبناء النماذج واختبارها، إضافة إلى عـدم خضوع الإحصاءات المستخدمة ـ التي تم إعدادها بعـد جهد مضنٍ ـ إلى الاختبـارات الصـارمة التي اعتـاد الكليومـتريون إجـراءها. ويـردّ أنصار مـذهب «أنال» عـلى ذلك بـالقول إنـه ليس هناك أي منـطق في بناء هيـاكل نـظرية مـدروسة عـلى البيانـات غير الموثوق بها التي يقدمها التاريخ باستثناء الفترة الأكـثر حداثـة، وهم يدّعـون أن التاريـخ أقـرب إلى علم الأحياء منـه إلى الميكانيكـا والهيدروستـاتيكا، ومن ثم فهم أكـثر اهتماماً بالهيكل والنمو والتطور منهم بالتوازن. وفي هذا، فقد استحقوا تأييد كبير دعـاة التحليل الاقتصادي الحديث ألفريد مارشال[٤]. ونحن نتعـامل هنـا مع مسـألة منهجيـة جوهـرية حيث لا تتوقف المناظرات.

ويمكن قياس اسهام هذا المذهب في التـأريخ لمنـطقة الشرق الأوسط من خـلال كتـاب أندريـه ريمون الـرائد **الحـرفيون والتجـار في القاهـرة في القرن الثـامن عشر** (Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle) الـذي ربما يعـدّ أهم مـا كُتب عن مصر من دراسـات منـذ كتـاب وصف مصر لنـابليـون Description de L'Egypte وكتـاب دومينيك شيفـاليه وعمـر برقـان (Ömer Barkan)، ونتمنى لتلك الأعمال أن تتزايد وتنتشر. وينبغي أن نضيف أن هناك دراسات ممتازة أخرى عن شمال

(٤) Alfred Marshall, *Principles of Economics*, 8th ed.([n.p.: n.pb.], 1920), pp. 50, 315-316, 323, 461 and 777.

افريقيا قام بها باحثون مثل مياج، ونوان، ونوشي، وبونسيه، وديبوا، وفالنسي، ولكن تقع هذه الدراسات خارج نطاق هذا البحث.

رابعاً: مذهب التبعية (Dependence)

أما مذهب التبعية فهو مذهب انبثق أساساً عن أمريكا اللاتينية وعبّر عنه بقوة أندريه غندر فرانك، وأ. عمانويل، وسمير أمين. وينحصر اهتمام هذا المذهب في سؤال أساسي: لماذا يتمتع المركز الاقتصادي للعالم (أوروبا الغربية، الولايات المتحدة، واليابان أيضاً، ولكن كيف وصلت اليابان إلى المركز؟ وهو سؤال هام وحيّ كذلك) بالغنى الشديد، بينما تعاني الهوامش (أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا) الفقر المدقع؟ والإجابة هي أن الأول يتمتع بالتنمية في حين يعاني الثاني نمو التخلف وكأن الاثنين ملتصقان على نحو لا فكاك منه كالتصاق التوأم السيامي. وقد قامت رفاهية المركز على امتصاص موارد الهامش: «لقد أعطت كل هذه المناطق (في أمريكا اللاتينية) مثلها مثل البنغال في الهند إكسير الحياة للتنمية المركنتيلية والصناعية في المراكز الحضرية»[٥]. وعلى العكس من ذلك، لقد كان تأثير المركز على الهامش سلبياً بكل المعاني، وهو أمر ليس بالمستغرب إذ يتم كل تبادل على نحو استغلالي ـ إلا في ظل الإشتراكية، ومن ثم فإن المراكز الحضرية في أمريكا اللاتينية ـ حين أصبحت مراكز للتعامل وكذلك مراكز للاستغلال[٦]. وبكلمات أدق، يقول أنصار هذا المذهب ان دول الهامش تعاني الآتي:

١ ـ سُلبت ثرواتها المعدنية وانهكت أراضيها بزراعة المحصول الواحد، وتم استعباد أهلها أو إبادتهم في بعض الحالات.

٢ ـ تحت شعارات التجارة الحرة والانفتاح الزائفة، غزت السلع المصنعة البريطانية وغيرها، بما في ذلك الأمريكية، أسواق تلك البلدان، وقضت على صناعاتها الحِرفية، وحينما بدت بعض علامات التطور على بعض المصانع كما في بعض أجزاء أمريكا اللاتينية، تعثرت هي الأخرى بفعل المنافسة الأجنبية.

٣ ـ مثّل فائض الواردات الذي حققته بريطانيا وبعض دول أوروبا الأخرى في تجاربها مع البلدان الاستوائية منذ عام ١٨٧٠ فصاعداً تحويلاً ضخماً للموارد من تلك البلدان الأخيرة إلى الأولى[٧].

---

(٥) انظر: Frank in: James D. Cockcroft [et al.], *Dependence and Underdevelopment: Latin America's Political Economy* (Garden City, N.Y.: Anchor Books, 1972), p.14.

(٦) اقتباس مأخوذ عن: المصدر نفسه، ص ٥.

(٧) قدّمت هذه النظرية مؤخراً في مقال فرانك في مجلة: =

٤ ـ حتى التجارة المتوازنة، فإنها كانت تعني القليل، وذلك في ضوء حقيقة مؤداها أن كل التجارة بين المركز والهامش كانت مجرد تبادل غير متكافىء يكون فيه الهامش مجبراً على إعطاء أكثر مما يأخذ. والدليل الوحيد الذي يسوقونه (بصرف النظر افتراضياً عن الحقيقة التي مؤداها أنه طالما أن المركز يتمتع بالغنى بينما يعاني الهامش الفقر، فإنه لا بد أن يستغل الأول الثاني) هو التدهور المستمر في شروط التجارة بالنسبة إلى المنتجات الأولية. غير أن هذا التأكيد يتعارض مع الواقع التاريخي. ففي الفترة من عام ١٨٠٠ (أو ١٨٢٠) وستينيّات وسبعينيّات القرن التاسع عشر، كانت شروط المقايضة الصافية للتجارة البريطانية ـ وهي الوحيدة التي لدينا بشأنها معلومات كافية في فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ قد شهدت تدهوراً حاداً نتيجة الرخص الشديد للسلع المصنعة الذي تبعه ارتفاع ضئيل في الأسعار في هذه المناطق (الذي يرجع جزئياً إلى الهبوط الحاد في أسعار الشحن التي خفضت من أسعار الواردات تسليم ميناء الاستيراد) في الفترة من ١٩٠٠ ـ ١٩١٣ وتذبذبت قليلاً في ما بعد[٨]. وتوضح إحدى الدراسات المتعلقة بشروط التجارة بين فرنسا وأمريكا اللاتينية في الفترة ١٨٢٧ ـ ١٨٥٦، حدوث تحوّل حادّ لصالح أمريكا اللاتينية، وهي النتيجة التي تتفق، كما أشار الكاتب، مع نتائج أبحاث أخرى ولكنها تتعارض مباشرة مع نتائج

= *Journal of European Economic History,* vol. 2 (19-), pp.407-438.

وانظر أيضاً تعقيب كل من بول بايروتش وسيدني بولارد ثم رد فرانك في: المصدر نفسه، ص ٤٦٧ ـ ٤٧٤ و ٧٤٥ ـ ٧٥٣.

وقد أخذت الأرقام التي أتى بها فرانك من مقاله من العمل الرائد الذي قام به زميلي وصديقي الراحل فولك هيلغردت (Folke Hilgerdt) والذي لم يكن ليقدم نتائج من مقارنة أسعار صادرات تسليم ميناء الشحن f.o.b. وأسعار واردات تسليم ميناء الوصول c.i.f. للدول المتقدمة، حيث إن الأخيرة c.i.f. تتضمن مصروفات النقل والتأمين وغيرها من الخدمات المالية. إلا أن هذا لم يكن مصدر ضيق لفرانك إذ نظر إلى هذه الخدمات ـ افتراضياً ـ على أنها طفيلية. وقد ظهرت بعض الصعوبات الأخرى: فقد كان للولايات المتحدة الامريكية والدول الأوروبية فوائض صادرات متسقة، وهو الحال اليوم بالنسبة إلى اليابان وألمانيا، بينما تملك الصين والكثير من الدول الأخرى الفقيرة فوائض واردات. وانظر أيضاً: A.J. Lathan in:Ibid., vol.7, no.1, pp.33-60.

وانظر المناظرة بين بلات (D.Platt) وستانلي (Stanley)، وبربارا شتاين (Stein)، في:

Latin American Research Review, vol.15, no.1 (1980).

كما يبدو أن فرانك يعارض فرضية هوبسون ـ لينين التي تقضي بأن القوة الأساسية الدافعة للإمبريالية هي بحث الرأسماليين المتصل عن الأسواق ليلقوا فيها بفائض البضائع التي لا يستطيعون بيعها في بلادهم. وإذا كان الأمر كذلك، فإنهم بالتأكيد كانوا سيرون أن حكوماتهم لا تؤدي إلى تفاقم الصعوبات التي يواجهونها عن طريق السماح بفوائض واردات قد تستنزف قدراً من القوة الشرائية المحدودة لجماهيرهم الفقيرة.

(٨) انظر الجدول الذي قدّمه:

Brian R. Mitchell and Phyllis Dean, eds., *Abstract of British Historical Statistics* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1971), pp.331-332.

أبحاث كل من فرانك وسلزوفورتادو(٩). لقد شهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية تأرجحاً حاداً ولكنها لم تشهد أي اتجاه محدد للأسعار النسبية للسلع الأولية أو المصنعة. وعلى أية حال، فإنه من الجدير بالذكر، «أنه في سنة ١٨٨٣، وهي السنة الأولى التي لدينا عنها حسابات مؤكدة بلغ إجمالي حجم الواردات التي وصلت إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية الاستوائية حوالى دولار لكل نسمة في الدول المصدرة»(١٠). وهو الأمر الذي ربما لم يؤدِّ إلى زيادة غنى الأغنياء أو فقر الفقراء.

إن ما رفض أنصار مدرسة التبعية الاعتراف به هو أن ثروة المركز جاءت ـ في جزء منها ـ نتيجة عوامل طبيعية مثل المناخ الجيد، وارتفاع نسبة الأرض إلى السكان بعد أن خفّض وباء الطاعون من عدد سكان أوروبا، ولكنها جاءت ـ أساساً ـ نتيجة التقدم التقاني والاقتصادي المطرد الذي شهدته أوروبا منذ القرن الحادي عشر، وهو الأمر الذي رفع من إنتاجية الأرض بالنسبة إلى الفدّان، وبالنسبة إلى الفرد، وزوّد أصحاب الحِرف بكميات متزايدة من رأس المال الطبيعي (طواحين الهواء والماء، والسفن والمرافىء... الخ) ورأس المال البشري (التعليم والصحة) بما له من أثر في زيادة إنتاجية الفرد. ولا يكون من قبيل الاستغلال أن يكسب العنصر الأكثر إنتاجية دخلاً أعلى من العنصر الأقل إنتاجية. وبالطبع، فقد لعبت قوة المساومة المتفوقة والسلب والنهب في الامبراطوريات، دوراً، وإن كان صغيراً. أما في ما يتعلق بالتخلف الاقتصادي للهامش، فإن العامل الأكثر أهمية هو عامل لم يتم ذكره في كتابات مدرسة التبعية: «ومن ثم، ونتيجة لذلك، فقد أدّى غياب الثورة التقانية في مجال الزراعة ـ كتلك التي شهدتها أوروبا الغربية مدة قرنين من الزمان ـ (وربما مدة أطول من ذلك) ـ إلى إعاقة تنمية تلك الأقاليم، إلا أن هذه النظرة لا تحظى بقبول عام»(١١).

٥ ـ لقد حوّل استثمار رأس المال الدولة المستقبلة له إلى دولة تابعة للمركز، ولمّا كان حجم الاستثمار ـ الذي يعود مرة أخرى إلى المركز على مرّ السنين ـ يزيد على الاستثمار المتراكم في الهامش، وهو أمر لا بد منه طالما أنه يجب دفع الفوائد والأرباح،

---

(٩) J. Schneider, «Terms of Trade Between France and Latin America, 1826-1856,» in: Paul Bairoch and M Levy Leboyer, *Disparities in Economic Development Since the Industrial Revolution* (New York: St. Martin's Press, 1981), pp.110-119.

(١٠) William Arthur Lewis, *The Evolution of the International Economic Order* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, ©1978), p.5.

ولمزيد من التفاصيل، انظر:

William Arthur Lewis, *Growth and Fluctuations, 1870-1913* (London; Boston: G. Allen and Unwin, 1978).

(١١) Lewis, *Growth and Fluctuations, 1870-1913,* p.202.

(مالم تحدث خسارة ضخمة)، فإن الاستثمار يصبح إحدى قنوات نقل الموارد من المناطق الفقيرة إلى المناطق الغنية.

٦ ـ يتعرض البناء الاجتماعي للهامش لعملية تحوّل شديدة القسوة بفعل النفوذ السياسي والاقتصادي الخارجي. فالأوليغاركية الحاكمة تصادر أملاك فلاحيها وتستغلهم وتدخل بدورها في علاقة تبعية مع رأس المال الأجنبي (ان الطبقة المسماة البرجوازية الوطنية التقدمية في أمريكا اللاتينية ليست وطنية ولا تقدمية، وإنما هي «برجوازية كومبرادورية تابعة»، والطبقة العاملة ليست أفضل حالاً[١٢].

٧ ـ تتسم الحالة الراهنة للهامش بالكآبة وليس لها أي علامات للتحسن: «وهكذا لا يشكّل الناتج القومي الإجمالي المرتفع في بعض دول أمريكا اللاتينية (مثل المكسيك وبيرو) أي معنى من معاني التنمية بالطبع. «أما التصنيع فهو زائف»، فالقطاعات الصناعية في البرازيل والأرجنتين هي أبعد ما يمكن عن تحقيق نمو منذ ذلك الوقت (أي منذ الحرب العالمية الثانية)، بل إنها أصبحت أكثر تخلفاً من الناحية الهيكلية وأقلّ قدرة على توليد عملية تصنيع مستمر أو تدعيم النمو الاقتصادي ـ وهذه العملية هي التي تعانيها الهند أيضاً». وينبغي أن نضيف هنا أنه طوال ثلاثة عقود تقريباً، ظل هؤلاء الاقتصاديون يعلنون سنوياً عن انهيار التصنيع في البرازيل وغيرها من دول أمريكا اللاتينية، وهم يعطون ـ مع ذلك ـ أملاً واحداً: «وهو نموذج التصنيع السوفياتي الذي تحدد فيه الدولة ـ وليس طلب المستهلك ـ السلع (السلع الرأسمالية) التي يجب إنتاجها أولاً. ولكن لكي يحدث ذلك، يجب أن يكون هناك دولة على النمط السوفياتي أصلاً، أي أن يكون هناك بناء طبقي اشتراكي»[١٣]. وتكون المكافأة وفقاً لهذا الافتراض أن تصبح هذه البلاد اوزبكستان أو ألبانيا أخرى!

أين يقع الشرق الأوسط من هذا النموذج؟ قبل محاولة الإجابة عن هذا السؤال ينبغي الإشارة إلى أن الشرق الأوسط، على عكس أمريكا اللاتينية وافريقيا جنوب الصحراء، كان ذا اتصال وثيق بأوروبا مدة ألفي عام تقريباً وكان خلالها، الشريك الأقوى في معظم الحالات من الناحية العسكرية والاقتصادية، واستخدم قوّته على نحو كامل، وإن كان قد أصبح في المئتي عام الأخيرة على الجانب الآخر من المعادلة وتحديداً:

١ ـ لم يكن لدى مصر أي ثروة معدنية لكي تُسلب، كما أن أراضيها لم تدمَّر، إلا أنها عانت بعض المشكلات المائية وفقدان الراسب من الطمي، وهي المشكلات

(١٢) Cockcroft [et al.], *Dependence and Underdevelopment: Latin America's Political Economy,* pp.xviii and xxii.

(١٣) المصدر نفسه، ص xvi، ١٢ و١٤.

التي نتجت عن التحول من الري بالحياض إلى الري الدائم. ولم يتعرض سكان مصر للاستعباد ولا للإبادة بفعل الأمراض؛ بل على العكس فقد ازداد عددهم على نحو مذهل: فقد زاد عدد سكان مصر من ٣,٥ ملايين عام ١٨٠٠ إلى ١١,٣ مليوناً عام ١٩٠٧ وأكثر من ٤٠ مليوناً في وقتنا الحاضر، وذلك بالطبع ليس دليلاً على الرفاهية! وقد أدت الثروة النفطية إلى تحقيق ثراء فاحش لرؤوس الأموال الأجنبية التي اكتشفتها واستغلتها. ومنذ عشرينيات القرن الحالي وحتى أوائل الخمسينيات، وصل نصيب الحكومات المحلية من صافي الدخل الذي حققته هذه الصناعة إلى ٢٠ بالمئة فقط، وهي النسبة التي سرعان ما ارتفعت لتبلغ ٥٠ بالمئة أو أكثر، ومنذ عام ١٩٧٣ أصبحت أكثر من ٩٠ بالمئة أو ربما ٩٥ بالمئة[١٤].

٢ ـ في القرن الثامن عشر كانت السلع اليدوية الأجنبية قد اخترقت أسواق الشرق الأوسط، ومع الثورات التي لحقت بالصناعة والنقل ومع انفتاح الشرق الأوسط الذي جاء نتيجة المعاهدة التركية ـ الإنكليزية عام ١٨٣٨، تدفقت المصنوعات على المنطقة. وقد قضى ذلك على بعض الحِرف اليدوية في الشرق الأوسط، مما أدى إلى حدوث خسارة اقتصادية ومشكلات اجتماعية. وقد أعاقت المنافسة والنفوذ السياسي الأوروبي بلا شك نمو الصناعات الحديثة حتى قيام الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى وجود العديد من العوامل المحلية ـ أيضاً ـ التي أعاقت التصنيع[١٥].

٣ ـ توضح كل الأرقام المتاحة أن تركيا ومصر وإيران وغيرها من دول الشرق الأوسط كان لديها فوائض واردات في القرن التاسع عشر. ومن المفترض أن هذا قد تم تغطيته من ناحية باستيراد رؤوس الأموال ومن ناحية أخرى بتصدير الذهب والفضة المتراكمين عبر العصور. إلا أن الإحصاءات تتسم بدرجة عالية من عدم التأكيد، الأمر الذي يصعب معه الوصول إلى نتائج موثوق بها.

٤ ـ تؤكد المعلومات القليلة المتاحة أن سعر القطن المصري وغيره من الصادرات الشرق أوسطية كانت تتبع الاتجاهات العالمية. أما في ما يتعلق بشروط التجارة، فنجد

---

(١٤) لمزيد من التفاصيل التي تركز على الفترة من ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٠ انظر:

Charles Philip Issawi and Mohammed Yeganneh, *The Economics of Middle Eastern Oil* (New York: Praeger; London: Faber and Faber, 1963), chap.5.

(١٥) في هذا الموضوع ولموضوعات أخرى في هذا القسم نفسه، انظر:

Charles Philip Issawi, ed.: *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966); *The Economic History of Iran, 1800-1914,* Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.8 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1971), and Charles Philip Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914,* Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.13 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1980).

أن الشروط الخاصة بالقطن المصري تحسنت على نحو ملحوظ في الفترة من عام ١٨٢٠ حتى عام ١٩١٣، أما تلك الخاصة بالسلع الأخرى، فقد تبعت على الأرجح الاتجاهات العالمية. وقد ارتفعت شروط المقايضة بتجارة النفط على نحو ملحوظ.

٥ ـ استقبل الشرق الأوسط كميات كبيرة من رأس المال الأجنبي؛ في عام ١٩١٣ بلغ الدين العام والخاص للإمبراطورية العثمانية حوالى ١٠٠٠ مليون دولار، وكان ذلك هو الحال بالنسبة إلى مصر. أما إيران فقد كانت مدينة بما يزيد على ١٠٠ مليون دولار. كانت الديون العامة تتبدد كلها تقريباً بسبب بذخ الملوك وزيادة إجحاف شروط القروض، أما الديون الخاصة (التي كانت حوالى نصف الرقم الكلي) فكانت تسهم في التنمية. وقد مثلت خدمة الديون عبئاً ثقيلاً وأدت إلى استنزاف الموارد. وبطبيعة الحال، يمثّل الشرق الأوسط اليوم المنطقة الرئيسية لتصدير رأس المال إلى العالم، وهو التطور الذي يفتح آفاقاً مثيرة.

٦ ـ كان الهيكل الاجتماعي والسياسي للشرق الأوسط غير ملائم على الإطلاق للتنمية الاجتماعية والاقتصادية وذلك قبل التأثير الأوروبي بفترة طويلة. فكانت السلطة تتركز في أيدي العسكر والبيروقراطيين الذين كانت التنمية الاقتصادية والاجتماعية آخر ما يشغلهم. وربما لم يكن أصحاب رؤوس الأموال والمشروعات والساسة الأوروبيون مهتمين برفاهية الشعوب في تلك المنطقة، إلا أنهم ـ في محاولاتهم استغلال مواردها ـ شرعوا في القيام بالعديد من العمليات التي كان من شأنها، في النهاية، أن أدت إلى تقدم اجتماعي واقتصادي، فبدا مستوى معيشة الجماهير كأنه قد ارتفع ارتفاعاً طفيفاً. إلا أن الجزء الأكبر من الزيادة في الدخل امتصّه النمو السكاني الضخم، ورؤوس الأموال الأجنبية، وجماعات الأقلية[16]، وأصحاب الأراضي المحليون، والبرجوازية الوطنية الصغيرة الحجم.

٧ ـ وبالنظر إلى الحالة الراهنة للشرق الأوسط، هناك مجالات لاختلاف الآراء. إلا أنه لا يمكن أي شخص عاش خلال الخمسين أو الستين عاماً الأخيرة أن يشك في حدوث تقدم كبير. فقد استعاد المصريون والإيرانيون والأتراك والعراقيون والسوريون وغيرهم السيطرة على اقتصاداتهم، وهم يستثمرون أموالاً ضخمة في التنمية، كما أن بنيتهم الأساسية وصناعاتهم قد اتسعت على نحو ضخم. ويتصف السكان في تلك البلدان بأنهم أكثر صحة وأفضل تعليماً... الخ. غير أنهم لا يزالون معتمدين على الغرب (أو الاتحاد السوفياتي) في أوجه كثيرة. وهذه هي الحقيقة التي ليس من المحتمل

(١٦) Benjamin Braude and Bernard Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2vols. (New York: Holmes and Meier Publishers, 1982).

أن تتغير طوال سنوات مقبلة. وسواء اختاروا النموذج السوفياتي للاشتراكية أو النمط الغربي للتنمية، أو قاموا بتنمية اقتصاداتهم ومجتمعاتهم على طريقتهم الخاصة، فهذا قرار سوف يتخذونه بأنفسهم.

خامساً: التحليل الأخير

إلى أين يقودنا ذلك في التحليل الأخير؟ أخشى أن يكون قد قادنا إلى انتقائية ضعيفة البنيان هي تلك التي تكنّ لها كل المذاهب كراهية شديدة. فنحن في حاجة إلى نماذج وأدوات ومعلومات من أجل أن نخلق من التاريخ الاقتصادي علماً جيداً. كما أننا في حاجة أيضاً إلى نظرية. وكما قال ويرنر سومبارت «لا تأريخ حيث لا نظرية». ولكن في المرحلة البدائية التي نحن فيها، يمكن أن نفيد من الأدوات البسيطة والجادة وفي الوقت ذاته، ليس من الضروري أن تكون النظريات والمذاهب معقدة، في حين أنه من الضروري أن تتصف بالصحة والاتساق. وكما أشرنا في ما سبق، يمكن عالِمَ التاريخ الذي يدرس الشرق الأوسط أن يستفيد من كل المذاهب السابق ذكرها (بما في ذلك مذهب التبعية)، ولكن يتحتم عليه ألا يجعل نفسه عبداً لأي منها. كما أنه يستطيع أن يتعلم بالمقدار نفسه على الأقل من الباحثين الكلاسيكيين الذين وضعوا حجر الأساس لدراسة التاريخ الاقتصادي لأوروبا: ثورولد روجرز، كلابهام، وتاوني في إنكلترا، وأشر ونيف في الولايات المتحدة، وهنري سي، وبول مانتو في فرنسا، وعدد لا حصر له من الألمان والإيطاليين والسويديين وغيرهم، إذ انهم، وفوق كل شيء، قد واجهوا هذه المشكلات حينما كان العلم لا يزال وليداً، وهي المرحلة نفسها التي نعيشها اليوم في الشرق الأوسط، باستثناء أنهم بدأوا في وضع أفضل مما نحن فيه، وهذا ما يقوم به الآن حفنة من الباحثين الذين تغيّر أعمالهم جذرياً من معرفتنا بالتاريخ الاقتصادي للمنطقة. فقد استغل س. غويتين الثراء الشديد ـ الذي يبدو كأنه لا ينفد ـ لوثائق الجنيزة. وتبعه في ذلك أ. ل. يودوفتش. وقد أحسن أشتور استخدام السجلات الأوروبية والمصادر العربية وألقى مزيداً من الضوء على الاقتصاد العربي في العصور الوسطى. كما تؤكد الكتب والمقالات التي كتبها جسنين ربيع وصبحي لبيب وعبد الرحيم عبد الرحيم وعلي بركات أن هناك مدرسة جديدة واعدة تنشأ في مصر.

أما بالنسبة إلى الامبراطورية العثمانية، فالمادة أكثر وفرة والأبحاث أكثر تقدماً. وينبغي أن نضيف إلى أسماء كبار الباحثين مثل برقان وحليل انيالجيك وحليل سلحيليوغلو وروبرت مانتران وستانفورد شاو وكمال قربط، وكذلك أسماء محمد جينش وجوندوز اكجون، واسم باحث انكليزي شاب هو م. أ. كوك نظراً إلى دراسته الممتازة

عن السكان في القرن السادس عشر في الأناضول، وثلاثة من الباحثين الأمريكيين: بروس ماكغاون[١٧] الذي أوضح تأثير تطبيق التقنيات الإحصائية على الدفاتر العثمانية، ودونالد كواتيرت الذي سبر غور السجلات العثمانية وقدّم سلسلة قيّمة من الدراسات[١٨]، ورونالد جيننغز الذي قام بدراسة دقيقة عن دفاتر القرن السابع عشر[١٩]. وينبغي أن نشير في هذا الإطار إلى باحث سوفياتي واحد على الأقل[٢٠]. وقد أشار أحد علماء التاريخ الفرنسيين إلى كيفية استخدام المصادر الأجنبية على النمو الأمثل[٢١].

وقد جذبت مصر الحديثة أيضاً العديد من الباحثين الاكفاء الذين قدموا إلينا أعمالاً قيّمة أمثال: علي الجريتلي في بحثه عن الصناعة، وهيلين ريفيلين وغابريال بير وأحمد الحتة وروجر أوين، واوبراين وبنت هانسن عن الزراعة، وجوستين مكارثي عن السكان، وكروتشلي وباحث سوفياتي آخر هو ل. أ. فريدمان عن استثمار رأس المال. أما بالنسبة إلى إيران فتظل أ. ك. س. لامبتون تقف وحيدة في مكانها وبارزة. وتنتظر أجزاء أخرى من المنطقة دورها في البحث والدراسة، غير أن المرء يمكنه أن يشعر بالثقة من أن العقود المقبلة ستشهد أعمالاً على درجة عالية من الجودة في مجال التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط[٢٢].

---

(١٧) Bruce McGowan, «Food Supply and Taxation on the Middle Danube, 1568-1579,» *Archivum Ottomanicum,* vol.1 (1969), pp.139-196.

(١٨) Donald Quataert, «Ottoman Reform and Agriculture in Anatolia, 1876-1908,» (Unpublished Dissertation, U.C.L.A., 1973).

(١٩) Ronald Jennings, «Loans and Credit in Early Seventeenth Century Ottoman Judicial Records,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (1973).

(٢٠) O.G. Indzhikyan, *Burzhuaziya Osmanskoi Imperii* (Erevan: [n.pb.), 1977).

(٢١) Jacques Thobie, *Intérêts et impérialisme français dans l'empire ottoman, 1895-1914,* préface de Jean-Baptiste Duroselle, série sorbonne; 4 (Paris: Impr. national, 1977).

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، انظر:

Charles Philip Issawi: «Economic History of the Middle East to 1914,» *Middle East Studies Association Bulletin,* vol.2, no.2 (1968), and «Economic History and the Middle East,» *Middle East Studies Association Bulletin,* vol.8, no.1 (1974).

الفصل الثامن

تغيّر الإدراك الغربي للشرق

كثيراً ما وُجّه اللوم إلى الغرب بسبب توجهه المتسم بالازدراء والرغبة في الهيمنة بالنسبة إلى الشرق[1]. وقد انطوى هذا الاتهام على قدر كبير من الحقيقة ولكنه يتطلب الإشارة إلى تحفّظين اثنين:

التحفظ الأول، اتسمت كل حضارة جديرة بالاحترام بالعجرفة والاشمئزاز تجاه الأجانب. فقد كان اليونانيون يشكرون الآلهة لأنهم خُلقوا يونانيين وليسوا بربريين، رجالاً وليسوا نساءاً، أحراراً وليسوا عبيداً. ولم يُخفِ الصينيون رعبهم مما أسموه «الشياطين الأجنبية الدميمة» التي جاءت إلى شواطئهم. ولا يبدو أنهم قد اهتموا على نحو جادّ ـ ولمدة ألفي عام أو ما يزيد ـ بأي مجال من مجالات الثقافة الأجنبية باستثناء البوذية الهندية، وصناعة السجاجيد والخزف الفارسي. وفي عام ١٧٩٣، عبّر الامبراطور عن توجه بلاده إزاء أوروبا بقدر من الحكمة والذكاء، وإن لم يكن باللباقة الكافية، وذلك من خلال ما قاله للمبعوث البريطاني الذي جاء يسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية:

«إذا كان احترامكم وتبجيلكم لسلالتنا المقدسة يملأكم بالرغبة في استيعاب حضارتنا، فإن احتفالاتنا ونظم قوانينا تختلف كلياً عن تلك التي تملكونها، وحتى إذا كان مبعوثكم قد تمكّن من استيعاب مبادىء حضارتنا، فإنكم لن تستطيعوا نقل عاداتنا وخصوصيتنا إلى أرضكم الغريبة عنا. لقد اخترقت الفضيلة الرائعة لحضارتنا كل البلدان على وجه هذه الأرض، وقدّم ملوك كل الأمم الإتاوات الباهظة عبر البر والبحر. وكما يرى سفيركم بنفسه، فإننا نملك كل شيء. وأنا لا أجد قيمة

---

(١) انظر على سبيل المثال: Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, c1978).

للأشياء الغريبة أو المبتدعة، لذا لا أجد أي فائدة لصناعات بلدكم»[٢].

وكان التوجه الهندي بسيطاً، إذ يصبح كل من سافر إلى أرض غريبة كائناً ملوثاً. أما بالنسبة إلى المسلمين في القرن الرابع عشر، فقال ابن خلدون العظيم انه بسبب سوء المناخ فإن أخلاق الزنوج «قريبة من خلق الحيوانات.. وكذلك الصقالبة»[٣]. وعلى الرغم من النظرة إلى الأوروبيين التي كانت سائدة آنذاك والتي اعتبرتهم كاملي الإنسانية، بل وعلى درجة عالية من التحضر، إلا أنه لا ابن خلدون ولا من جاؤوا قبله أو بعده بذلوا أي جهد ولو طفيف لمحاولة تعلّم لغاتهم أو دراسة ثقافاتهم. وفي القرن الثاني عشر، حين وصف الرحالة ابن جبير جزيرة صقلية وغيرها من الأراضي المسيحية، فإنه لم يعرب عن أي اهتمام بعادات سكان تلك المناطق أو بمؤسساتهم، بل إنه لم يكفّ عن استنزال لعنات الله على أولئك «الكفرة». ويمكن ذكر أضعاف مثل هذه الأمثلة. وحينما أخبر السفير الفرنسي في منتصف القرن السابع عشر الصدر الأعظم محمد كوبريللي أن مولاه قد استولى على مدينة أراس القوية من الإسبان، لم يكن رد الصدر الأعظم أكثر من: «ماذا يهمني فيما إذا كان الكلب هو الذي يعض الخنزير أو الخنزير هو الذي يعضّ الكلب، سوى أن يكون رأس سيدي في أمان؟»[٤]. وعلى صعيد آخر، خلص نعيمة ـ وهو من معاصري نيوتن ولايبنز وأولر ـ من دراسته المستفيضة لأعمال عدد من الباحثين العثمانيين المتواضعين إلى هذه الملاحظة:

«ويكفي هذا جداً لإيقاظ غيرة المسيحيين: ـ إذا لم يكن هذا يروقك، فأعرض عنه ولا تحفل به»[٥].

أما **التحفظ الثاني**، فمفاده أن الأوروبيين (والأمريكيين) قد أبدوا اهتماماً وولعاً فيما يتعلق بالثقافات الأخرى قد يعدّ فريداً في نوعه في التاريخ البشري، وهو ما يشهد به ما استخرجوه أو اشتروه أو نهبوه من أرجاء المعمورة كافة. وبذلك فكوا رموز الكثير من النصوص المكتوبة التي ظلت غير مفهومة آلاف السنين، كما قاموا بتحرير المخطوطات القديمة وترجمتها وأحيوا للعديد من الشعوب عهوداً مجيدة كانت منسية في

---

(٢) جاء ذلك في: Arnold Joseph Toynbee, *A Study of History* (London: Oxford University Press, 1934), vol.1, p.161.

(٣) Ibn Khaldūn, *Prolégomènes d'Ebn Khaldoun,* texte arabe publié d'après les manuscrits de la bibliothèque impériale par M. Quatremère (Paris: Institut impérial de France, 1858), vol.1, p.150.

(٤) Paul Rycaut (Sir), *The History of the Present State of the Ottoman Empire* (London: Printed by T.N. for Starkey, 1682), p.167.

وتشير معاملة السفراء الأجانب كما وصفها ريكو إلى نوع من عدم الاحترام للدول التي كانوا يمثلونها. وتشكل رواية ريكو مشكلة ما، إذ تم فتح أراس عام ١٦٤٠ ولم يصبح كبريللي صدراً أعظم إلا في عام ١٦٥٦.

(٥) Mustafa Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era,* translated by Charles Fraser (London: John Murray, 1832-) vol.1, p.9.

تاريخهم. وهنا أيضاً يكون من الملفت للنظر ذلك التناقض مع الحضارات الأخرى. وعلى قدر معرفتنا، لم يكلّف اليونانيون ولا الرومان أنفسهم عناء قراءة النقوش التي كتبت بالهيروغليفية أو بالخط المسماري، وباستثناء واحد أو اثنين ذكرهما ياقوت في كتابه «معجم الأدباء» لم يتعلم عربي مسلم واحد اللغة اليونانية، ولم يُبدِ أحدهم أي اهتمام يذكر بالحضارة الرومانية رغم وجود الآثار الرائعة على طول المنطقة التي تمتد من سوريا إلى إسبانيا، ورغم وجود عدد كبير من السكان المسيحيين الذين كان من الممكن أن يعلّموهم اليونانية أو اللاتينية. وكان هذا أيضاً هو حال الهنود والصينيين.

إلا أن الواقع يؤكد أن توجه أوروبا إزاء الشرق ـ الصين والهند والإسلام ـ قد تغيّر على نحو ملحوظ بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ أصبح توجهاً يتسم بقدر أكبر من العجرفة. وتستحق أسباب هذا التغيّر الاهتمام، وهي تظهر بجلاء عند دراسة حالة الصين.

أولاً: أسباب التغيّر

حتى نهاية القرن الثامن عشر، كان الأوروبيّون يميلون إلى الإحساس بالرهبة إزاء الصين، إذ كان لحجمها وعدد سكانها وثروتها أثر كبير في نفوسهم. وقد تحدّث هيوم عن «السعادة والثراء اللذين تمتعت بهما الصين والسياسات الحكيمة التي اتّبعها أهلها»[6]. أما مالتوس الذي كان ذا نظرة متشائمة إلى الأشياء بوجه عام، فقد أعلن أن الصين كانت أغنى دولة في العالم. وكان محقاً بالتأكيد إذا كان يشير في ذلك إلى مجموع الناتج القومي الإجمالي، بيد أنه حتى في حالة ما إذا كان المعيار هو متوسط دخل الفرد، فقد كان للصين أيضاً مكانة مرتفعة في هذا المضمار. غير أن إعجاب الأوروبيين بالصين قد ذهب إلى أبعد من ذلك الحد. فقد انبهرت أوروبا في عصر التنوير بدولة لا يحكمها الكهنة وإنما يحكمها الفلاسفة. وكانت تعقد المقارنات بين التسامح الكونفوشيوسي والاضطهاد المسيحي. ففي مجتمع تتفشى فيه المحاباة، كان يُنظر إلى جهاز الخدمة المدنية الصيني ـ الذي يتم التعيين فيه على أساس الامتحانات ـ كنموذج ينبغي محاكاته. وما الولع بالزخارف الصينية في مجال الفن إلا أحد أعراض الافتتان الأكثر عمومية لدى الأوروبيين بالصين[7].

ويمكن توضيح التغير المفاجىء في الإدراك من خلال الاستشهاد بعبارتين:

---

(٦) David Hume, «Of the Rise and the Progress of the Arts and Sciences,» in: David Hume, *Essays: Moral, Political and Literary* (London: Oxford University Press, 1963).

(٧) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع وموضوعات أخرى، انظر: Raymond Dawson, ed , *The Legacy of China* (Oxford: [n.pb.], 1964), chap. 1.

الأولى من مقدمة شللي (Shelley) لكتابه اليونان (Hellas) الذي وضعه في عام ١٨٢١ التي يحث فيها أوروبا على مساعدة اليونان في صراعها من أجل الاستقلال: «ولكن بالنسبة إلى اليونان، فإننا ربما لا زلنا بدائيين أو وثنيين، أو نكون قد وصلنا - وهو الأسوأ - إلى تلك الحالة من الركود والبؤس التي تعيشها المؤسسات الاجتماعية التي تملكها الصين واليابان». أما العبارة الثانية فقد جاءت بعد ذلك بثلاثين عاماً، وكان دو توكفيل أكثر وضوحاً؛ ففي مناقشته لولع عصر التنوير بالصين التي كانت في ذلك الوقت لا تزال غير معروفة جيداً، يقول: «تلك الحكومة البربرية الحمقاء التي يستطيع حفنة من الأوروبيّين السيطرة عليها وقتما شاؤوا، بدت لهم كأنها النموذج الأمثل الذي يجب أن تحتذيه كل بلدان العالم، كانت تمثل بالنسبة إليهم، ما كانت تمثّله في ما بعد انكلترا، ومن بعدها أمريكا بالنسبة إلى الفرنسيين»[٨] ولم تعد الخصائص المميزة للصين هي الاستقرار والنظام والتسامح والحكم الفعال والرفاهية، وإنما أصبحت الفقر والقمع والجهل - وفوق كل شيء - الركود.

وقد أعطى تاريخ الصين التعس في القرن التاسع عشر هذه النظرة مصداقية. فقد تحللت الامبراطورية سياسياً وانهارت اقتصادياً، وكانت الفياضانات والمجاعات متكررة ومدمرة. وانتشر الأفيون - الذي دفع به البريطانيون إلى الصين - بين السكان الذين كانوا يعانون انهياراً معنوياً. وقد ثبت عجز الصين أمام العدوان الخارجي والتفسخ الداخلي غير مرة. وقد أدى التغير في التوجه الأوروبي في مجالين أساسيين إلى تحويل ما كان يُنظر إليه على أنه فضائل صينية إلى اعتباره شروراً لا يمكن التسامح بشأنها، فقد أدى إحياء المسيحية إلى رعب شديد من «اللاألوهية» الصينية. كما أدى تطور الحس التاريخي إلى عقد مقارنة بين ماضي أوروبا وماضي الصين، وهي التي كانت في غير صالح الأخيرة. وربما يكون كارل ماركس أفضل من عبّر عن ذلك. فعلى حين أنه قد قبل الاقطاع الغربي باعتباره مقدمة ضرورية تؤدي إلى الرأسمالية والاشتراكية، فإنه لم يرَ أي مستقبل في النظام الآسيوي للإنتاج وتطلّع بشغف إلى فنائه على يد الرأسمالية والامبريالية الأوروبية[٩].

أما بالنسبة إلى الهند، فقد حدث تحوّل مماثل وإن كان أقل حدّة:

«كانت الهند دائماً في التصور الأوروبي أرض الثروة الطائلة والأحداث الغامضة، وهي الأرض التي تتمتع بما يزيد عن النصيب العادي من الحكماء. وقد ظل الربط بين الهند وبين الثروة والسحر والحكمة سائداً قروناً عديدة. غير أن هذا الاتجاه قد بدأ يتغيّر في القرن التاسع عشر حين دخلت أوروبا العصر الحديث، وأصبح عدم الاهتمام بالثقافة الهندية في بعض الدوائر مساوياً للحماسة المبالغ

---

(٨) Alexis de Tocqueville, *L'Ancien régime et le révolution,* book 3, chap.3.

(٩) Dawson, ed., Ibid.

وانظر أيضاً: «The British Rule in India,» in: Karl Marx, *Pre-Capitalist Economic Formations,* translated by Jack Cohen; edited and with introduction by Eric J. Hobsbawm (New York: International Publishers, 1965).

فيها لها والتي سادت من قبل. وقد اكتشف الناس أن الهند لا تملك أياً من المقومات التي كانت تثير إعجاب أوروبا الحديثة»[١٠].

ويمكن إرجاع هذا التغير في التوجه إلى نهضة أوروبا الهائلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي عبرت عن نفسها بوضوح في التوسع الضخم في العلوم والإرساليات العلمية، والانقلاب الصناعي ونمو القوة التقنية والعسكرية التي نشرت السيادة الأوروبية في العالم كله[١١]. وكان هناك عاملان آخران مهمان؛ فكما أشرنا فيما سبق، أدى إحياء الديانة المسيحية إلى ازدراء الديانة الهندية وغيرها من الديانات الآسيوية. وثانياً، فإن التأكيد على التفكير الرشيد والاهتمام المبالغ فيه بكل من التقدم والحرية السياسية أدى إلى احتقار عميق للحضارات التي تفتقر إلى أي من هذه الاعتبارات. وينبغي أن نضيف إلى هذا وضع المرأة، فقد تمتعت المرأة الأوروبية والأمريكية عموماً بحرية أكثر من المرأة الشرقية، وشهد القرن التاسع عشر العديد من النداءات التي طالبت بالمزيد من تحرر المرأة. وقد أدت بعض الممارسات الشرقية ـ مثلاً تعدد الزوجات وحرق الأرامل في الهند، والحجاب والفصل بين الجنسين في العالم الإسلامي، وتقييد القدم في الصين ـ إلى تأكيد الاعتقاد المتزايد بالتفوق الغربي. ونستشهد هنا بالكلمات التالية: «من الواضح أنه لم يكن هناك تأكيد على قيم التفكير الرشيد والفردية. وقد كانت الثقافة الهندية ثقافة جامدة وكان يُنظر إليها باحتقار شديد، وهو التوجه الذي عبّر عنه ماكولي أحسن تعبير، وذلك في احتقاره لكل ما هو هندي، وقد أدينت المؤسسات السياسية في الهند ـ التي نظر إليها على أنها حكم المهراجا والسلاطين ـ وذلك باعتبارها تتسم بالاستبدادية ولا تمثّل الرأي العام على الاطلاق، وفي عصر الثورة الديمقراطية كان هذا هو أسوأ الخطايا»[١٢].

والآن يقف الغرب «الحر» التقدمي المزدهر الرحيم، ضد الشرق الذليل، الفقير، الراكد، القاسي. وقد نبعت هذه الصورة من خبرة تاريخية عميقة لم يكن من الممكن استبعادها. وقد كان هيوم متأكداً من أن أوروبا في ذلك الوقت كانت تفوق اليونان وروما، ومن ثم تفوّق الإنسانية كلها على المستويين السياسي والاقتصادي. في هذه الأيام لم يكن هناك وسط بين الارستقراطية القاسية اليقظة التي تحكم رعايا ساخطين، وبين الديمقراطية الاستبدادية المتمردة التي تموج بعوامل عدم الاستقرار. وفي الوقت الحالي لا يوجد جمهورية واحدة في أوروبا من أدناها إلى أقصاها لا تستحق التبجيل بسبب العدل والاستقرار والتساهل بما يناظر أو يفوق بكثير حال مرسيليا

---

(١٠) Romila Thapar, *A History of India,* Pelican Books; A 769 (Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1966), vol.1, pp 15 - 16.

(١١) في هذه النقطة الأخيرة، انظر:
Daniel R Headrick, *The Tools of Empire: Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century* (New York: Oxford University Press, 1981).

(١٢) Thapar, Ibid., p.16.

ورودس أو أكثر الامبراطوريات القديمة إثـارة للاعجـاب والفخر، فكلهـا تقريبـاً تقوم على ارستقراطيات معتدلـة، وهناك الكثـير من الجوانب الأخـرى التي تبدو فيهـا الأمم السابقة أقل مكانة مقارنـةً بالأمم الحـديثة، وذلـك فيما يتعلق بسعـادة البشر ونفعهم. فلم تكن التجارة أو الصناعـة بأيـة حال مـزدهرة عـلى النحو الـذي هي عليه الآن في أوروبا[١٣].

وبعد ذلك بحوالى ثمانين عاماً، كان ماكولي أكثر حسماً، فقـد أكد أكـثر من مرة أن انكلترا في عصره كانت أكثر حرية وثراء وتقدماً من الناحية الفكرية عما كـانت عليه في أي وقت مضى.

ولم يضعف الإحسـاس بالتقـدم والتفوق الأوروبيـين إلا حين بـدأت أوروبا في الانحطاط فيما بعـد حربهـا الاهلية (١٩١٤ ـ ١٩٤٥)، وانتشـار الكساد الـذي ضرب أطنـابه بـين هذين التـاريخين وصعـود نجم هتلر، وبـدايـة ازدهـار القـوة العسكـريـة والسيـاسية والاقتصـادية للدول الشرقيـة مثل اليـابان والصـين ـ وبدرجـة أكثر بـطئاً ـ الهنـد. وفي الـوقت نفسـه ـ وإن لم يكن عـلى نحـو مـتزامن ـ بـدأت أوروبـا تكتشف الجوانب الرائعة في فنون تلك البلدان ودياناتها وفلسفاتها.

ثانياً: تطور الإدراك الغربي للإسلام

وقد اختلف تطور الادراك الغـربي للاسـلام عن ذلك كثيـراً، فلم يكن لأوروبا أن تنتـظر حتى القرن السـادس عشر لتكتشف الاسـلام الـذي كـان بمثـابـة الحضـارة الأجنبية الوحيدة التي تمكنت من بسط سيطرتها على أرض أوروبيـة. ومنذ ميـلادها في القرن السابع، كانت الحضارة الغربيـة على وعي بخـطورة وجود الإسـلام الذي يمثّـل تهديداً لها باعتباره قوة ايديولوجية وسياسية وعسكرية هائلة في اسبانيا وفرنسا وإيطاليا. وقد تعاظم هذا التهديد ثم خبا، وتحـولت قوتـه إلى شرق أوروبا ووسـطها، ولكنـه لم يتلاشَ حتى مطلع القـرن الثامن عشر[١٤]. وفي خـلال الألف عام التي تخللت ذلـك، احتفظت كل من الحضارتين بصورة عدائية عن الأخرى، وكانت كلمة **حملات صليبية** تستثير ردود أفعال إيجابية بين المسيحيين مثلها مثل كلمة **الجهاد** بين المسلمين، رغم مـا تحدثه هـذه الكلمات من أثر معـاكس لدى الحضـارة الأخرى. وحـين استولى الجنـرال

---

(١٣) David Hume, «Of the Populousness of Ancient Nations,» in: Hume, *Essays· Moral, Political and Literary.*

(١٤) Charles Philip Issawi «The Christian - Muslim Frontier in the Mediterranean: A History of Two Peninsulas,» *Political Science Quarterly* (December 1961).

ألنبي على القدس، قيل في ذلك الوقت إنه أشار إلى الحملات الصليبية[15]، ويقال إن الجنرال غورو وقف بعد ذلك بثلاثة أعوام على قبر صلاح الدين في دمشق وقال: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين». وقد أطلق ايزنهاور على كتابه اسم الصليبية في أوروبا؛ وبالمثل، أطلق الجزائريون في كفاحهم ضد الفرنسيين. والفلسطينيون في كفاحهم ضد الإسرائيليين، على أنفسهم، لفظ مجاهدين.

غير أنه من الخطأ القول إن الإسلام والمسيحية قد تفاعلا معاً فحسب في حالة الحرب، فبسبب أصلهما المشترك، وتقارب مذاهبهما الأساسية رغم تشعُّبها، وتعدُّد نقاط الاتصال المادي بينهما وكبر عدد تابعيهما (وهو الأمر الذي سرعان ما أكد أن كليهما قد وُجد ليبقى)، كان عليهما أن يتوصلا إلى اتفاق في مرحلة مبكرة. وقد تعامل محمد ﷺ مع تلك المشكلة منذ بداية رسالته النبوية، وقد تجرح الصورة التي رسمها للمسيحية والمرتبة الأدنى التي حددها للمسيحيّين واليهود، إحساسنا، إلا أنها الصورة التي بقيت من الناحية العملية دون أدنى تغيير حتى الوقت الحاضر. وعلى الجانب الآخر، بذل القديس يوحنا ـ الذي عاش في دمشق (٦٧٥ ـ ٧٤٩) والذي كان يعرف العربية ـ محاولات جادة من أجل فهم الاسلام وتفنيده. ولكن المعرفة بالإسلام في أوروبا الغربية كانت محدودة، كما اتسمت النظرة إلى معتقدات المسلمين وممارساتهم بالتطرف وعدم الدقة، فسادت النظرة التي مؤداها القول، مثلاً، إن المسلمين يعبدون ثلاثة أصنام: الماهوند والترافاجنت، وأبولو. وقد قام الباحثون الأوروبيون لفترة قصيرة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر بجهد جاد لدراسة الإسلام والفكر العربي، ولكن سرعان ما انتهى ذلك بظهور التهديد التركي. وليس هنا مجال مناقشة هذا الموضوع، الذي تمكّن دانيال والحوراني من دراسته بمهارة فائقة، ولست شخصياً أملك الأهلية له[16]. ويكفي أن نقول ان علاقة الحضارة المسيحية بالاسلام تختلف تماماً عن علاقتها بالهند والصين واليابان. فكانت تانك الحضارتان بمثابة «الإخوة الأعداء»، تنظر كل منهما إلى الأخرى وتعتقد أنها صورة لها ولكن من خلال مرآة مشوهة، فتتراجع في رعب.

وأخيراً، بدأت الحماسة الدينية في التراجع في أوروبا، وأخذت الدراسات

---

(١٥) غير أن مؤلف سيرته الذاتية يؤكد أن اللنبي: «كان يشعر دائماً بالضيق إذا ما وصفت حملته بأنها «صليبية»، وقد أشار إلى أن عدداً من قواته بالإضافة إلى المساعدات الهامة من الإبل وفرق العمل المصريين كانت مسلمة وليست مسيحية».

(١٦) D. Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinhurgh: [n.pb.], 1960); Albert Habib Hourani, *Europe and the Middle East,* Macmillan Series (London: Macmillan, 1980), and Richard William Southern, *Western Views of Islam in the Middle Ages* (Cambridge, Mass.. Harvard University Press, 1962).

الشرقية بدءاً بالدراسات العبرية والسريانية والعربية في التطور. وقد أدى تزايد المعرفة في بعض الأحيان إلى بعث الاحترام والمحبة المتبادلين، فوصف بوسبك ـ وهو أحد السفراء لدى تركيا، في القرن السادس عشر ـ المؤسسات العثمانية بدقة وإعجاب(١٧). وفي بدايات القرن الثامن عشر أولعت السيدة ماري ورتلي مونتاغيو بالطرق التركية(١٨). وقد أقيمت أقسام لدراسة العربية وغيرها من لغات الشرق الأوسط في الكثير من الجامعات الرائدة في الغرب، وتم نشر ترجمات القرآن الكريم وروايات ألف ليلة وليلة وغيرها من الكلاسيكيات العربية والفارسية. وقد استفاد الإسلام من التوجه العلماني والعالمي إلى حركة التنوير في القرن الثامن عشر، وإن كان بدرجة أقل من استفادة الصين، وهو الأمر الذي تحدث عنه كل من لايبنز وفولتير وغيبون(١٩). وقد اهتم العديد من الكتاب والشعراء الرومنطيقيون ـ خاصة في ألمانيا ـ بالشعر الفارسي والعربي وقدموا الكثير من الموضوعات والصور الشرقية في أشعارهم.

ولكن حتى في أوج الاهتمام الروماني بالشرق الأوسط، فرض شبح اليونان نفسه. وكما أشار أحد علماء التاريخ الهنود «في أوروبا، ساد ـ بقوة ـ الاعتقاد بأن الحضارة اليونانية القديمة هي أعظم إنجاز حققته البشرية. ونتيجة لذلك كانت كل الحضارات المكتشفة حديثاً تقارن بالحضارة اليونانية القديمة، وهو الأمر الذي كان دائماً ما ينتهي لغير صالح تلك الحضارة ولصالح الحضارة اليونانية، وحتى في حالة وجود سمات خاصة تستحق الإعجاب كان هناك دائماً ميل إلى ربطها أيضاً بالثقافة اليونانية»(٢٠). في هذا الإطار عانى الإسلام ضعفاً اختص به: فقد غزا أرض اليونان القدماء واستأصل لغتهم وثقافتهم. كما كان تفنيد هيغل الحتمية الجغرافية مدمراً «يعيش الأتراك الآن حيثما كان اليونانيون يعيشون يوماً ما» ويقول أحد علماء التاريخ: «إن غزو الأتراك لآسيا الصغرى وتحويلها إلى دولة تركيا الحالية قد بدا دائماً للأوروبيين باعتباره أمراً يمثل بلا شك شيئاً غير مفهوم وغير مقبول بل ومهين إلى حد كبير»(٢١). لقد ارتكب الاسلام خطيئة

---

(١٧) Edward Morgan Forster, trans., *The Turkish Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq* (Oxford: [n.pb.], 1927).

(١٨) Robert Halsband, ed., *The Complete Letters of Lady Mary Wortley Montague* (Oxford: Clarendon Press, 1965-).

والعرب لم يكونوا محظوظين كثيراً، وقد وصف عيبون الامبراطور فيليب العربي بأنه عربي المولد وبالتالي لص بالمهنة. انظر: *Decline and Fall*, chap.7.

(١٩) Bernard Lewis, *Islam in History: Ideas, Men and Events in the Middle East* (London: Alcove Press, 1973); J.W.Fück, *Die Arabische Studien in Europa* (Leipzig: [n.pb.], 1955), and Maxime Rodinson, *La Fascination de l'Islam*, petite collection Maspéro; 243 (Paris: Maspéro, 1980).

ومن أجل الاطلاع على وجهة نظر غيبون عن الإسلام، انظر:

Bernard Lewis, «Gibbon on Muhammad,» *Daedalus* (Summer 1976), pp.89-101.

(٢٠) Thapar, *A History of India*, p.17.

برئت منها كل من الصين والهند واليابان. ولم تؤدِّ محاولة الأتراك قمع كفاح اليونانيين من أجل الاستقلال الذي أطلق عليه رئيس جامعة هارفارد في ما بعد إدوارد إيفريت حملة صليبية إلا إلى تعميق الإدانة.

وقد تلا العصر الرومنطيقي العصر الامبريالي، وتحولت العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي إلى الارتكاز على أسس جديدة، ألا وهي العلاقة بين المسيطر والخاضع: هولندا في جزر الهند الشرقية، وروسيا في أذربيجان وآسيا الوسطى، وفرنسا في شمال وغرب أفريقيا، وبريطانيا في الهند والشرق الأوسط وافريقيا، وإسبانيا في المغرب، وإيطاليا في ارتريا والصومال وليبيا، وقد سيطر كل هؤلاء بذلك على عدد ضخم من السكان المسلمين.

وقد كانت الحركات الإسلامية دائماً القوة الرئيسية المعارضة للتوسع الاستعماري في الجزائر والقوقاز والسودان وبرقة. وشعر الكثيرون أن أكثر أسباب المقاومة التي قامت بها تركيا وإيران وأفغانستان كانت بسبب الإسلام. وكان من الصعب أن نتوقع من الأوروبيين أن ينظروا بعين العطف إلى ثقافة وديانة سببتا لهم كل هذه المتاعب. وقد أدرك الأكثر حصافة من الأوروبيين أمثال اللورد كرومر أن الامبريالية الأوروبية الحديثة كان مقدَّراً لها أن تكون أسرع زوالاً من الحضارة الرومانية، وذلك بالأساس لأن الحضارة الأوروبية كان عليها أن تواجه قوى دينية وقومية نادراً ما واجهها الرومان[22]. غير أن قلة من الناس هم الذين استشرفوا المستقبل، وسرعان ما نظر معظمهم إلى الإسلام باعتباره العقبة الكؤود في وجه النظام والعدل والتنمية الاقتصادية والتنوير التي اعتقدوا أنهم قد أتوا بها. وقد لخص أحد الباحثين البارزين وهو السير وليام ميور هذه المشاعر حين كتب باختصار بعد الحرب العالمية الأولى: «ان سيف محمد والقرآن هما العدو اللدود للحضارة والحرية والحقيقة التي يكاد العالم أن يشهدها»[23].
ولا بد أن الآخرين من الإداريين الاستعماريين - من الفرس والمقدونيين والرومان

---

(21) Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material Culture and History, C. 1071-1330,* translated from the French by Jones Williams (London: Sidgwick and Jackson, 1968), p.64.
في العصور الوسطى جذب الأوروبيون إلى دراسة المصادر الإسلامية رغبتهم في تلقي الفلسفة والعلوم اليونانية من الترجمات العربية لها. ولكن بعد أن أصبحت المصادر اليونانية ذاتها متاحة في القرن الرابع عشر، وبدأت نظرة عالمية جديدة تبزغ في الأفق، عانت العربية الاحتقار العام لما سمي «البربرية القوطية». وقد عبر بترارك عن احتقاره لأسلوب الشعراء العرب والذين من المؤكد أنه لم يعرف أياً منهم. انظر: Rodinson, Ibid., p 51.

(22) Evelyn Baring Cromer, *Ancient and Modern Imperialism,* Questions of the Day Series (London: John Murray, 1910).

(23) William Muir (Sir), *The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall* (Edinburgh: J. Grant, 1924), cited by Hourani, *Europe and the Middle East,* p.34.

والعـرب والصينيين والعثـمانيين ـ كـانت لهم آراء مماثلة عن ثقـافة رعـايـاهم ودينهم، ولكنهم لم يكونوا على تلك الدرجة من الفصاحة ولم يكتبوا ذلك. وقد اصـطبغت آراء بعض المفكرين مثل شليغل وبروكهاردت وفيبر بهـذا التوجـه ـ وهم الذين لم يكن لهم أية صلة من أي نوع بالاستعمار ـ وكانوا يميلون إلى وضـع الاسلام في مكـان ما قـرب القاع في سلّم المعتقدات الإنسانية[٢٤].

وتجدر هنا ملاحظة أخرى: لقد ثبت أن العالم الإسلامي، أو عـلى الأقل الجـزء منه الذي يقع في شمال افريقيا والشرق الأوسط، هو منطقة لا يسهل استيعابها، إضافة إلى أنـه ليس بالـغ النفع. وقـد كـانت الخسـارة البشريـة لأوروبـا (الـبريـطانيـون في أفغانستان، الفرنسيون في الجزائر، والفرنسيون والإسبـان في المغرب، والإيـطاليون في ليبيـا وغيرهـم) كبـيرة إلى درجة لا يمكن مقـارنتها بـالخسارة التي منيت بهـا أوروبـا في مستعمراتها الأخرى مثل الهند واندونيسيا وافريقيا الوسطى. وباستثنـاء سنوات الـثراء النفطي ١٩٤٥ ـ١٩٧٣، حينما تحققت أرباح طائلة، كـانت الفائـدة الاقتصاديـة التي حققتهـا أوروبا من تلك المنـطقة منخفضـة إذا ما قـورنت بمنـاطق أخـرى مثـل الهنـد وأندونسيا وجنوب افريقيا ووسطهـا ـ بل وبـيرو والمكسيك في العصر الاستعـماري[٢٥]. هذه الحقيقة التي مقتها الأوروبيون لم تكن لتؤدي أبداً إلى زيادة التعاطف الأوروبي مع الإسلام.

وعلى المستوى الشعبي، كان هناك اتصـال جماهـيري غير مسبـوق بين المعسكـر الأوروبي (والأمريكيين) وبين المسلمين إبـان الحربـين العالميتـين. ولم يكن أي منهم في أحسن أحواله، ولم يبتهج أحدهما بما رآه من الآخر.

وقد تلا الامبريالية أخيراً مرحلة الاستقلال، وهي التي شملت العـالم الاسلامي مع غيره من بقية آسيا وافريقيا. وقـد حصلت كل البلدان العـربية في الشرق الأوسط وشمال افريقيا على استقلالها. وحصلت معظمها بسهولة عـلى الاستقلال، بينـما حصل عليه بعضها، مثل الجزائر، بعد كفاح طويـل بسبب وجود تكتـل كبير من المستـوطنين الأوروبين. وقد حـال عامـلان دون نمو عـلاقة وديـة بين الـدول المستقلة والدول التي كانت تستعمرها على نمط العلاقات الهندية ـ الانكليـزية أو الانـدونيسية ـ الهـولنديـة. فقـد أثّر قيـام إسرائيل ـ الـذي اعتبره العـرب بمثابـة تهديـد قاتـل ـ في تـوجههم إزاء أوروبـا، بل والـولايات المتحـدة بدرجـة أكبر. وقـد جعلت الحقيقـة التي مؤداهـا أن

---

(٢٤) Hourani, Ibid., pp.35, 62-72.

(٢٥) لقد درست هذا الموضوع باستفاضة في كتابي وشيك الصدور:

Charles Philip Issawi, *Economic History of the Middle East and North Africa Since 1800*, chap. 11: «The Balance Sheets».

العرب والإيرانيين يسيطرون على ثلثي احتياطي العالم من النفط كلاً من الأوروبيين والأمريكيين شديدي القلق إزاء تأمين شريان الحياة لاقتصادهم. وما كان يُعتبر اعتماداً من جانب الشرق الأوسط على الغرب تحوّل فجأة ليصبح اعتماداً غربياً كاملاً على الشرق الأوسط.

وقد خلق الفائض الهائل الذي ولّدته صناعة النفط المزيد من المرارة أولاً لدى الدول المنتجة التي تشكو من أنها تحصل على نسبة ضئيلة فقط من الأرباح، وثانياً لدى الدول المستهلكة التي أجبرت على دفع ما تعتبره أسعاراً شديدة الارتفاع، بل وتقوم على الابتزاز[٢٦]. وفي السنوات القليلة الأخيرة، اكتسب العرب والإيرانيون صورة جديدة سيئة هي صورة «مقرض الأموال ـ المرابي»، «وأغنياء العالم الجدد».

وقد شهدت السنوات القليلة الأخيرة ظاهرة أخرى هي ظاهرة الإحياء الإسلامي التي تُعدّ الثورة الإيرانية أهم إنجازاتها الملموسة حتى الآن. وقد أعجب بعض الغربيين بما تحمله في طياتها من مبادىء العدل الاجتماعي، والتضامن الجماعي، والطهارة، ورفض القيم الغربية (والعداء المبدئي للولايات المتحدة وأوروبا) ولكنهم نفروا من ضيق أفقها وكرهها الأجانب، وما تتسم به من عنف وعدم تسامح.

ومرة أخرى يبدو أن صورة المسلم أو المتطرف قد ترسخت بشدة في الوعي الشعبي، فلا يزال تراث الماضي التعس الطويل يعيش معنا، وسوف يظل يطبع كل الرؤى ويسمم العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامي فترة طويلة مقبلة.

---

(٢٦) Charles Philip Issawi and Mohammed Yeganneh, *The Economics of Middle Eastern Oil* (New York: Praeger; London: Faber and Faber, 1963).

فالأسعار منذ عام ١٩٧٣ تتحدث عن نفسها.

الفصل التاسع

لماذا اليابان؟

أولاً: لماذا اليابان، ولماذا ليس مصر؟

حقاً لماذا اليابان؟ لماذا اليابان وحدها دون بلدان افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية التي «فعلتها» في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟ ولماذا ليس العرب؟ لماذا ليس العراق، على سبيل المثال، الذي كانت ولا تزال إمكاناته عظيمة للغاية؟ قيل إن البرازيل هي أرض المستقبل، ولكن ذلك قيل طوال الأعوام الثلاثمئة الأخيرة. وكذلك كان حال العراق. ويمكن أن يذكر المرء العديد من التقارير التي كُتب خلال الأعوام المئة والخمسين الأخيرة والتي كانت شديدة التحمس للإمكانات الاقتصادية للعراق، إذ يجمع بين الأراضي الخصبة والثروة المعدنية والأنهار الصالحة للملاحة إضافة إلى قربه من الهند وتركيا وإيران ومراكز اقتصادية أخرى...

أو لماذا ليس مصر التي كانت ـ مع أخذ كل شيء في الاعتبار ـ البلد العربي ذا الوضع الأفضل في ما يتعلق بالتحديث؟ لقد طُرح هذا السؤال في ما سبق. ففي عام ١٩٥٢، وبعد أن انتهيت من مناقشة مسار تاريخ مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واستعراض البدائل الممكنة، كتبت: «لو كان قد قدِّر لمصر أن تُحكم في ذلك الوقت على يد حكومة وطنية ومستنيرة لكانت قد بزغت في القرن العشرين كصورة مصغرة لليابان»[١]. وكما غنّى مانون ودي غريو بحزن بيت أحلامهما: «من ذا الذي لم يحلم؟». وبعد ذلك بحوالى خمسة عشر عاماً تناول روجر أوين القضية على نحو أكثر شمولاً ودرس العوامل المتعددة التي مكّنت اليابان من تحقيق تنمية شاملة[٢]. وسوف تتبع هذه الدراسة خطاه،

---

(١) Charles Philip Issawi, *Egypt at Mid-Century: An Economic Survey* (London; New York: Oxford University Press, 1954), pp. 19-20.

(٢) Roger Owen, *Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development* (Oxford: Clarendon Press, 1969), pp. 356-364.

ولكنها تذهب إلى أبعد من ذلك بقليل وتشير إلى بعض الملامح الأخرى للصورة.

أكدت بعض الدلائل القليلة المتفرقة التي جُمعت في فترات مختلفة في القرن التاسع عشر أن مصر كانت في وضع أفضل من اليابان. خذ، مثلاً، إدراك الدولتين لما كان يحدث آنذاك في أوروبا. ففي القرن الثامن عشر، كان اليابانيون مهتمين على نحو أعمق، بل كان لديهم فكرة أكثر وضوحاً عن التقانة والعلوم في أوروبا بالمقارنة بالعرب (أو الأتراك). ولكن مع بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وبسبب البعثات التعليمية وإقامة المدارس على يد محمد علي في مصر، وإقامة المدارس الأجنبية في لبنان، انعكست الآية. فقد أبدى كتاب رفاعة الطهطاوي **تخليص الأبريز في تلخيص باريز** الذي نشر عام ١٨٣٤ فهماً قوياً للمجتمع والسياسة الفرنسية ولثورة ١٨٣٠، على وجه الخصوص... وكان يوسف حككيان الأرمني الذي تولى مدرسة الهندسة المصرية عام ١٨٣٠ ـ كما توضح كتاباته المفيدة ـ مصطبغاً بالصبغة الانكليزية إلى أقصى حد يمكن لأجنبي أن يكون عليه[٣]. أما في اليابان، فعلى العكس من ذلك، خلص فوجيتا توكو عام ١٨٢٦ ـ وهو وطني بارز وإن كان قليل المعرفة ـ معتمداً في ذلك على التشابه في شكل الملابس، إلى أن هولندا قد فقدت استقلالها لصالح روسيا، وأن اليابان تواجه تهديداً من جانب الغرب الكاثوليكي الذي يمثّل كتلة واحدة[٤].

أو خذ، مثلاً، التقييم الغربي التالي لليابان، الذي ساد قبل مئة عام مضت وبالتحديد عام ١٨٨١: «لا نعتقد أنها سوف تصبح غنية أبداً، فالمزايا التي منحتها إياها الطبيعة، باستثناء المناخ وحب الكسل ورغبات الناس أنفسهم، تنفي ذلك، فاليابانيون جنس سعيد، وبما أنهم يقنعون بالقليل، فإنه ليس من المرجح أن يحققوا الكثير».

أو التقييم التالي: «ان النظام البنكي الوطني في اليابان هو مجرد أحد الأمثلة على عبثية المحاولة التي رمت إلى نقل التطور الغربي إلى بيئة شرقية، ففي هذا الجزء من العالم تبدو المبادىء التي عُرفت وترسخت في الغرب وكأنها تفقد كل ما فيها من فضيلة وحيوية وتميل إلى الفساد والتهالك»[٥].
ووفقاً لرواية ماريوس جانسن، فقد أعلن كيبلنغ في حوالى عام ١٩٠٠ أنه «ينبغي ألّا يكون لليابانيين أية علاقة بالأعمال. فالياباني لا يمتلك أي ذكاء في مجال الأعمال». وتتساوى هذه التعليقات بالطبع مع العديد من الملاحظات والتعليقات السيئة عن

---

(٣) Ahmed Abdel-Rahim Mustafa, «The Hekekyan Papers,» in: P.M. Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* (London: [n.pb.], 1968), pp. 68-75.

(٤) Cyril Edwin Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia* (New York: Free Press, °1975), p.27.

(٥) جاء ذلك في: George Cyril Allen, *A Short Economic History of Modern Japan, 1867-1937* (London: Allen and Unwin, °1946), p.2.

العرب والمصريين التي نسوق منها هنا تلك التي جاءت على لسان اللورد كرومر[٦]: «إن عقل الشرقي ـ من ناحية أخرى ـ مثله مثل شوارعه المثيرة للانتباه ـ يفتقر إلى الاتساق، كما يتسم منطقه بدرجة عالية من عدم الدقة، وعلى الرغم من أن العرب القدماء قد استوعبوا علم الجدل، بدرجة كبيرة، إلا أن أحفادهم يتصفون بعجز واضح في مجال القدرات المنطقية، فهم في العادة غير قادرين على التوصل إلى النتائج شديدة الوضوح من خلال أي مجموعة بسيطة من المقدمات التي قد يعترفون بصحتها وسلامتها». أو بالأحرى هذه العبارة: «للشرق قدرة رائعة على استيعاب أسوأ ما في أي حضارة أوروبية ـ قد تنشأ بينها وبينه اتصال ـ ورفض أفضل ما فيها»[٧].

ولكن لماذا نعتمد على ما أعتقده المصريون أو اليابانيون عن أوروبا أو ما رأته أوروبا فيهم؟ هناك مؤشرات أكثر موضوعية تتعلق بالتنمية الاقتصادية ويمكن أن يستعين بها عالم الاجتماع. ففي عام ١٩١٣، كان متوسط دخل الفرد المصري من الناتج المحلي الاجمالي أعلى بقليل من اليابان، وكان نصيب الفرد من التجارة الخارجية المصرية (الواردات والصادرات) يساوي ضعف نصيب الياباني. وكانت شبكة السكك الحديد المصرية أكثر شمولاً من اليابان بالنسبة إلى المساحة المأهولة وعدد السكان[٨] وبالتأكيد كان لكل ذلك معنى ما.

إلا أن بعض الأرقام الأخرى كانت تقدّم رواية مختلفة، خاصة تلك الأرقام المتصلة بالتعليم والصحة ومعدلات المواليد والوفيات والإنتاج الصناعي والتكوين الرأسمالي وتطور مختلف المؤسسات الاقتصادية. وكانت تلك الأخيرة هي الأكثر حسماً. وقبل أن نقوم بتحليل كل تلك العناصر على نحو أكثر دقة في محاولة لفهم طبيعة المعجزة اليابانية، دعوني أركّز مرة أخرى على ما كان لدى مصر في القرن التاسع عشر من متطلبات التحديث.

١ ـ فقد كانَ هناك التجانس المصري، فليس في مصر أقليات إثنية أو لغوية، وليس هناك سوى أقلية دينية مستوعبة بالكامل. واتسم أهلها بأنهم كلهم تقريباً من أبنائها الأصليين، بل اتصفوا بالتجانس الشديد في صفاتهم الاجتماعية. والفارق بين مصر والأجزاء الأخرى من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في هذا الصدد فارق هائل، وتكون المقارنة أيضاً في صالح مصر إذا ما عُقدت بينها وبين أجزاء أخرى من العالم، بما في ذلك العديد من بلدان أوروبا.

---

(٦) Evelyn Baring Cromer, *Modern Egypt* (New York: Macmillan, 1908), vol.2, pp. 146-147.

(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٨) لمعرفة الأرقام، انظر: Charles Philip Issawi, «Asymmetrical Development and Transport in Egypt, 1800-1914,» in: William Roe Polk and Richard L. Chambers, eds., *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century,* Puplications of the Center for Middle Eastern Studies; no.1 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968).

٢ ـ لقد ظلت مصر طوال ما يقرب من ٦ آلاف عام على الأقل تحت سيطرة حكومة مركزية، ويرجع ذلك جزئياً إلى تركيبتها وتجانسها وتقاليدها البيروقراطية ونظامها الخاص بالري والنقل النهري. وقد انهارت هذه السيطرة في القرن الثامن عشر، ولكنها سرعان ما عادت على يد محمد علي، ولا تزال تتزايد في أيامنا الحالية. وهنا أيضاً، لا يمكن للمرء أن يبالغ في التركيز على الفارق بين مصر وكل من سوريا والعراق وبلدان المغرب. فمصر دولة سهلة الحكم، وهذا بالطبع شرط لا غنى عنه للتحديث.

٣ ـ تمتعت مصر بفائض زراعي ضخم. ففي عام ١٨٤٤، وقبل أن يسجل محصول القمح أي زيادة تُذكر، كان يقدّر هذا المحصول بحوالى ألف كغم للهكتار. وكان هذا المقدار متساوياً تقريباً مع ما تنتجه فرنسا وألمانيا وأكبر من المقدار الذي كانت تنتجه أوروبا الشمالية والشرقية والوسطى[٩]. وربما مثّل ذلك ضِعف إنتاج بعض بلدان الوطن العربي الأخرى. ولا بد أن نصيب العامل الزراعي من الإنتاج كان مرتفعاً أيضاً، بسبب قلة عدد السكان ووفرة الأرض الزراعية. وكانت الأراضي المصرية المزروعة حوالى ٣ ملايين من الأفدنة بينما بلغ عدد العمال الزراعيين من الذكور حوالى مليون، وهذا يعني أن كل عامل كان له حوالى ٣ أفدنة من الأرض الزراعية تحت تصرّفه. ومع إدخال زراعة القطن التي أدت إلى استخدام الري الدائم والزراعة مرتين في العام، فقد زاد إنتاج الفدان وإنتاج الفرد عدة مرات. وقد تعمّق باتريك أوبرين في دراسة هذه المسألة، ويمكننا أن نلخص استنتاجاته كما يلي: زاد الناتج الزراعي للفدان بين عام ١٨٢١ ونهاية القرن حوالى $\frac{1}{2}$ ١٢ مرة، بينما زاد الناتج بالنسبة إلى الفرد من سكان الريف أكثر من $\frac{1}{2}$ ٦ مرة[١٠]، ويمثّل هذا فائضاً ضخماً كان يمكن أن يوفر رأس المال اللازم لتحقيق تنمية سريعة إذا كان قدّر له أن يستغل.

٤ ـ تتميز مصر بسمة تكاد تنفرد بها بين كل دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا، رغم أنها تعدّ سمة عامة في المناطق الأكثر رطوبة: فهي تتمتع بممرات مائية داخلية ممتازة، إذ يخترق النيل بفروعه وقنوات الري التابعة له كل أنحاء الأراضي المأهولة، بل أكثر من ذلك، فإن الرياح السائدة هي رياح شمالية وهذا يعني أن السفن

(٩) Helen Anne B. Rivlin, *The Agricultural Policy of Muhammad Ali in Egypt*, Harvard Middle Eastern Studies; 4 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1961), p.262, and Jerome Blum, *The End of the Old Order in Europe* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978), pp. 144-145.

(١٠) P. O'Brien, «The Long-Term Growth of Agricultural Production in Egypt, 1821-1962,» in: P.M.Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* (London: [n.pb.], 1968), pp. 162-195.

يمكنها أن تبحر ضد التيار وتطفو في اتجاه التيار. ومن ثم كان من الممكن دائماً أن تنتقل المنتجات الزراعية إلى المدن (الاسكندرية والقاهرة وغيرها) بكلفة رخيصة، وأن يتم تصدير الفائض. وإضافة إلى ذلك، كانت مصر سريعة التحديث لنظام النقل فيها، فكان ميناء الاسكندرية ـ الذي ارتبط بنهر النيل عن طريق ترعة المحمودية عام ١٨١٩ ـ أفضل موانىء الشرق الأوسط وشمال افريقيا وأحد أهم ميناءين أو ثلاثة موانىء على البحر المتوسط كله في ذلك الوقت، وسرعان ما تم إقامة موانىء أخرى في السويس وبور سعيد. وقد عرفت مصر خطوط السكك الحديد قبل السويد أو وسط بولندا، بل وقبل اليابان بزمن طويل. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كانت شبكة السكك الحديد المصرية ـ سواء قيست بالنسبة إلى المساحة المأهولة أو بالنسبة إلى عدد السكان ـ واحدة من أكثر شبكات العالم ازدحاماً.

٥ ـ تمكنت الحكومة المصرية من تحقيق نسبة كبيرة من الفائض الزراعي بفضل دواوينها وتقاليدها المالية الراسخة، وبفضل القيام بالعديد من أعمال المسح الزراعي الذي كان يتكرر على مدار القرون، وفي القرن الثامن عشر ارتفعت الضرائب على كل من الدخول التجارية والزراعية، ثم ازداد ارتفاعها حدة في عهد محمد علي. لقد كانت أساليب محمد علي بحق قريبة إلى حد كبير من تلك التي اتبعتها الحكومة السوفياتية في الثلاثينيات من القرن العشرين؛ فقد تضمنت الشراء الإجباري لناتج المزارع بأسعار منخفضة ثم إعادة بيعه إلى المستهلك الحضري أو المُصدّرين الأجانب بأسعار أكثر ارتفاعاً، وتحصل الحكومة على فارق السعر. وقد استخدم محمد علي ـ مثله مثل السوفيات ـ الأموال التي تم الحصول عليها في التسلح، كما استثمر كمية ضخمة منها ـ مثلما فعل السوفيات أيضاً ـ في النقل والصناعة والتعليم وغيرها من الأنشطة الاقتصادية الأخرى.

وأخيراً، فإن مصر في عام ١٨٠٠ كانت، وبالمقاييس المعاصرة، دولة شديدة الحضرية. فقد سكن القاهرة ما يزيد على ٢٠٠ ألف نسمة، وهو رقم ضخم بالنسبة إلى ذلك الوقت، بينما سكن بعض المدن الأخرى التي كانت تستوعب ٥ آلاف، أو ما يزيد عدداً، يصل في إجماله إلى ١٥٠ ألفاً. وبمعنى آخر، فقد عاش حوالى ١٠ بالمئة من سكان مصر في المدن[١١]، وقد تماثلت هذه النسبة على الأقل مع تلك التي كانت في فرنسا عام ١٨٠٠، وأكثر من تلك التي كانت في غيرها من دول أوروبا، باستثناء

---

(١١) للاطلاع على دراسة أحدث وأكثر تعمقاً، انظر:

Justin McCarthy, «Nineteenth Century Egyptian Population,» in: Elie Kedourie, ed., *The Middle Eastern Economy: Studies in Economics and Economic History* (London: F. Cass., 1977), pp. 1-39.

بـريطانيـا العظمى وهـولندا[١٢]. ويتفق كـل دارسي التحديث عـلى أن وجـود قـاعـدة حضرية ضخمة هو أحد أهم الشروط المسبقة التي لا غنى عنها واللازمة لعملية التحديث.

ثانياً: مميزات اليابان

عند هذه النقطة، قد يندفع المرء لطرح سؤال طالما يطرحه طلبـة الاقتصاد عـلى أساتذتهم: «إذا كنت على هذا القدر من الذكاء، فما هو السبب في أنك لست غنيـاً؟» لمـاذا لم تصبح مصر غنيـة؟ إن أفضل طـريقة لـلإجابـة عن هـذا السؤال هي معـرفـة الأسباب التي جعلت اليابان بلداً غنياً. فلليابان خمس مميـزات كبرى تفتقـر إليها مصر إلى جانب مزية واحدة صغيرة ـ تتمثل في موارد طبيعية متوافرة ومتنوعة عـلى نحو أكـبر نسبياً. ويمكن تناول هذه النقطة الأخيرة باختصـار، فإذا استخـدمنا العبـارات المطلقـة يمكننـا القول إن اليـابان دولـة فقيرة في مـواردها، وقـد كانت نسبـة البشر إلى الأرض مرتفعة بكثير عنها في مصر، غير أنها قد تمتعت باحتياطيات صغيرة من الفحم والحـديد والنحاس التي اعتمدت عليها بشدة لعقود طويلة. كـما تمتلك اليابـان قوة مـائية وفـيرة قـامت باستغـلالها في مـرحلة مبكرة، فقـامت بتوفـير الكهربـاء، ليس فقط للمصانـع والسكك الحـديـد، وإنمـا أيضاً للحِـرف اليدويـة التي قامت في القـرى. وكان بعض الأنهار قـابلاً للمـلاحة (رغم الحـاجة الـدائمـة إلى إجـراء تحسينـات عليهـا) وقـدمت شواطئها الطويلة فرصاً كبيرة للملاحة الساحلية التي كان اليابانيون دائماً متفوقين فيها. وقـد مكّن ذلـك اليـابـان من الاقتصـاد في استخـدام السكـك الحـديـد التي تـتطلب استثمارات رأسمالية ضخمة. ولم تزد المسافات التي غطتها السكك الـحديـد في اليابـان على تلك التي كانت في مصر إلا في أواخر القرن التاسع عشر. أما بالنسبة إلى العوامل الكبرى التي تميزت بها اليابان، فكانت الموقع الذي كان لـه الفضل في الحـدّ من خطر التدخل الخارجي، والتماسك الاجتماعي الـذي لا مثيل لـه في العالم، والمـوارد البشرية الأكثر تقدماً، والتوجـه المبكر نحـو النمو الاقتصـادي، إضافـة إلى قدر أعـلى من حب الاستطلاع، وزعامة حكيمة على نحو غـير عادي يبـدو أنها كانت ذات بـراعة خـارقة للعـادة في اتخاذ الإجـراءات الاقتصاديـة السليمة. وسننـاقش كلاً من هـذه القضـايـا بالتفصيل في ما يلي.

ففي الوقت الذي تقـع فيه مصر في قلب العـالم القديم عـلى الأقل ـ وهـو الأمر الذي كان ذا تأثير كبير ـ تقع اليابان في طـرف العالم. ويعني ذلـك أن الامبراطـوريات

(١٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: Charles Philip Issawi, «Economic Change and Urbanization in the Middle East,» in: Ira Marvin Lapidus, ed., *Middle Eastern Cities: A Symposium on Ancient Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanization* (Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1969), pp. 102-119, reprinted in: Charles Philip Issawi, *The Arab World's Legacy* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1981).

العدوانية في القرن التاسع عشر ـ بريطانيا وفرنسا وروسيا ـ ما كانت لتصل إلى اليابان إلا في نهاية خط طويل للغاية من شبكات الطرق التي كان تأثير تلك الامبراطوريات يضعف خلالها على نحو كبير. والسؤال هو: إذا كان لليابان أن تقع ـ مثل مصر ـ في نقطة الاتصال بين ثلاث قارات، هل كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها وتشكيل مصيرها؟ والإجابة، ربما. فقد نجحت تركيا رغم كل شيء (رغم أنه نجاح ضئيل) في الاحتفاظ باستقلالها السياسي وإن لم تحتفظ بالطبع بحرية الحركة الاقتصادية. وكان للثلاثين مليوناً من اليابانيين الباسلين أن يحدّوا من طمع المستعمر. ولكن حتى رغم الوضع الذي وُجدت فيه اليابان، كان على اليابانيين أن يقبلوا المعاهدات «غير المتكافئة» مع الغرب، ويعني ذلك أنه حتى نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر، لم يكن من الممكن أن ترتفع الرسوم الجمركية اليابانية عن نسبة ٥ بالمئة، بل ان الاستقلال الكامل لم يتحقق إلا عام ١٩١١؛ بل أكثر من ذلك، فحتى أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر كان للأجانب الحق في أن يُحاكموا أمام محاكمهم القنصلية وليس أمام المحاكم اليابانية. ولكن، ولكونهم يابانيين، فقد استطاعوا تحقيق تحوّل اجتماعي واقتصادي رائع على الرغم من المعوقات القائمة. أما مصر، على الجانب الآخر، فقد كان عليها أن تنتظر حتى عام ١٩٣٠، موعد انتهاء سريان المعاهدات التجارية التي حرمتها من الاستقلال في فرض التعريفات الجمركية، وأن تنتظر حتى عام ١٩٣٧ من أجل إلغاء الامتيازات التي قيدت بحدة حرية الحركة المالية والإدارية والقضائية. لقد شهدت مصر أربعين عاماً[١٣] من الاحتلال البريطاني، وهي فترة شهدت بعض التحسينات الحقيقية، ولكنها في الميزان النهائي شغلت انحرافاً سلبياً للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وينبغي أن نشير أيضاً إلى مزية أخرى لموقع اليابان. فقد نعمت اليابان بثلاثة قرون من السلام، وكان إنفاقها على التسلّح منخفضاً حتى بدأت تمارس الامبريالية على طريقتها في التسعينيات من القرن التاسع عشر. وعلى العكس من ذلك، أنفقت مصر في عهد كل من محمد علي وإسماعيل مبالغ ضخمة على الدفاع تاركة القليل فقط للتنمية، كما كان الانفاق العثماني على التسلح والحروب ضخماً[١٤].

---

(١٣) تم احتلال مصر عام ١٨٨٢، وتم جلاء القوات البريطانية عنها عام ١٩٥٤، وبالتالي فقد استمر الاحتلال الانكليزي اثنين وسبعين عاماً، وليس أربعين، كما ورد في النص. وربما كان المؤلف يقصد الفترة الممتدة منذ فرض الحماية رسمياً عام ١٩١٤، غير أنه كان يجب أن يستخدم لفظ الإلحاق وليس الاحتلال (المُراجع).

(١٤) انظر الأرقام في:

Charles Philip Issawi, *The Economic History of Turkey, 1800-1914*, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.13 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1980), pp. 3-4 and 324.

قد يشعر بعض القراء أن العامل الخارجي يكفي لتفسير الأداء الياباني المتفوق. وقد ادعى جلال أمين في كتابه الممتع الذي صدر حديثاً **المشرق العربي والغرب** ان الضغط الخارجي يفسر بالكامل فشل مبادرات التنمية العربية التي قام بها محمد علي في عشرينيات القرن التاسع عشر، واستمرت حتى الأربعينيات من القرن نفسه، والمبادرات التي قام بها جمال عبد الناصر في الخمسينيات والستينيات من القرن الحالي. أنا لا أوافق على هذا، ففي كل المجالات تقريباً، ما عدا المجال التقاني، كانت اليابان قد شهدت تحديثاً ضخماً قبل أن تنفتح على العالم على يد الولايات المتحدة وأوروبا في خمسينيات القرن التاسع عشر وستينياته، وهذا يفسر ـ فوق كل شيء ـ أداءها الفريد في نوعه. فكما قال برتراند راسل في عبارة شديدة الحذق: «كانت اليابان دولة متخلفة اقتصادياً، ولكن ليست متخلفة ثقافياً»(١٥).

وقبل كل شيء، لقد أبدت اليابان درجة عالية من التماسك لا مثيل لها في العالم. فالتجانس القومي واللغوي والديني في اليابان أكبر على الأرجح مما هو في أي دولة أخرى في العالم. وقد قاومت حكومة توكوجاوا التهديد الوحيد لهذا التجانس ـ وهو الانتشار السريع للمسيحية في القرن السادس عشر ـ بقسوة وسرعة شديدتين. ونتيجة للإجراءات التي اتُخذت، تراجعت اليابان لتدخل في عزلة صارمة لفترة وصلت إلى ٢٥٠ عاماً تقريباً، وهي عزلة ما كان لها أن تنقضي سوى عن طريق السفن الحربية الأجنبية. إلا أن اليابان قد امتلكت، ولا تزال تمتلك، ما هو أكثر من التجانس؛ فقد تمتعت بالتماسك الاجتماعي على نحو لا مثيل له، وتمتعت بالتمسك الاجتماعي وهو ما أسماه ذلك المفكر العملاق ابن خلدون العصبية. وقد رأى ابن خلدون ما يصرّ الكثيرون من علماء الاجتماع الانكلوسكسونيين على ألا يَرَوْهُ حتى اليوم، وهو أن العصبية هي أساس عظمة أي مجتمع ورخائه، ومن المؤكد أن اليابان كانت لتلفت انتباهه كنموذج مثالي لذلك، كما لفتت اليابان نظر علّامة آخر هو ثورشتاين ڤابلن الذي كتب في عام ١٩١٥ مقالاً نافذ البصيرة عن فرصة اليابان(١٦)، وفيه تنبأ بأن اليابان سوف تناضل من أجل أن تصبح قوة عالمية، وقد أوشكت تلك النبوءة بعد جيل واحد أن تصبح حقيقة. والتاريخ الياباني غني بأمثلة التضحية بالنفس والتفاني في أداء الواجب، وهما الأمران اللذان يفترضهما هذا التماسك بدءاً بالمحاربين من طبقة الساموراي والكاميكازي إلى عمال التويوتا والسوني. ويفسّر التماسك أيضاً الاحساس بالالتزام الذي تشعر به الشركات إزاء العاملين فيها، وهو الذي ينتج عنه ما يسمّى

---

(١٥) Herbert Passin, *Society and Education in Japan*, Columbia University Comparative Education Series (New York: Columbia University, Teachers' College, 1965), p.6

(١٦) Thorstein Bunde Veblen, *Essays in Our Changing Order* (New York: Viking Press, 1943).

نظام التشغيل مدى الحياة، كما أنه يحقق الاجماع المطلوب على كل المستويات قبل اتخاذ القرار. ولكن يبقى شيء واحد جدير بالذكر في هذا الموضوع، فلم يتسم يابانيو القرن التاسع عشر فحسب بالطاعة والتماسك، وإنما اتسمت الأوليغاركية أيضاً، التي قامت بثورة المئيجي في السبعينيات والثمانينيات من القرن نفسه بالتجانس الشديد، بل إنها كانت ذات أصول جغرافية واجتماعية مشتركة وخلفيات وأعمار متشابهة، بل وقيم واحدة(١٧).

دعونا الآن نعود إلى موارد اليابان البشرية، فمن الممكن دراسة هذه القضية من خلال ٤ قضايا رئيسية: **التعليم، الصحة، تنظيم النسل، وتعليم المرأة وتشغيلها.** لقد خطت اليابان في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر خطوات واسعة تجاه تعليم شعبها عن طريق تأسيس آلاف المدارس في كل أنحائها. ومع بداية الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كان ما يقرب من ٤٠ بالمئة من الذكور و ١٠ بالمئة من الإناث، قد حصلوا على قدر ما من التعليم، وكانت الأرقام أكثر ارتفاعاً في المدن، فوصلت إلى ٧٥ ـ ٨٥ بالمئة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النبلاء ـ وعلى عكس بلدان أخرى كثيرة ـ لم يكونوا فقط غير معارضين لانتشار التعليم بين العامة وإنما كانوا مشجعين أيضاً. وكانت النتيجة أن اتسعت صناعة النشر، فتم نشر حوالى ثلاثة آلاف كتاب سنوياً في الثمانينيات من القرن الثامن عشر، بل أنه لم يكن من غير العادي أن يُطبع من الكتاب الواحد ما يزيد على العشرة آلاف نسخة، وكانت الكتب تباع بأثمان زهيدة، ونشطت المكتبات المجانية ومكتبات الإعارة التجارية(١٨). وتأتي مقارنة هذه الأرقام بتلك الخاصة بغرب أوروبا لصالح اليابان. ومع الإحياء الذي بدأ في عصر المئيجي وبداية التحديث السريع، اندفع التعليم إلى الإمام. ومع مطلع عام ١٩٠٧، كان ما يزيد على ٩٧ بالمئة من عدد الأطفال في سن التلمذة يذهبون إلى المدارس الابتدائية، وتم استئصال الأميّة.

ولسنا في حاجة إلى الإشارة إلى التناقض بين هذا التطور وذلك الخاص بالبلدان العربية. ففي عام ١٩٠٧ كان ٩٣ بالمئة من المصريين أميين. وكان الموقف أسوأ في البلدان العربية الأخرى في ما عدا سوريا ولبنان. وحتى أيامنا هذه، لم تصل البلدان العربية إلى مستوى التعليم الابتدائي الذي شهدته اليابان منذ ٨٠ عاماً. فلم يصحب

---

(١٧) Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia,* p. 149.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٠٦ ـ ١٠٩، و

Passin, *Society and Education in Japan,* pp 11-61, and Nan [Ivan] Morris, *The Life of an Amorous Woman* (London: [n.pb.], 1964), pp. 26-27.

التطور السريع في الموارد الطبيعية ـ الذي شهده الوطن العربي ـ تطوراً موازياً في الموارد البشرية. فقد استوردت مصر طبقتها الوسطى بأعداد كبيرة: في شكل أوروبيين ويونانيين، وسوريين، ولبنانيين، ويهود، وأرمن. وكانت ثنائية المجتمع هذه في شمال أفريقيا أكثر حدة حيث لم يشكّل الإيطاليون والفرنسيون قوام الطبقة الوسطى فحسب، وإنما شكلّوا أيضاً الطبقة العاملة الماهرة. وتشهد بلدان الخليج النفطية عملية مماثلة هذه الأيام. ولم تشهد سوى سوريا ولبنان تطوراً في الموارد البشرية يوازي النمو الاقتصادي الذي كان بطيئاً على أية حال.

وقد اعتمد التعليم في اليابان على مدارس الدولة، غير أنه تجدر الإشارة إلى أن الجامعات الخاصة مثلت نصف عدد الجامعات، كما يجب الإشارة أيضاً إلى التركيز الشديد على الموضوعات التقنية والعملية[١٩] وفي المقابل، ركز التعليم عند العرب على القانون والدراسات الإنسانية وذلك باستثناء فترة حكم محمد علي[٢٠].

ويمكن تناول قضية الصحة باختصار شديد. ففي القرن التاسع عشر، بدت الأوضاع الصحية في اليابان بوضوح أفضل منها في الشرق الأوسط أو المناطق النامية الأخرى. وكان معدل الوفيات حوالى ٢٥ في الألف بالمقارنة بما يزيد على ٤٠ في الألف في الشرق الأوسط وشمال افريقيا، وهو الأمر الذي ينطوي على درجة أقل من الفقد، على المستويين البشري والاقتصادي. ومع مطلع العشرينيّات من القرن العشرين، انخفض معدل الوفيات في اليابان إلى أقل من ٢٠ في الألف، وهو رقم لم يصل إليه الوطن العربي قبل الخمسينيات. وفي أوائل الخمسينيات انخفض المعدل الياباني إلى أقل من ١٠، وهو رقم يماثل مُعدلات الوفيات في الدول المتقدمة.

غير أن الأكثر إثارة هو معدل المواليد، فقد نجحت اليابان مدة تقرب من ١٥٠ عاماً في الاحتفاظ بعدد سكانها عند حد ٣٠ مليوناً، وذلك، من ناحية، بسبب عوامل التوازن المالثوسية الممثلة في الحروب والطاعون والمجاعات، ولكن كان أيضاً بسبب الضبط المتعمد عن طريق الاجهاض والقضاء على الأطفال[٢١]. ويبدو أن معدلات المواليد قد ارتفعت على نحو طفيف، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإن كانت حتى في أعلى مستوياتها أقل من المعدلات الخاصة بالوطن العربي، إلى حوالى ٣٥ ـ ٤٠ في الألف بالمقارنة و ٤٥ ـ ٥٠ في الألف، ثم انخفضت ببطء إلى حوالى ٣٠ في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين. وقد انحدرت معدلات المواليد في اليابان

---

(١٩) Black [et al.], Ibid., pp. 219-220 and 239.

(٢٠) بالنسبة إلى تصنيف البعثات التعليمية المصرية، انظر:

Issawi, *Egypt at Mid-Century: An Economic Survey*, p.51.

(٢١) لم تكن تلك سياسة لضبط النسل اتبعتها الحكومة، ولكنها عادة درج عليها الفلاحون الفقراء لعجزهم عن إعالة أبنائهم، وقد بطلت هذه العادة بحظر قانوني في عهد الميجي (المراجع).

بعد الحرب العالمية الثانية بشدة على نحو لا مثيل له في أي من البلدان الأخرى المسجلة بياناتها، وسرعان ما استقرت عند المستوى الأوروبي الذي كان في ذلك الوقت يقدَّر بـ ١٥ في الألف، بينما ظلت المعدلات العربية تتراوح بين ٤٠ ـ ٥٠ في الألف، الأمر الذي نتج عنه انفجار سكاني.

أما في ما يتعلق بمكانة المرأة، فلا يمكن للمرء أن يدعي أن المرأة اليابانية، كانت، أو هي الآن، في جملة النساء الأكثر تحرراً. وعلى الرغم من ذلك، فإن من الحقائق الراهنة أن اليابانيين قد بدأوا في مرحلة مبكرة في تحسين الاستفادة من قوة عمل المرأة أو أن يستغلوا نساءهم، كما يفضّل البعض أن يقول «ومع تسعينيات القرن التاسع عشر، فاق عدد النساء العاملات في المصانع عدد الرجال العاملين بها، كما تم تشغيلهن ـ بأعداد كبيرة ـ كموظفات بالمكاتب، وعاملات تليفون ومدرّسات وموظفات استقبال، وبدأت معدلات انتظام الفتيات في المدارس الابتدائية يماثل معدلات انتظام الفتيان». وجاء التقدم في مستوى المدارس المتوسطة والعليا بعد ذلك بعقد أو عقدين[٢٢].

ولم يكن التطور الاجتماعي فحسب هو الذي تمتع بجذور عميقة في التاريخ الياباني، إذ يصدق الأمر نفسه على التطور الاقتصادي. وينبغي هنا أن نميز بين بعدين مختلفين هما اهتمام اليابان المبكر بالعلوم والتقانة الغربية واستيعابها السريع لها، والتطور التلقائي والذاتي تماماً للاقتصاد الياباني في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومنذ فترة مبكرة ترجع إلى القرن السادس عشر كان زوار اليابان من الأوروبيين يرون ما لمسوه من شغف ياباني شديد بالحضارة الأوروبية[٢٣] ولما تم طرد الأجانب من اليابان، كان اليابانيون يجدون في المستوطنة الهولندية المنعزلة في جزيرة دشيما نافذتهم على العالم الخارجي. وقد بدأ بعض اليابانيين في أواخر القرن السابع عشر يتعلمون الهولندية ـ وبدأوا في القرن الثامن عشر يدرسون العلوم والتقانة والطباعة الغربية، على نحو منهجي. وسرعان ما أصبح عدد غير صغير من اليابانيين على ألفة بنظريات نيوتن وكوبرنيكس، إضافة إلى علم التشريح، بما في ذلك نظرية الدورة الدموية. وفي الوقت نفسه، بدأ بعض الفنانين يرسمون وفقاً لقواعد المنظور. ومع إطلالة عام ١٨١١، حث أحد الباحثين اليابانيين أبناء وطنه على أن يدرسوا كل أنواع المعرفة قائلاً: «فعلى الرغم من كونهم غرباء، فبإمكانهم مساعدة اليابان إذا ما وضعهم اليابانيون موضع الدراسة وانتقوا أفضل محاسنهم، ومن ثم فمن المناسب أن تتحدث عن المعرفة الصينية، وعن المعرفة الهولندية والهندية مثلها مثل المعرفة اليابانية»[٢٤].

---

(٢٢) Passin, *Society and Education in Japan,* p.97.

(٢٣) Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia,* p.34.

(٢٤) Donald Keene, *The Japanese Discovery of Europe,' 1720-1830* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1969), pp. 159 and passim.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، طبّقت كل المعارف الغربية دون تمييز في البداية. فتُرجمت الكتب المدرسية الغربية واستُخدمت في مدارس اليابان، وهو الأمر الذي لم يؤدِّ دائماً إلى نتائج جيدة، وتم جلب أعداد كبيرة من المدرسين والمستشارين الأجانب، كما تم تدريس الكثير من المواد الجامعية بلغات أجنبية. غير أنه قد حدث تراجع في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فتم توفير كتب مدرسية جديدة وحل المدرسون اليابانيون محل الأجانب، وأصبحت اليابانية لغة التدريس[٢٥]. في ذلك الوقت، اتسم اليابانيون الذين سافروا إلى الخارج آنذاك بقوة الملاحظة مثلهم مثل أحفادهم الحاليين. لم يكن لديهم كاميرات من طراز نيكون ولكنهم كانوا يحملون معهم كراسات للرسم يرسمون فيها كل شيء يرونه تقريباً. وبالمقابل، لا يعرف كاتب هذه السطور حتى ولو حالة واحدة لشخص من الشرق الأوسط كان يرسم ما يراه في أوروبا أو أمريكا القرن التاسع عشر.

ولم يكن النمو الاقتصادي الياباني يعتمد كلياً على قوة الدفع التي كان يقدمها الاتصال بالأجانب، فقد استطاع اليابانيون تحقيق نجاحات عظيمة في بعض المجالات الهامة قبل أن يصبح ذلك العامل ذا قيمة. خذ، مثلاً، الحِرف اليدوية؛ فكما يعلم كل من تردد على متحف، كانت الحِرف اليدوية اليابانية راقية جداً، وكانت واسعة الانتشار ليس فقط في المدن وإنما في القرى أيضاً. ونظراً لعزلة اليابان، فقد تعرضت تلك الحِرف للمنافسة المدمرة من جانب الصناعات الميكانيكية الأوروبية في مرحلة متأخرة كثيراً عن الشرق الأوسط والهند وأمريكا اللاتينية. وأدى النمط الخاص للتنمية اليابانية إلى بقاء هذه الحِرف فترة أطول. . . وسرعان ما التقط اليابانيون أنماط الانتاج الأوروبية مع الاحتفاظ بعاداتهم التقليدية في الاستهلاك حتى وقت قريب جداً، بينما تعلمت شعوب الشرق الأوسط الاستهلاك على الطريقة الغربية، ولم تبدأ في اتّباع أساليب الإنتاج الغربية إلا حديثاً. ونتيجة لذلك، فقدت الكثير من الحِرف اليدوية العربية أسواقها المحلية ـ بعكس حالة نظيراتها اليابانية. غير أن هناك نقطة أخرى: لقد استغلت اليابان الحِرف اليدوية والصناعات القروية فيها في عملية التصنيع بدرجة ليس لها مثيل. إن جزءاً كبيراً من العمل كان يتم عن طريق التعاقد من الباطن مع المصانع الصغيرة في القرى والمدن أو حتى في بيوت الفلاحين. وينطبق ذلك بوجه خاص على مجال المنسوجات الحريرية والقطنية، التي ظلت فترة طويلة تمثّل الجزء الأكبر من العمالة والناتج الصناعي، بل ينطبق ذلك على غيرها من المجالات بما في ذلك الآلات والمعدات[٢٦]. ولسنا في حاجة إلى أن نشير إلى حجم النفع الذي يحققه ذلك النوع من

---

(٢٥) Passin, *Society and Education in Japan*, pp. 69-95.

(٢٦) William Wirt Lockwood, *The Economic Development of Japan* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1954), pp. 480-490.

التصنيع على مستوى التشغيل وتوفير رأس المال وصيانة المهارات؛ ولسوء الحظ كانت مثيلات هذا النوع قليلة في الوطن العربي.

وتبقى الزراعة التقليدية اليابانية أحد العوامل الأكثر إيجابية بالنسبة إلى التنمية. فنظراً لمساحة اليابان الشديدة الصغر وحجم سكانها الضخم، فقد بذلت جهوداً مضنية طوال قرون عديدة من أجل رفع إنتاجية الفدّان عن طريق استخدام أفضل الوسائل وانتقاء الحبوب، وتجربة الكثير من أنواع الأسمدة العضوية، وإدخال زراعة المحاصيل النقدية... الخ. وقد تم طبع ٣ آلاف نسخة من أحد الكتب التي تحدثت عن إنتاج الحرير الخام، بينما نُشر الكثير من الكتب في عدد من الطبعات. وان انتشار معرفة القراءة والكتابة في الريف الياباني، التي لولاها لما ازدهرت أدبيات الزراعة، يعتبر بحق قصة ممتعة لم تُعرف كل تفاصيلها بعد[٢٧]. ونتيجة لذلك، كانت المحاصيل اليابانية من بين أعلى المحاصيل في العالم، بل إنها ارتفعت باطراد وكانت بالفعل أعلى بكثير من تلك الموجودة في معظم البلدان النامية اليوم. وحين بدأت اليابان تنميتها الحديثة، بعد القليل من المجهودات التي ضلّت الطريق لإدخال الميكنة الزراعية والممارسات الزراعية الغربية، توصلت إلى أنه من الممكن زيادة الإنتاج بدرجة كبيرة ومطردة عن طريق الاستمرار في السير على الطريق التقليدي مع اعتماد نتائج الأبحاث الزراعية المعاصرة[٢٨].

وكانت اليابان في عصر توكوجاوا دولة شديدة الحضرية؛ فمع مطلع عام ١٧٢٠، كان في طوكيو حوالى مليون نسمة (بكين ولندن هما المدينتان الوحيدتان بهذا الحجم نفسه في القرن الثامن عشر). وكان عدد سكان أوساكا وكيوتو حوالى ٤٠٠ ألف لكل منهما، إضافة إلى أن ١٢ بالمئة من إجمالي عدد السكان كانوا يسكنون المدن التي وصل عدد سكانها إلى ما يزيد على ١٠ آلاف، وهو رقم يزيد على كل دول أوروبا باستثناء ثلاثة بلدان أو أربعة فقط[٢٩]. وأكثر من ذلك، أُجبر الأشراف على الإقامة في العاصمة مما زاد من القوة الشرائية للحضر. وتبعاً لذلك، كان ينبغي أن تنتقل نسبة كبيرة من الإنتاج الزراعي والحِرفي الخاص في القرى إلى المدن في مقابل الإيجار والضرائب. وقد شجع ذلك بشدة على إضفاء الصفة التجارية على الاقتصاد، وأعطى طبقة التجار ورجال المال دفعة. وقد استخدم نظام القيد الثنائي في مسك

---

(٢٧) Thomas C. Smith, «Okura Nagatsune and the Technologists,» in: Albert M. Graig and Donald H. Shively, eds., *Personality in Japanese History* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1970).

(٢٨) Thomas Carlyle Smith, *The Agrarian Origins of Modern Japan,* Atheneum Paper-back; 94 (New York: Atheneum, ©1959), and James I. Nakamura, *Agricultural Production and the Economic Development of Japan, 1873-1922,* Studies of the East Asian Institute Columbia University (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1966).

(٢٩) Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia,* pp. 82-85.

الدفاتر الذي بلغ في بعض الحالات أعلى المستويات. ونشأ أول محل تجاري متكامل في العالم على يد أسرة ميتسيوي في طوكيو عام ١٦٨٣. وقد أخبرني الراحل إيفان موريس أن الأساليب الإعلانية تضمنت توزيع المظلات مجاناً. أما في مجال الشؤون المالية، فقد كانت هناك مؤسسات وأدوات ائتمانية على درجة لا مثيل لها من التقدم، بما في ذلك الأوراق المالية والشيكات، بل حتى «ضمانات المعاملات المؤجلة في الأرز»، وذلك في أوساكا في عام ١٧٣٠[٣٠].

دعونا مرة أخرى نستعرض قضية التوجهات. فقد اشترك الساموراي في أخلاقيات عسكرية ثبتت فعالياتها الشديدة على أرض المعارك، غير أن أخلاقيات مختلفة سادت بين الجزء الأكبر من السكان اليابانيين، ألا وهي أخلاقيات العمل والربح. وتُعبّر أسماء بعض كتب الأطفال التي استخدمت في المدارس عن ذلك ببلاغة. ففي المدن: **الكتاب التجاري** (١٦٩٣)، **كتاب تاجر الجملة** (١٧٧٢)، **كتاب الملاحة والشحن** (١٨٢٣)، **تجارة جيدة لتاجر الثياب** (١٨٢٥)؛ أما في القرى فكانت الكتب: **الكتاب الزراعي** (١٧٦٢)، **كتاب المزارع** (١٧٦٦)، **الأرباح المتزايدة للمزارعين** (١٨١١)، **المحاصيل الوفيرة** (١٨٣٦)[٣١]. ولا عجب بعد كل ذلك أن تحقق اليابان ـ مثلها مثل أجزاء من أوروبا، وعلى عكس الشرق الأوسط وشمال افريقيا ـ نمواً اقتصادياً شاملاً قدّر بأقل قليلاً من ١ بالمئة سنوياً بين أوائل عام ١٧٠٠ وعام ١٨٦٠ رغم ثبات عدد السكان[٣٢].

ثالثاً: استراتيجية اقتصادية سليمة

ونأتي الآن إلى الموضوع الأخير، ألا هو اتّباع اليابان استراتيجية اقتصادية سليمة على نحو لم يسبق له مثيل، وذلك حينما قررت بالفعل أن تقوم بالتحديث في سبعينيات القرن التاسع عشر. وينبغي هنا أن نميز بين ثلاثة أبعاد مترابطة ارتباطاً وثيقاً: **الاستخدام المقتصد لرأس المال والتوالد المحلي لأرصدة الاستثمار، والاستغلال الأفضل لمزيج العناصر والتسلسل الصحيح للعمليات والمراحل. أولاً**: وقبل كل

---

(٣٠) M. Miyamoto [et al.], «Economic Development in Pre-Historical Japan,» *Journal of Economic History* (December 1965); E. S. Crawcour: «Changes in Japanese Commerce in the Tokugawa Period,» in: John Whitney Hall and Marius B. Jansen, eds., *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1968), pp. 198-202, and «The Tokugawa Heritage,» in: William Wirt Lockwood, ed., *The State and Economic Enterprise in Japan: Essays in the Political Economy of Growth,* Studies in the Modernization of Japan (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1965), pp. 17-44.

(٣١) Passin, *Society and Education in Japan,* p. 32.

(٣٢) Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia,* p.60.

شيء، ومع نهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، كان معدل الاستثمار في اليابان أعلى من ١١ بالمئة من الناتج القومي الاجمالي، وارتفعت النسبة باطراد إلى ما يزيد على ٢٠ بالمئة في عام ١٩٢٠ وإلى ٤٠ بالمئة عام ١٩٦٠[٣٣]. إن هذه الأرقام هي بحق مذهلة ولا نظير لها في أي مكان آخر في العالم، باستثناء الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين. وبالمقابل، كان المعدل في مصر في عام ١٩١٣ أقل من ١٠ بالمئة بكثير، وكان في الخمسينيّات والستينيات من القرن الحالي أقل من ١٥ بالمئة. ولم تزد الأرقام بالنسبة إلى دول الشرق الأوسط على هذا الحد، باستثناء دول النفط خلال الخمسينيات من القرن العشرين أو ما بعدها[٣٤]. غير أن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد، فمع السبعينيات من القرن التاسع عشر تراكم لدى مصر ٥٠٠ مليون دولار من الديون الخارجية، وهو الرقم الذي تضاعف مع مطلع عام ١٩١٣. أما اليابان، فقد بدأت الاقتراض في مراحل لاحقة، ولكن مع إقبال عام ١٩١٣، كان لديها، هي الأخرى، دين خارجي يقدَّر بألف مليون دولار. ولكن، أولاً، كان عدد سكانها يعادل أربعة أضعاف عدد سكان مصر، وكان اقتصادها أكثر تطوراً؛ وثانياً، في الوقت الذي كان يتم فيه تبديد معظم أموال الاقتراض العام في مصر، ويساء استثمار جزء ضخم من الاقتراض الخاص، كان الاقتراض في اليابان يستخدم كله تقريباً من أجل أهداف عالية الانتاجية، وكانت حالة تركيا وإيران تشابه حالة مصر. وفي العقود القليلة الأخيرة، جاءت نسبة كبيرة من أموال الاستثمار في دول الشرق الأوسط غير المنتجة للنفط من المساعدات الأجنبية[٣٥].

أما في ما يتعلق بمزج عناصر الانتاج، فقد كانت اليابان دائماً تفتقر إلى الأراضي، وذلك حتى السنوات القليلة الأخيرة، كما كانت هناك ندرة في رؤوس الأموال، وكانت مزيتها الوحيدة العمالة الماهرة الرخيصة، فاستغلت ذلك أفضل استغلال. ففي مجال الزراعة، وبعد التجارب السريعة وغير الناجحة ـ التي سبق ذكرها ـ والتي استخدمت فيها الميكنة والتقنيات الأوروبية والأمريكية، عادت اليابان إلى أساليبها التي تعتمد على العمالة الكثيفة، مستخدمة في ذلك أعداداً ضخمة من العمال في الفدّان الواحد، ولكن مع الاستغلال الأمثل لأحدث اكتشافات البحوث الزراعية الغربية والمحلية. وكانت النتيجة الوصول إلى أعلى إنتاجية للفدان في العالم كله، بل أعلى من إنتاجية مصر. أما في مصر، فقد ظلت إنتاجية الفرد منخفضة بينما

---

(٣٣) K. Ohkawa and H. Rosovsky, «A Century of Japanese Economic Growth,» in: Lockwood, ed., *The State and Economic Enterprise in Japan: Essays in the Political Economy of Growth*, p.90.

(٣٤) انظر: Charles Philip Issawi, *The Economic History of the Middle East and North Africa* (London: Methuen; New York: Columbia University Press, 1982), chap.9.

(٣٥) المصدر نفسه.

ارتفـع إجمالي الإنتـاج الزراعي بسرعـة، وقد تحـوّل الملايـين من العمال بسبب ازديـاد السكان إلى العمل في قطاعات أخرى. وقد استطاعت الزراعة طوال عقود عديـدة أن تقوم بالدور المطلوب منهـا، وهو أن تـطعم السكان الـذين يزداد عـددهم، وأن توفـر الصادرات اللازمة للحصول على العملة الأجنبية اللازمة للتصنيع.

وقد تطورت الصنـاعة أيضـاً على نحـو متميز. **أولاً**، وكـما أشرنا في مـا سبق، أحسن اليابانيـون استغلال المهـارات الحِرفيـة الموجـودة في القرى والمـدن الصغيرة عن طريق نظام واسع النطاق من عقـود الباطن. **ثـانياً**، سـادت الورش الصغـيرة المجهزة بالمحركات الكهربائية وغيرها، التي تستخدم أساليب تعتمد على كثافة العمـل، وتتميز بانتاجيتها المنخفضة نسبياً بالنسبة إلى الفرد. وفي عام ١٩٣٤ كانت الورش التي يعمل فيها أقل من خمسة عمال تـولّد ٤٢ بـالمئة من النـاتج المصنعي، وولّـدت المصانـع التي يعمل فيها ٥ ـ ٩ عمال نحو ٥٧ بالمئة من الإجمالي[٣٦]. **ثالثاً**، ظل التركيز، فترة طويلة، على الصناعات التي تتطلب رأسمالاً صغيراً. ولكنها تقوم بتشغيـل الكثير من العـمال، وهي بالأساس المنسوجات. ولتفسـير ذلك، مـع نهاية القـرن، بلغت تكاليفِ مصنـع الصلب الـذي بُني وفقـاً لأحـدث المـواصفـات ٢٨ ـ ٣٠ مليـون دولار، بينـما بلغت كلفة بناء مصنع حديث لنسج القطن حوالى ٢٥٠ ألف دولار. أما مصانع حل الحرير أو مغـازل القطن، فقـد كلّفت أقل من ذلـك بكثير[٣٧]. ومن هنـا جـاء الـتركيـز عـلى المنسوجات القطنية والحريرية التي سرعان ما تم تصديرها بكميات كبيرة. ومـع حلول عام ١٩١٣، كان نصف كميـة القطنيـات تنتجها اليـابان يبـاع في الخارج عـلى شكل خيـوط أو أقمشة[٣٨]. وقـد كانت الصنـاعات اليـابانيـة حتى العقدين الأخـيريـن ذات رأسمال أقل، وتعتمد على طاقة أقل، وإنتاجية عمل أقل عنها في الصناعات الأوروبية، نـاهيك عـن الأمـريكية، ولكن هـذا بالتحـديد هـو ما كـان يتطلبـه المزج الصحيـح لعناصر الانتاج[٣٩].

وإذا نظرنا إلى التتابع التـاريخي، نجد أن اليـابان قـد اعتمدت في البـداية عـلى التجـارة الخارجيـة، فصدّرت الحـرير وغـيره من المواد الخـام لكي تحصل عـلى العملة الصعبـة التي كانت في حـاجة شـديدة إليهـا. وحتى بدايـة هذا القـرن، لم يكن هناك تشجيع من جانب اليابان للمشروعات الأجنبية، ولم يكن مسمـوحاً لـلأجانب بتملك الأراضي أو المناجم، ولكن تم تشغيل الخبراء الأجانب بـأعداد كبـيرة، في حين سـافر

---

(٣٦) Lockwood, *Economic Development of Japan*, pp. 2-178 and 202

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٣٩) لمزيد من التفاصيل حول الأرقام الخاصة بعام ١٩٣٤، انظر: المصدر نفسه، ص ١٧٨ ـ ١٨١.

اليابانيون للدراسة في الخارج. والأهم من ذلك، في الواقع، هو أن التجارة الخارجية أصبحت على حد تعبير لوكوود «طريق التعلم»(٤٠). واستورد اليابانيون المنسوجات وقلدوها ثم سرعان ما صدّروها بكميات كبيرة، ثم استوردوا الآلات وقلدوها. وقد أدرك اليابانيون أهمية الشحن البحري فبنوا أسطولاً بحمولة إجمالية قدرها ١,٥٠٠,٠٠٠ طن في عام ١٩١٣ ـ وهو رقم لم تلبث أن حققته أخيراً قلة من بلدان الشرق الأوسط ـ وبدأت في بناء السفن التجارية. ومع بداية القرن شرع اليابانيون في تشجيع الشركات الأجنبية التي تستخدم التقانة المتقدمة مثل شركة جنرال إلكتريك وارمسترونغ فيكرز وسيمنز وفوزد وغيرها للمجيء إلى اليابان. وتعلّموا منها ولكنهم عملوا على التأكد من أن الأجانب لن يسيطروا على قطاع كبير من الاقتصاد. ومع مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، كان اليابانيون قد بنوا قاعدة ضخمة للصناعة الثقيلة تم استخدامها بفاعلية أثناء الحرب العالمية الثانية(٤١). وبعد عام ١٩٤٥، استأنف اليابانيون عمليتهم التعليمية مركّزين هذه المرة على منتجات التقانة المتقدمة، كما تخلوا عن الإنفاق على التسلح في الوقت الذي كان فيه العرب قد أصبحوا مولعين به وبدأوا يخصصون مبالغ ضخمة للدفاع. ولا يسع المرء إلا أن يقارن هذه المثابرة والكد بكل الفرص الضائعة في الشرق الأوسط في السنوات المئة والخمسين الأخيرة.

وأخيراً، تبقى كلمة عن دور الحكومة في التنمية الاقتصادية في مجالات معينة. وتُعتبر إجراءات مكافحة التضخم المعروفة باسم ماتسوكاتا في عام ١٨٨١ أفضل مثال على ذلك، إذ إنها أنهت التضخم والفوضى النقدية التي أعقبت انفتاح اليابان وأقامت الأسس المالية لانطلاقة اليابان(٤٢). وقد كان للحكومة حوالى ٣٠ بالمئة من مجموع الاستثمارات في الفترة من عام ١٨٨٧ ـ عام ١٩٣٦(٤٣). وإلى جانب بناء السكك الحديد وتوفير غيرها من مشروعات البنية الأساسية، ودعم فروع مهمة من النشاط، كانت الحكومة رائدة في الكثير من الصناعات، فأقامت المصانع النموذجية التي تحولت في ما بعد إلى مشروعات خاصة(٤٤). ولم يكن كل هذا غير عادي، فقد حدث الشيء نفسه في فترات مختلفة في كل من أوروبا والبلدان النامية. غير أن ما هو فريد هنا هو العلاقة بين الدولة والنشاط الاقتصادي. ففي حين يُنظر إلى ذلك في الولايات المتحدة

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٤.

(٤١) «ومن ثم دخلت اليابان الحرب بصناعة طائرات تقوم في خمسين بالمئة منها على أدوات صنعت في الخارج وعلى فنيين تلقوا تدريبهم في مصانع وكليات هندسية أمريكية». انظر: المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(٤٢) Ohkawa and Rosovsky, «A Century of Japanese Economic Growth,» pp. 65-66.

(٤٣) David Landes, «Japan and Europe: Contrasts in Industrialization,» in: Lockwood, ed., *The State and Economic Enterprise in Japan: Essays in the Political Economy of Growth,* p.100.

(٤٤) المصدر نفسه، و Lockwood, *Economic Development of Japan,* p. 326.

بصورة معادية، الأمر الذي أسفر عن الحالة الراهنة للبلاد من جمود وفقدان الاتجاه، على حين تندفع الدولة، في معظم البلدان النامية ـ بما في ذلك بلدان الشرق الأوسط ـ إلى الاستيلاء على القطاع الخاص، ففي اليابان هناك ذلك التكافل المذهل الذي عبّر عنه منافسو اليابان ـ الذين يشعرون بخيبة الأمل والغيرة ـ بمصطلح شركة اليابان، ويعود بنا هذا إلى نقطة البداية وهي «العصبية» اليابانية.

هل يمكن للمرء أن يحدد أسباباً أكثر عمومية لنجاح اليابان؟ أنا شخصياً أميل إلى إعطاء مزيد من الأهمية لحقيقة أن اليابان ربما كانت البلد الوحيد خارج أوروبا الذي شهد إقطاعاً حقيقياً، وأن الإقطاع ـ كما كان ماركس يرى بوضوح ـ هو الإعداد الجيد جداً للرأسمالية. والبلد الوحيد الذي يقترب من هذا النموذج في الشرق الأوسط هو لبنان، وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن يندفع لبنان إلى الرأسمالية مثلما يندفع البط إلى الماء.

وقد قدّم روي متحده ملاحظة أخرى مثيرة حول التعارض بين حب الاستطلاع الذي أبداه الأوروبيون واليابانيون تجاه الثقافات الأجنبية (الإسلام ثم الشرق الأقصى بالنسبة إلى الأوروبيين والصين ثم العرب بالنسبة إلى اليابانيين)، والافتقار إلى ذلك الفضول لدى العرب والأتراك والصينيين إزاء الثقافة الأوروبية وغيرها من الثقافات. ويفسر روي ذلك بأن هذا الفضول كان نتيجة مزيج من الإحساس بالتفوق الأخلاقي والتدني الفكري، في حين أن المسلمين والصينيين على عكس ذلك، لم يشعروا فقط بتفوق أدبي وإنما شعروا أيضاً بتفوق فكري دون مبرر. على أية حال، فقد فات العرب قطار الرأسمالية في القرن التاسع عشر، وهو الذي لحق به اليابانيون بنجاح شديد. ولكن هناك الكثير من القطارات الأخرى، واليوم يمتلك العرب فرصاً لم يكن اليابانيون ولا غيرهم ليتصوروها أبداً. ما نتمناه هو أن يحسنوا استغلال هذه الفرص وأن يجدوا طريقهم إلى التنمية. وهم إذ يفعلون ذلك، فإننا ننصحهم بأن يتأملوا في التجربة اليابانية وأن يتعظوا من بعض دروسها.

الفصل العاشر

الشرق الأوسط في السياق العالمي

نظرة تاريخية

يمكنني عرض النقطة التي أبدأ منها ببساطة شديدة. فطبقاً للمعايير الاقتصادية والاجتماعية التي تطبّقها دراسات التحديث (والتي يقبلها الماركسيون أيضاً بعد تعديلات طفيفة)، فإن إداء الشرق الأوسط لم يكن حسناً طوال القرنين الماضيين ـ وعلى الأقل حتى بداية الطفرة النفطية الأخيرة ـ بالمقارنة بمناطق أخرى عديدة: أوروبا الغربية، وروسيا، والبلقان، وأمريكا اللاتينية، واليابان، والصين. ويتناقض هذا، بالطبع، مع التاريخ المبكر والرائع للشرق الأوسط. وتتمثل المعايير الاقتصادية المستخدمة في ما يلي: نصيب الفرد من الناتج القومي الاجمالي، ومعدل نمو هذا الناتج، ومستوى التقانة وتقدمها ونصيب الصناعة من الناتج القومي الاجمالي، ومعدل زيادته، وتوزيع الدخل بين الطبقات الاجتماعية المختلفة إضافة إلى عنصر آخر أقل قابلية للقياس رغم أهميته القصوى، وهو إقامة المؤسسات الاقتصادية المناسبة. أما بالنسبة إلى المعايير الاجتماعية، فإنه يمكن الإشارة إلى المستويات المرتفعة لمعدلات المواليد، ومعدلات الوفيات المرتفعة بدرجة أقل نسبياً، وهو الأمر الذي نتج عنه ارتفاع سريع في معدل النمو السكاني، وانخفاض متوسط الأعمار، وانخفاض مستوى التعليم، سواء قيس بمعرفة الجماهير القراءة والكتابة أو بنسبة الأطفال الذين يتلقون تعليماً ثانوياً أو عالياً، والأوضاع المتدنية للمرأة كما توضحها المعدلات المنخفضة لمشاركتها في قوة العمل، وانخفاض مستوى انتظام الفتيات في المدارس بالمقارنة بالصبية، والقيود المفروضة على بعض الحقوق القانونية الأساسية مثل الطلاق. ومن الغريب حقاً أن يحتل الشرق الأوسط ـ عندما نحاول قياس التقدم الاجتماعي من خلال مؤشر كأسلوب الحياة المادي ـ موقعاً أدنى على الساحة الدولية من ذلك الذي يحتله إذا ما طبّقنا مؤشر متوسط دخل الفرد[1].

(١) Roger Hansen and Valeriane Kallab, eds., *U.S. Foreign Policy and the Third World* (New York: Praeger, ©1982), pp. 155-159.

وسوف تكون مهمتي من خلال هذه الدراسة استطلاع ما إذا كان من الممكن أن يكشف ذلك تاريخ الشرق الأوسط الطويل على أي نحو من الأنحاء عن العوامل التي تفسر ذلك الإداء غير المرضي نسبياً. وسوف أدرس هذه العوامل في علاقتها بمواطن الضعف الطبيعية والاجتماعية الأساسية في الشرق الأوسط، وبالنظر إلى طبيعة التأثير الأوروبي وأثره في المنطقة (وقد كان ينبغي عليّ أن أعرض هنا لبعض الصدمات الخارجية مثل الغزو المغولي والطاعون (الموت الأسود)، وتحويل طريق التجارة من رأس الرجاء الصالح، ولكنني لن أفعل بسبب ضيق المساحة).

لقد وُلدت أقدم حضارات العالم في منطقة الشرق الأوسط ـ في العراق ومصر وسوريا ـ وهو الأمر الذي يؤكد أنه لا بد أن تلك المنطقة كانت تتمتع بظروف طبيعية ومناخية أفضل، وذلك إذا ما أخذنا في اعتبارنا كلاً من التقانة والتكوين الاجتماعي للعصور القديمة. وقد ظل الشرق الأوسط ـ الإسلامي والبيزنطي ـ أحد مركزين أساسيين للاقتصاد العالمي وذلك حتى في أوائل العصور الوسطى، وكان المركز الثاني هو الصين تحت حكم أسرتي تانغ وسونغ. ويؤكد ذلك استخدام كل المعايير المقبولة للتحضر، معرفة القراءة والكتابة، إنتاج الكتب، حالة الحِرف، مستوى الزراعة، زيادة استخدام النقود في المعاملات الاقتصادية. في كل هذه المجالات كان الشرق الأوسط قد سبق بكثير كل أجزاء العالم الأخرى باستثناء الصين وكلنا يعرف الكثير عن تلك المرحلة الساطعة من التاريخ، لذا فإنني لن أتوسع في هذه النقطة أكثر من ذلك.

أولاً: مواطن الضعف

ولكن قد لا يكون ما هو مفيد في المرحلة (أ) أو المرحلة (ب) مفيداً في المرحلة (ج). فمع تطور التقانة ونمو السكان واكتشاف أراضي وموارد جديدة واستغلالها وظهور وحدات اجتماعية أكبر، بدأت المميزات النسبية للمناطق الأخرى تظهر كأنها أكبر حجماً، وكانت المزية الكبرى وفرة الممرات المائية الصالحة للملاحة، بالمقارنة بالشرق الأوسط الذي لا يملك إلا نهر النيل ثم نهري دجلة والفرات الأقّل نفعاً. وليس من قبيل المبالغة أن نؤكد على الدور الذي مثلته الأنهار ـ خاصة إذا تم ربطها بالقنوات ـ في عملية التنمية في الصين والهند وروسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية. صحيح أن قوافل الإبل والبغال قد سمحت بتدفق الكثير من السلع عن طريق البر، وهو الأمر الذي نتج عنه أن حملت حيوانات النقل في سبعينيات القرن التاسع عشر حوالى ٢٥ ألف طن من البضائع سنوياً عبر طريق تبريز ـ طرابزون، وهو ما يعادل سبعة أضعاف حمولة السفينة في المرة الواحدة أو ثمانية. غير أن البضائع التي

كانت تنقل عن طريق القوافل كانت أقل حجماً وأكثر كلفة من تلك التي تنقل عن طريق الممرات المائية.

وهناك عامل آخر يتصل بذلك وهو الافتقار إلى الطاقة المائية في المنطقة، فيرجّح أن طواحين المياه قد اختُرعت في إقليم البحر المتوسط[٢] في بداية العصر الميلادي تقريباً، ولكنها استُخدمت في الشرق الأوسط ـ ولأسباب واضحة ـ بدرجة أقل كثيراً عمّا استخدمت به في أوروبا. ويمكن توضيح الدور الذي قامت به طواحين المياه في التنمية الاقتصادية في أوروبا من خلال ثلاثة أمثلة: **أولاً**، عام ١٠٨٦ سجل كتاب وليام الفاتح (Doomsday) أنه في إنكلترا كان في كل قرية من القرى التي بلغ عددها ٣ آلاف (وبلغ إجمالي عدد سكانها حوالى ١,١٠٠,٠٠٠) والتي كانت في معظمها شديدة الصغر طاحونتان تقريباً[٣]. ولا يعني هذا وحسب وجود درجة أعلى من تركيز الطاقة عن تلك التي يمكن أن يقوم بها الإنسان أو الحيوان (٢ ـ ٥ أحصنة بالمقارنة بـ ١ حصان للإنسان و٦٦ حصاناً للثور وحصانان للجمل) ولكنه يعني أيضاً أن الميكنة دخلت كل قرية وأصبحت طريقة تشغيلها معروفة لدى سكان تلك القرى. **ثانياً**، خلال القرون الثلاثة التالية، استُخدمت طواحين المياه في استخدامات متعددة على نحو غير مسبوق، فاستُخدمت في صناعة المنسوجات والصناعات المعدنية والخشبية وغيرها، وأدّت إلى ظهور الكثير من الاختراعات، وشجعت استعارة العديد من الأدوات مثل الحدبة والكرنك. **وأخيراً**، كانت طواحين المياه تمد الصناعة الفرنسية بـ ٦٠ بالمئة من إجمالي الطاقة (مقاسة بالحصان) التي كانت تستخدمها حتى فترة متأخرة، مثلاً عام ١٨٦٠، وكانت تمد الصناعة في الولايات المتحدة بنسبة أقل قليلاً من ذلك، كما كان معدلها مرتفعاً في بريطانيا وسويسرا وغيرهما. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن طواحين الهواء التي اختُرعت في إيران في القرن السادس قد مثّلت دوراً محدوداً للغاية في الشرق الأوسط مقارنة بالدور الهام الذي مثلته في أوروبا التي قامت بتطويرها كثيراً وتحويلها إلى أقوى أداة ميكانيكية شهدها العالم حتى ذلك الحين، إذ وصلت قوتها إلى ما يزيد على ٨ أحصنة.

وهناك موطن ضعف آخر يتعلق بالشرق الأوسط هو ندرة الغابات باستثناء تركيا وشمال إيران. وقد شكّل ذلك عائقاً كبيراً فترة طويلة من القرن التاسع عشر؛ فلم يكن الخشب أهمّ مصادر الطاقة فحسب، وإنما كان المادة الصناعية الأساسية أيضاً. ولم يكن الخشب يُستخدم في بناء المساكن والسفن والجسور فحسب، وإنما كان

---

(٢) K.D. White, *Greek and Roman Technology* (London. Thames and Hudson, 1984), pp. 55-56.

(٣) Lynn Townsend White, *Medieval Technology and Social Change* (Oxford: Clarendon Press, 1962), p.155.

يستخدم أيضاً في صنع الآلات التي تستعمل في الصناعة والتعدين. بل إن الشوارع، كانت ترصف بالخشب في الولايات المتحدة الأمريكية.

إضافة إلى ذلك، فالشرق الأوسط فقير، في الواقع، في المعادن باستثناء النفط الذي لم يتبوأ تلك المكانة إلا في القرن الحالي. وقد وجدت احتياطيات من الحديد والنحاس والرصاص والفضة والذهب في الكثير من البلدان، ولكنها كانت دائماً احتياطيات صغيرة. كما يندر الفحم أيضاً في تلك المنطقة، وهي الحقيقة التي قد ندرك أهميتها إذا أخذنا في الاعتبار أن الصين كانت تستخدم الفحم وقوداً منذ القرن الرابع، وربما قبل ذلك، وقد سلك الفحم طريقه إلى أوروبا في القرن الثالث عشر(٤).

وأخيراً، وربما الأهم من كل ما سبق، يتسم الأساس الزراعي للشرق الأوسط بالهشاشة. فالجزء الأكبر من المنطقة يحظى بقدر غير كافٍ وغير منتظم من الأمطار، مع تذبذب سنوي حادّ في الإنتاج. إضافة إلى التهديد المستمر الذي شكله خطر الجفاف والقيود الحادة على التوسع في الزراعة. وينطبق ذلك على إيران والعراق وسوريا ومعظم الأناضول. ويوفر الري علاجاً لذلك وإن كان علاجاً محدوداً، يحتاج دائماً إلى تجهيزات دقيقة مثل القنوات في العراق وإيران التي قد يسهل تدميرها، والتي كانت دائماً تتعرض للتدمير الذي كان ينجم عنه انهيار اقتصادي حاد، ويستثنى من ذلك مصر بنيلها غير القابل للتدمير الذي يتصف بالانتظام الشديد، وكذلك الأراضي الساحلية في تركيا.

ثانياً: العوامل الاجتماعية

يمكن دراسة العوامل الاجتماعية تحت ثلاثة عناوين رئيسية: **طبيعة الحكم، ودور الحكومة القمعي، والتكوين الاجتماعي للحكومة.**

كان من المألوف، لما يقرب من ألف عام، أن يكون الحكام في الشرق الأوسط من أصول أجنبية، عادة ما تكون تركية وربما يكون هؤلاء الترك قدّموا إلى هذه المنطقة حكومات أفضل من تلك التي قدّمتها شعوبها. وصحيح قطعاً أن هذه الظاهرة ليست قاصرة على منطقة الشرق الأوسط، إذ يمكن أن يشار إلى الأتراك والمغول في الهند والمانشو في الصين والإسبان في أمريكا اللاتينية وغيرهم. حتى إنكلترا نفسها، كان

---

(٤) Edwin O. Reischauer and John K. Fairbank, *East Asia: The Great Tradition* (Boston: Houghton, 1960), p.178, and Moissey Postan and E.E. Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1952), pp.125, 160 and 434.

فيهـا نورمنـديون وبـلانتجينتيون يتحـدثون الفـرنسية وقـد كـان لمـا قـرأنـاه عن الملك الانكليزي العظيم إدوارد الأول من أنه ـ «يكاد يكون من المؤكد أنه يفهم الانكليزية ويتكلمها أحياناً لأن لغته الأصلية هي الفرنسية»[٥] ـ وقع الصدمـة. غير أنـه في الوقت الـذي سيطرت فيه بعض الأسر الأجنبية الحاكمة على ثقافة رعاياها، فإن أولئك الذين حكموا الشرق الأوسط لم يمكثوا هناك فترة طويلة تسمح بذلك. ويرتبط ذلـك بعامـل آخر يـرجع في النهـاية إلى جفـاف المنطقـة وهو تمكّن الـرعاة، الـذين عاشـوا في جماعـات كبيرة عـلى أطرافها، (وبفضل تماسكهم وحركيتهم) من اكتساح أراضي شاسعة. ولسنا في حاجـة إلّا لذكر القليـل حول هـذا الموضـوع بعد أن قـام ابن خلدون بتقديم وصف وتحليـل رائعـين لها. ومن جـوانب عدة، قـد ندرج العـرب اليـدويـين ضمن حكـام المنـطقـة الأغراب، وما يكاد هؤلاء يكتسبون سمات الحضارة (أو الفساد) على يد البيروقـراطيين أو المؤسسات الأخرى حتى تبدأ جحافل رعاة جدد في الوصول.

أمـا في ما يخص عـلاقة الحكـومة بـالمجتمع، فيمكن مـلاحـظة وجـود تنـاقض ظاهري. ففي أواخر العصر القديم، وبينما انهارت الامبراطورية الرومانية، بقيت كل من الامبراطورية البيزنطية والسـاسانيـة في قيد الحيـاة، وسرعان مـا نجح غـزاتهم من العرب في إقامة حكومة مركزية. وعلى الرغم من أنه ما لبثت الامبراطورية العربيـة أن تفتتت لتتحول إلى مجموعة من الأجزاء، فقد ظلت تلك الأجزاء الصغيرة محتفظة بقـوة كافية. ومن ثم، على حين خلت السـاحة في أوروبـا الغربيـة لنمو العـديد من مـراكز القـوة والنشاط: الكنيسـة، والدول ـ المـدن، والجـامعـات، والإمـارات الاقـطاعيـة، ونقابات التجار والصناع وغيرها من الجمعيات لم تشجع قوة الدولة المستمرة في الشرق الأوسط مثـل هذا التـطور، فلم يكن هناك دول ـ مـدن مستقلة أو جامعات مستقلة، وكـانت طوائف التجار والصناع (والمشكوك في وجودها قبل العصر العثماني) مقيدة من جانب الحكومة.

صحيح أن حكومـات الشرق الأوسط قد أحجمت عن التـدخل في الكثـير من مجالات المجتمع ـ خاصة القـانون ـ التي مثلت فيهـا الحكومـات الغربيـة، على سبيـل المثال، دوراً رائداً، إلا أن تـأثير الـدولة في المجـالات التي أشرنا إليهـا في ما سبق قـد حرمت المنطقة من مراكز النشاط المستقـل التي سبق ذكرهـا والتي ساهمت بـوضوح في التنمية الاقتصادية وفي الحريـة السياسيـة في الغرب، عـلى حد سـواء. فلم يكن لدى جماعات المنتجين ـ الزرّاع وأرباب الحِرف والتجـار وغيرهـم ـ استقـلالية كـافية تسمـح بتأسيس جمعيات وإقامة مؤسسات من شأنها أن توسّع من حجم مصـالحهم وتزيـد من قاعدتهم الاقتصادية. وكانت الملكيات دائماً غير آمنة، كما يتضح من حقيقة أن الكثـير

---

(٥) Louis Francis Salzman, *Edward I* (London: Constable, 1968), p.190.

من التجارة وغيرها من أوجه النشاط الاقتصادي كانت تتركز في أيدي الأجانب أو أبناء الأقليات الذين تمتعوا بحماية أجنبية، وهو الأمر الذي حماهم من تعسف المسؤولين[٦].

ويرتبط العامل الثالث بذلك ارتباطاً وثيقاً، وهو التكوين الاجتماعي للحكومة. لقد ظل جهاز الدولة، على الأقل منذ انهيار الامبراطورية الفاطمية، في أيدي العسكر والبيروقراطية مع بعض الاستعانة بالعلماء. وكانت اهتماماتهم الرئيسية تنصب على النواحي المالية والتموينية: أن يرفعوا الضرائب بالقدر الذي يُعنى بصرف مرتّباتهم وتغطية نفقاتهم الأخرى مثل الحروب، بصرف النظر عن أثر ذلك في الانتاج، وضمان وصول كميات كافية من المواد الغذائية إلى المدن، بصرف النظر - مرة أخرى - عن النتائج الاقتصادية الأبعد مدى أو آثار ذلك في المزارعين. وتنطبق الإدانة الدامغة لأوروبا بالكلمات التي كتبها ديفيد ماكفرسون عام ١٨٠٥، عن الشرق الأوسط بدرجة أكبر من أنه «لا يمكن وضع قواعد تجارية حكيمة من قبل رجال الدين والعسكريين، (وهي الطبقات الوحيدة التي دائماً ما امتلكت السلطة والنفوذ)، فهم يحتقرون التجارة وليس من المتوقع منهم بالتالي أن يُظهروا أي معرفة بها».

وكانت الآثار الاقتصادية بمثابة الكارثة، فلم يكن في الشرق الأوسط مثيل للأديرة التي مثلت ذلك الدور الهام في تشجيع الزراعة الأوروبية. وكان نظام حيازة الأرض يعني أنه قد انتهى عهد وجود ملاّك الأراضي التقدميين في الفترة ما بعد بدايات العصور الوسطى، كما لم يعد هناك أي دافع لدى الفلاّح لتحسين أساليب الزراعة. وقد احتفظ أصحاب الحِرف بالأساليب التقليدية، فتدهور على الأرجح المستوى التقني للصناعات الحِرفية، التي شهدت بعض علامات التحول إلى صناعات كبيرة بنفس الطريقة التي شهدتها الحِرف الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. إضافة إلى ذلك، أدّى عدم اكتراث حكومات الشرق الأوسط إلى إبرامها معاهدات (مع دول أوروبية) كان من شأنها السماح للبضائع بدخول البلاد بحرّية مع دفع الحد الأدنى من الرسوم التي عادة ما كانت تتراوح بين ٣ بالمئة و ٥ بالمئة، فبدأت بعض الصناعات تعاني تلك المنافسة، منذ فترة مبكرة تبدأ من القرن الرابع عشر[٧].

---

(٦) انظر:

Charles Philip Issawi, «The Transformation of the Economic Position of the Millets in the Nineteenth Century,» in: Benjamin Braude and Bernard Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society,* 2 vols. (New York: Holmes and Meier Publishers, 1982).

(٧) Eliyahu Ashtor, «L'Apogée du commerce vénitien,» in: Hans-Georg Beck, Manoussos Manoussacas and Agostino Pertusi, eds., *Venezia Centro di Mediazione tra Oriente e Occidente, Secoli xv-xvi* (Florence: L. Olshki, 1977).

ولما كانت هذه المعاهدات والاحتكارات موقعة من جانب المماليك والعثمانيين في أوج قوتهم، فلا بد للمرء من أن يستنتج أن هذه الحكومات لم تكن معنية بالآثار الاقتصادية أو أنها كانت تعتقد أن الضرر الواقع على المنتجين هو ثمن ضئيل يجب أن تدفعه في مقابل النفع الكبير الذي قد يتحقق من جرّاء ذلك العمل: ويتمثل ذلك النفع في جلب كمية أكبر من البضائع المستوردة تكفي لاستهلاك الطبقات الحاكمة أو تحقيق أهداف سياسية تتمثل في الأحلاف أو المساندة.

ومن المدهش حقاً أن نرى كيف كانت حكومات الشرق الأوسط عديمة الاكتراث بالأهداف الكبرى للسياسة التجارية التي سعت إليها أوروبا مثل تشجيع التصدير من أجل إيجاد أسواق للمنتجات المحلية، ومن أجل تراكم الذهب أو تقييد الاستيراد لحماية المنتجين المحليين. وليس ثمة أي أثر للمركنتيلية في سياسة العثمانيين أو الإيرانيين حتى بعد مرور فترة من القرن الثامن عشر حين اتخذ سليم الثالث بعض الإجراءات المحدودة.

وقد تحولت عمليات التجارة والشحن إلى أيدي الأقليات المسيحية واليهودية التجارية بسبب ازدراء الجماعات الحاكمة الأنشطة التجارية وترك معظمها في أيدي تلك الأقليات من ناحية، وبسبب نجاح تلك الأقليات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في الحصول على حماية أجنبية أو الاستفادة من نظام الامتيازات من ناحية أخرى. وقد أدى ذلك إلى تزايد احتقار الحكام تلك الأنشطة وما يشابهها وجعلتهم يحجمون عن حماية وتشجيع الأنشطة التي قد تؤدي إلى بزوغ أو تقوية جماعات يمكن أن تكون في المستقبل عدوّاً محتملاً مثل اليونانيين.

وينبغي أن نضيف أن الحكومات لم تفعل شيئاً لتشجيع النقل باستثناء ما قامت به من بناء بعض الجسور والفنادق في القليل من المدن وعلى بعض الطرق الرئيسية. ولم يتم رصف الطرق ولا حفر القنوات ولا تطوير الموانىء [٨]، وقد تدهور الكثير من الموانىء، في الواقع، بسبب الإهمال مثل ميناء الاسكندرية، أو بسبب الغرين (الطمى) مثل ميناء يافا والسويدية، أو بسبب الإعاقة المتعمدة مثل ميناءي صيدا وبيروت في القرن السابع عشر. ومع مطلع عام ١٨٠٠، كان الشرق الأوسط قد تراجع كثيراً من الناحية الاقتصادية، بالمقارنة بالمنافس الرئيسي أوروبا، بل وبالمقارنة بغيره من المناطق الأخرى، كما سوف يتضح في ما بعد.

---

(٨) يبدو أن العثمانيين قاموا بالمزيد في منطقة البلقان أكثر مما قاموا به في منطقة الشرق الأوسط. انظر:
Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300-1600,* Praeger History of Civilization (New York: Praeger Publishers, 1973), pp. 146-150.

وكانت الظروف الاجتماعية على الدرجة نفسها من السوء، فلم يحدث أي تطوير للتعليم منذ العصور الوسطى، بل كان هناك تدهور حادّ في أعلى مستوياته، كما يتضح حين نقارن مناهج الأزهر في عام ١٨٠٠ مع العلوم التي كانت تدرَّس في القرن الحادي عشر، كما كانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة أقل من ٥ بالمئة. ويشير أول تعداد في الشرق الأوسط أن في مصر عام ١٨٩٧، كانت نسبة المتعلمين من الذكور ٥, ١٠ بالمئة من إجمالي عدد السكان ونسبة الإناث ٣, ٠ بالمئة. وتتضمن هذه الأرقام الأطفال إضافة إلى الذين حظوا بدرجة أعلى من التعليم من الأجانب وأبناء الأقليات. وكانت الظروف الصحية سيئة في هذه المنطقة مثلها مثل كل مكان آخر في العالم، وقد اجتاحت المنطقة من فترة إلى أخرى أوبئة مدمرة مثل الكوليرا والطاعون[٩].

وربما يكون أشد خطورة من كل ذلك غرور أفراد الطبقة الحاكمة والمؤسسة الدينية وصلفهم، الأمر الذي جعلهم ينظرون بلا مبالاة، وربما باحتقار، إلى التغيرات الفكرية الهائلة التي كانت تحدث في أوروبا، ولم يتنبّه هؤلاء إلى أي من ذلك حتى اقتحمت الجيوش الأوروبية البلقان وقامت بغزو مصر[١٠]. ومن الجدير بالذكر أن بايزيد الثاني قد حرّم الطباعة بالعربية والتركية في عام ١٤٨٥، في حين أن الكتب في اسطنبول كانت تصدر بالعبرية واليونانية والعديد من اللغات الأوروبية. وقد افتُتحت أول مطبعة تركية في عام ١٧٢٩ وتم إغلاقها في عام ١٧٤٢، ثم أعيد افتتاحها في عام ١٧٨٤. وفي عام ١٦١٠، أنشئت مطبعة لتقوم بطباعة المزامير بالسريانية في دير قزحيا اللبناني، وفي عام ١٧٠٢، أنشئت مطبعة عربية في حلب، إلا أن بداية الطباعة العربية ربما تعود بالأحرى إلى عام ١٨٢٢ في القاهرة تحت حكم محمد علي[١١].

---

(٩) انظر قائمة جزئية عن الأوبئة في:

Charles Philip Issawi, *The Economic History of the Middle East and North Africa* (London. Methuen; New York: Columbia University Press, 1982), pp. 97-99.

(١٠) لمعرفة أمثلة عن الافتقار إلى الاهتمام، انظر:

Charles Philip Issawi, «Europe: The Middle East and the Shift in Power,» reprinted in: Charles Philip Issawi, *The Arab World's Legacy* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1981), pp. 118-119.

ولمزيد من التفاصيل، انظر:

Lewis Bernard, *The Muslim Discovery of Europe* (New York: W.W. Norton, c1982).

(١١) Lewis, Ibid., pp. 50 and 306; Philip K. Hitti, *History of Syria· Including Lebanon and Palestine*, 2nd ed. (London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1957), pp. 676 ff, and Johannes Pedersen, *The Arabic Book* (Princeton, N J.: Princeton University Press, 1984), pp. 131-141.

ثالثاً: مقارنة بالآخرين

١ ـ أوروبا

إن القول بأن أحوال الشرق الأوسط في أوائل العصر الحديث كانت سيئة قول لا يقدّم الكثير، فالتعريف المفضّل لدى «الاقتصادي» هو أنه ذلك الشخص الذي إذا سُئل «كيف زوجتك؟» قال «بالمقارنة بماذا؟» ومن ثم، فمن الضروري أن نقارن الشرق الأوسط بغيره من الأقاليم. وينبغي للمرء أن يبدأ بأوروبا الغربية لأنها كانت أولى المناطق التي شهدت تحديثاً، ولأنها كانت المنافس الأقرب للشرق الأوسط. وسوف أوجز في هذا الموضوع لأنني قمت باستعراضه في مكان آخر[١٢].

وينبغي لي هنا أن أبدأ بلفت النظر إلى كتاب إي. ل. جونز الممتاز الذي صدر حديثاً تحت عنوان «المعجزة الأوروبية»[١٣]. فقد ركّز جونز في شرحه تقدّم أوروبا على العاملين التاليين: **أولاً**: إيجابية البيئة الطبيعية، فأوروبا، أقل تعرّضاً للكوارث الجغرافية (مثل الزلازل والبراكين) وللكوارث المناخية (مثل الأعاصير والسيول وأخطار الجفاف) وللأوبئة وهجمات الجراد ولأمراض الإنسان والحيوان والنبات. **ثانياً**: منذ تاريخ مبكر للغاية، اتبع الأوروبيون نمط القرى المتفرقة والأسر النووية والزواج في سن متأخرة نسبياً، ومن ثم ذهب جزء ضئيل من الفائض الذي كانت تحققه إلى الإنفاق على التكاثر، وأنفق الجزء الأكبر على ضمان مستوى معيشة أفضل لعامة الشعب، وعلى زيادة التراكم الرأسمالي.

ويمكن التركيز على ثلاث مجموعات أخرى من العوامل: روح الابتكار، ووضع سياسة اقتصادية، واتباع ممارسة اقتصادية أفضل، وازدياد القوة التي تحققت بسبب اكتشاف العالم الجديد وإعماره. وقد فاقت أوروبا في بدايات العصور الوسطى كل الأقاليم الأخرى ـ باستثناء الصين ـ في القدرة على اختراع أدوات مفيدة أو استعارتها. وقد شرحت دراسة لين وايت الرائعة تلك التطورات. ففي مجال الزراعة، كان هناك المحراث الكثير العجلات وطقم الفرس وحدوته والاستخدام الشائع للمنجل وتطوير المسحاة. وكانت النتيجة تطوير نظام الحقول الثلاثة والارتفاع المطرّد في محاصيل الحبوب من مستويات أدنى بكثير من تلك الخاصة بالشرق الأوسط إلى مستويات تفوقها بكثير. وفي الوقت نفسه، اقتبست أوروبا المطلة على البحر المتوسط من الشرق الأوسط الكثير من المحاصيل الاستوائية التي وصلت إليه من آسيا وافريقيا

---

(١٢) Issawi, «European: The Middle East and the Shift in Power».

(١٣) Eric L. Jones, *The European Miracle: Environments, Economies and Geopolitics in the History of Europe and Asia* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1981).

وأصبح لها الصدارة في إنتاجها[١٤]. وقد أشرنا إلى استخدام طواحين المياه والهواء. وتطورت صناعة بناء السفن باطّراد حتى أصبح الأوروبيون مستعدين للقيام برحلاتهم الاستكشافية مع مطلع القرن الخامس عشر. كما أصبح التسلح أكثر دقة وفتكاً، وهو الأمر الذي أعطى أوروبا أفضلية قاطعة على منافساتها من الحضارات الأخرى. وأخيراً، شرعت أوروبا ـ بدءاً بصناعة ساعات الحائط والنظارات في القرن الرابع عشر ـ في الدخول إلى ما يمكن تسميته بالتقانة الراقية للعصور الوسطى. وقد استمرت تقود العالم في هذا المجال حتى يومنا الحاضر. في هذا السياق، ينبغي لي، بالطبع، أن أناقش تقدم العلوم الأوروبية، غير أن هذا الموضوع المتشعب قد يبعدنا كثيراً عن مجال بحثنا. كما ينبغي لي أن أشير أيضاً إلى أنه في أواخر العصور الوسطى، كانت نسب التعليم في أوروبا الغربية والجنوبية أعلى بكثير من أي منطقة أخرى في العالم، واتسعت ريادة أوروبا للعالم باطراد حتى القرن الحالي[١٥].

أما في ما يتعلق بالاقتصاد، فقد أبدت أوروبا اهتماماً مبكراً بالأرقام واستخدام الإحصاءات. وفي مجال الممارسات الاقتصادية، يمكن المرء أن يشير إلى التطورات السباقة مثل نظام القيد المزدوج في مسك الدفاتر ونظام التأمين. ويمكننا أيضاً أن نلحظ أن الهياكل الاقتصادية الأوروبية مثلها مثل الهياكل السياسية كانت أكبر حجماً وأكثر تعقيداً وديمومة من مثيلاتها الخاصة بالثقافات الأخرى. ويمكن أن نذكر ضمن الكثير من الأمثلة نقابات التجار والصناع في العصور الوسطى والبنوك والقوافل البحرية ومؤسسات أخرى مثل عصبة الهانزيين ـ والفرق بين هذه الأخيرة وبين مثيلتها الشرق أوسطية، التجار الكرميين، يعتبر فارقاً ذا مغزى، فربما كان حجم تجارة الكرميين أكبر، ولكن مكانتهم العامة كانت أضعف بوجه عام، كما اتضح أنهم كانوا أسرع تعرّضاً للزوال.

وأخيراً، هناك السياسة الاقتصادية. لقد ظلت حكومات أوروبا في العصور الوسطى، مثلها مثل حكومات الشرق الأوسط، حتى فترة متأخرة، تهتم بدرجة كبيرة بتوفير المؤن وتجنّب المجاعات. ولكن في أغلب المدن المستقلة ـ إذا استعرنا كلمات شيبولا: «كانت هناك جهود واعية من أجل التصنيع. وكان هناك اعتقاد سائد في بداية القرن الرابع عشر مؤداه أن الصناعة تجلب الرخاء. ويمكن أن نقرأ بعض العبارات في قانون توسكاني عام ١٣٣٦

---

(١٤) في هذا الموضوع انظر:

Andrew M. Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World,* Cambridge Studies in Islamic Civilization (New York; Cambridge, Eng : Cambridge University Press, 1983).

وينبغي أن نشير إلى أنه في انكلترا في القرن الثالث عشر، بدأ نشر الأبحاث المتعلقة بالزراعة. انظر:

George Trevelyan, *History of England* (London; New York: Longman, 1947), p. 153

(١٥) Carlo M. Cipolla, *Literacy and Development in the West,* A Pelican Book; A 1027 (Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, 1969), passim.

التي تبدو كأنها كُتبت من جانب أولئك المناصرين بشدة للتصنيع في القرن العشرين»[١٦]. وقد أخذت الملكيات كانكلترا وفرنسا متطلبات التصنيع والتجارة في الاعتبار، وطبّقت الاجراءات المناسبة لتدعيم الصناعة، وسعت إلى زيادة الصادرات ذات «القيمة المضافة» المرتفعة وتقييد استيراد السلع المنافسة، في الوقت الذي شجعت فيه استيراد ما يخدم كمدخلات من أجل إنتاج السلع التي تسد احتياجات محلية هامة أو السلع المعدة للتصدير. وهناك مظهر آخر من مظاهر هذه السياسة، هو تطبيق قوانين للملاحة تشجع الشحن البحري المحلي. وتم إصدار هذه القوانين مبكراً جداً، منذ القرن الثالث عشر. وتتناقض الإجراءات النشطة التي اتُخذت من أجل الحفاظ على استقرار العملات الأوروبية بعد التضخم الكبير الذي حدث في القرن السادس عشر على نحو مذهل مع السياسة التي اتّبعها العثمانيون والصفويون. وكانت الضرائب الأوروبية أكثر رشادة وأقل ظلماً إلى حد كبير. وربما يكون أكثر أهمية من ذلك كله أن الملكيات الخاصة كانت أكثر تمتعاً بالأمن في أوروبا منها في أي مكان آخر في العالم، والأرجح أن السبب الأساسي في ذلك هو أن المنتجين وأصحاب الأراضي والتجار وأصحاب الحرف وأرباب الصناعة كانوا ممثّلين على نحو كامل في الحكم ولهم تأثير على السياسات المتبعة بالمقارنة بالمناطق الأخرى. ويمكن أن يُعزى هذا بدوره إلى انهيار الامبراطورية الرومانية وما تبع ذلك من ظهور مراكز النشاط المستقلة التي سبق أن تحدثنا عنها.

٢ ـ اليابان

سوف أوجز أيضاً في الحديث عن اليابان لأني قمت بالحديث عنها ببعض الإسهاب في موضع آخر[١٧]. وربما يكون أسهل الطرق لتحديد الفرق بين اليابان والشرق الأوسط أن نقول إنه في أوائل القرن التاسع عشر، أي قبل فترة طويلة من الانفتاح، كانت اليابان قد وصلت إلى درجة عالية من التحديث في كل المجالات باستثناء التقانة، ويمكن أن ندرس ذلك من خلال ثلاثة عناوين رئيسية: **النواحي السياسية، والنواحي الاجتماعية، والنواحي الاقتصادية.**

ويمكن أن نشير، ضمن العوامل السياسية الايجابية، إلى التجانس الياباني الإثني واللغوي والديني الذي لا مثيل له، وهو العامل الذي جنّبها الكثير من المشكلات التي

---

(١٦) Carlo M. Cipolla, «The Italian and Iberian Peninsulas,» in: Postan and Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe*, vol. 3 (1941), p.413 and more generally pp. 408-419, vol.4 (1967), chap. 8, and vol. 5 (1977), chaps. 7 and 8.

(١٧) Charles Philip Issawi, «Why Japan?» in: Ibrahim Ibrahim, ed., *Arab Resources* (Washington, D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, 1983), pp. 283-300.

تواجه غيرها من المجتمعات. وقد كرس ذلك التجانُس، التماسكَ غير العادي الذي أبداه اليابانيون في السلم والحرب على حد سواء، واستعدادهم للتضحية بالمصالح الفردية في سبيل مصالح الجماعة الأكبر سواء كانت تلك الجماعة الدولة أو المصنع. وقد حققت اليابان الوحدة السياسية في مرحلة مبكرة للغاية (في القرن السابع أو الثامن)، ونجحت عموماً في المحافظة عليها. وقد مارست الحكومة المركزية درجة معقولة من السيطرة على البلاد تسمح بتحقيق السلام والاضطلاع بالقليل من الأعمال العامة الكبرى التي اعتُبرت ضرورية. كما كان التضامن القروي قوياً أيضاً مما سمح بترك الكثير من السلطات للهيئات المحلية دون أن يشكّل ذلك خطراً على الاستقرار. وبعد فشل غزو اليابان لكوريا وهزيمتها أمام الصين عند نهر يالو في عام ١٥٩٣ تقوقعت اليابان على نفسها وتمتعت بثلاثة قرون من السلام. وأفرزت اليابان طبقة حاكمة قامت في ما بعد بما قد يكون أعظم عمليات التحديث في التاريخ. بل أكثر من ذلك كانت الطبقة الحاكمة على استعداد لتتعلم من الآخرين.

«في عام ١٨٦٨، قاد الأمير ايواكورا تومومي بعثة مذهلة إلى الخارج، وترك الكثيرون من كبار زعماء الحكومة اليابانية مناصبهم مؤقتاً وقاموا بزيارات للولايات المتحدة وأوروبا في الفترة ما بين عام ١٨٧١ وعام ١٨٧٣ للاطلاع على التقانة الغربية وشؤون الحكم والأعمال والمجتمعات هناك، وكانوا يطّبقون المعرفة التي يكتسبونها على الاقتصاد الياباني»[١٨].

وقد يكون الأداء الاجتماعي أكثر إثارة للإعجاب. فقد نجحت اليابان على مدى حوالى ١٥٠ عاماً في الحفاظ على ثبات عدد سكانها عند ٣٠ مليوناً تقريباً، بسبب عوامل التوازن المالتوسية من ناحية، والسيطرة المتعمدة على الزيادة السكانية عن طريق الإجهاض وقتل الأطفال، من ناحية أخرى. فكانت معدلات المواليد أقل من معظم المناطق الأخرى بما في ذلك الشرق الأوسط، وكذلك كانت معدلات الوفيات. وبشكل عام، بدت الأحوال الصحية جيدة نسبياً، وكانت عملية التحضر مزدهرة على نحو غير عادي. ومع مطلع عام ١٧٢٠ كان في طوكيو حوالى مليون نسمة، ولم يكن يضاهيها في ذلك غير لندن وبكين. وسكن أوساكا وكيوتو حوالى ٤٠٠,٠٠٠ نسمة في الوقت الذي كان يسكن فيه حوالى ١٢ بالمئة من إجمالي عدد السكان في المدن التي بلغ عدد سكانها ١٠,٠٠٠ أو أكثر، وهو رقم يعدّ أعلى من أعداد كل البلدان الأوروبية باستثناء ثلاثة أو أربعة. كما انتشر التعليم، حتى أنه مع

(١٨) Edwin L. Harper, «Do We Need an Industrial Policy?» in: Michael Wachter and Susan Wachter, eds., *Removing Obstacles to Economic Growth* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1984), p.40.

مطلع الخمسينيات من القرن التاسع عشر كان حوالى ٤٠ بالمئة من عدد الـذكور و ١٠ بالمئة من عدد الإناث قد حصلوا على درجة معقولة من معرفة القراءة والكتابة. وكانت الأرقام أكبر في المدن حيث كان عدد الذكور الذين يعرفون القراءة والكتابة يتراوح بين ٧٥ بالمئة و ٨٥ بالمئة وكانت إحدى نتائج ذلك ازدهار صناعة النشر على نحو ضخم. ومن ثمانينيات القرن الثامن عشر كـان يتم نشر حوالى ثـلاثة آلاف كتـاب سنويـاً، ولم يكن من غير العادي أن يكون هناك أكـثر من ١٠ آلاف نسخة من الكتـاب الواحـد. وكانت الكتب زهيدة الثمن. ونشطت مكتبات البيع والاستعارة على حد سـواء. وإذا ما قارنّـا كل ذلـك بأحـوال البلدان الأوروبية الأكـثر تقدمـاً تكون المقـارنة في صـالح اليـابان(١٩). وأخيـراً، كان هنـاك شغف فكري حـادّ واستعـداد للتعلم من الثقـافـات الأخرى، من الصين أولاً، ثم من أوروبا ثانيـاً. ففي أواخر القـرن السابـع عشر بدأ بعض اليـابانيـين في تعلم الهولنـدية وفي القـرن الثامن عشر بـدأوا الانتظام في دراسـة العلوم والتقانة وفنون الرسم الأوروبية. وسرعان ما أصبح عـدد صغير من اليـابانيـين على ألفة بالنظريات الطبيعية التي أتى بها نيـوتن إضافـة إلى إلمامهم بعلم الفسيـولوجيـا الغربي(٢٠).

أما في ما يتعلق بالاقتصاد، فربما يكون الجانب الأكثر إثارة للإعجاب هـو الجهد الذي استمر عبر قرون عدة، لرفـع الانتاجيـة الزراعيـة عن طريق استخـدام وسائـل أفضـل وانتقاء البذور واختيار مختلف أنواع الأسمدة واستجلاب محاصيل جديـدة. وقد جاءت الطبعة الأولى من الكتاب الذي صدر في القرن الثامن عشر عن إنتـاج الحريـر الخام في ٣ آلاف نسخة. ونتيجة ذلـك كانت المحاصيل اليـابانيـة من أكثر المحـاصيل وفرة في العالم واستمرت تتزايد باطراد.

وكانت الحِرف اليدوية اليابانية على مستـوى مرتفـع للغايـة، ومنتشرة في القرى والمدن على حـد سواء. ونـظراً لعزلـة اليابـان فقد تعـرضت تلك الحِرف إلى المنـافسة الأوروبية في فترة متأخرة عن الشرق الأوسط والهند وأمريكـا اللاتينيـة، بل والصـين. واستطاعت الحِرف اليابانية البقاء فترة أطول لتمثل دوراً هاماً في عملية التصنيع خاصة في صناعة المنسوجات والخزف، بل وفي مجالات أخرى عن طريق التعاقد من الباطن. وقد استطاعت تلك الحـرف البقاء مـدة أطوْل بسبب نمط التنميـة اليابـاني المستمر، إذ

---

(١٩) Cyril Edwin Black [et al.], *The Modernization of Japan and Russia* (New York: Free Press, ©1975), pp. 82-85 and 106-109; Herbert Passin, *Society and Education in Japan*, Columbia University Comparative Education Series (New York: Columbia University, Teachers' College, 1965), pp. 11-16, and Nan [Ivan] Morris, *The Life of an Amorous Woman* (London: [n.pb.], 1964), pp. 26-27.

(٢٠) Donald Keene, *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1969), passim.

سرعان ما اقتبس اليابانيون أساليب الإنتاج الأوروبية، وإن احتفظوا بأنماطهم الاستهلاكية التقليدية الخاصة بهم حتى فترة قريبة جداً، في الوقت الذي تعلمت بقية شعوب الشرق الأوسط ـ بالسرعة نفسها ـ كيف تستهلك على الطريقة الغربية، بينما لم تبدأ في تطبيق أساليب الإنتاج الغربية الأحدث. وفي العقود القليلة الأخيرة تغيرت أنماط الاستهلاك اليابانية وإن ظل هناك تفضيل قوي لاستخدام البضائع المصنعة محلياً، وهو ما يكدر المصدّرين الأمريكيين والأوربيين. وفي هذا المجال أيضاً يلاحظ الفارق بين اليابان والشرق الأوسط.

ويمكن الإشارة إلى موضوعات اقتصادية أخرى، منها وجود درجة عالية من النظام النقدي ومؤسسات وسندات ائتمان متطورة جداً، بما في ذلك الأوراق المالية والشيكات بل «وضمانات المعاملات المؤجلة في الأرز» في أوساكا في عام ١٧٣٠. وقد استخدم نظام القيد المزدوج في مسك الدفاتر الذي كان في معظمه على درجة عالية من الدقة. وكذا أنشيء ما قد يكون أول المحلات التجارية المتكاملة في العالم كله في طوكيو عام ١٦٨٣ على يد عائلة ميتسيوي. وربما يكون الأكثر روعة من ذلك كله الأخلاقيات السائدة في العمل والربح وهي التي أوضحتها الكثير من الكتب التجارية والزراعية التي استُخدمت في المدارس اليابانية[٢١]. وينبغي أن نضيف أيضاً أن اليابان امتلكت موارد طبيعية تناسب مرحلة ما قبل التصنيع ومرحلة التصنيع المبكر، بما في ذلك الحديد والنحاس والفحم والخشب والطاقة المائية، وسهلت أنهارها الصالحة للملاحة وسواحلها الطويلة عمليات النقل البحري بدرجة كبيرة.

٣ ـ روسيا

إن المقارنة بين روسيا والشرق الأوسط في بداية القرن التاسع عشر قد تؤدي ـ للوهلة الأولى ـ إلى ملاحظة القليل فقط من الاختلاف. فقد كانت محاصيل الحبوب أكثر انخفاضاً في روسيا[٢٢]. وكانت منتجات الحِرف اليدوية متدنية والتحضر أقلّ اتساعاً بدرجة كبيرة، بينما كان الإلمام بالقراءة والكتابة أعلى بدرجة ضئيلة، إن كان هناك فارق على الإطلاق. وكانت نفقات النقل أيضاً أكثر ارتفاعاً على نحو ملحوظ. غير أن العوامل الرئيسية التي حالت دون التنمية في روسيا لفترة طويلة ـ وهي العزلة عن أوروبا الغربية، وعبء التاريخ المرير، والمساحات الشاسعة والمناخ القاسي الذي جعل من الصعب استغلال ثروات البلاد الهائلة، ومؤسسة القنانة الشريرة ـ كانت لا

(٢١) للمزيد من التفاصيل، انظر: Issawi, «Why Japan?» pp. 294-295.

(٢٢) انظر: Jerome Blum, *The End of the Old Order in Europe* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978), pp 144-145, and Issawi, *The Economic History of the Middle East and North Africa,* p. 119.

تزال تقبض على تلابيب الأمور داخل البلاد. إلا أن النظرة الأكثر عمقاً قد تكشف عن عوامل أخرى مؤثرة استطاعت عبر المئة سنة التالية أن تُوجِد فارقاً هائلاً بين روسيا والشرق الأوسط.

فبادىء ذي بدء، كان في روسيا حكومة قوية. فالجيوش التي هزمت شارل الثاني عشر وأغارت على أحياء استكهولم، وقهرت فردريك الثاني، واحتلت برلين، وتعقبت نابليون حتى وصلت إلى باريس، فضلاً عن الأسطول الذي أبحر من البلطيق ليستولي على بيروت في عام ١٧٧٢، كل ذلك إنما يبرهن على وجود بيروقراطية عالية الكفاءة وتنظيم جيد يوفر المؤن والذخيرة وقدرة كبيرة على فرض الضرائب وجمعها. فقد زادت عمليات جمع الضرائب خمس مرات في عهد بطرس الأول، واستمرت في الزيادة في عهد خلفائه. وأكثر من ذلك، كانت الحكومة شديدة الوعي بالحاجة إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، واتخذت الكثير من الإجراءات لتحقيق ذلك. وفي فترة مبكرة منذ عام ١٥٦٩، تم تشجيع عدد من أرباب الصناعة الانكليز على بناء مصانع حديد في روسيا. وفي المئة عام التالية أقام الأجانب الكثير من المشروعات في مجال صناعة السكّر والزجاج والمعادن وغيرها. وفي عام ١٦٥٢، أنشيء حي خاص للحِرفيين الأجانب في موسكو (السلوبودا)[٢٣]. وقد استغل بطرس الأول الأجانب بدرجة أكبر من سابقيه، ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فنفّذ سياسة مركنتيلية من أجل التنمية الاقتصادية. وتم حفر القنوات وبناء الترسانات البحرية، وأقيم العديد من المشروعات الصناعية. غير أن بطرس الأول اعتقد، مثل معاصريه الأوروبيين، أن القدر الأكبر من التنمية ينبغي أن تضطلع به المشروعات الخاصة. وشرع في «صناعة الصنّاع» وحمايتهم عن طريق فرض التعريفات المرتفعة وغيرها من الإجراءات، وتشجيعهم عن طريق تقديم القروض وما إلى ذلك من الامتيازات المتعددة. وفي عام ١٧١٨ تم إنشاء ثلاث جماعات أو هيئات (لرجال الأعمال والصناعة والمناجم) للإشراف على عملية التنمية ومنح الأكفاء الامتيازات التي يستحقونها[٢٤].

وقد استمر خلفاء بطرس الأول في تشجيع الصناعة والتعدين، وإن كانوا قد أعطوا المزيد من الفرص للمشروعات الخاصة[٢٥]. ونتيجة ذلك تضاعف عدد

(٢٣) Peter Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia* (New York: Macmillan, 1949), pp. 269 and 833-855, and Hermann Kellenbenz, «The Organization of Industrial Production,» in: Postan and Rich, eds., *The Cambridge Economic History of Europe*, vol.5, p.529.

(٢٤) انظر: Simone Blanc, «The Economic Policy of Peter the Great,» in: William L. Blackwell, ed., *Russian Economic Development from Peter the Great to Stalin*, Modern Scholarship on European History (New York: New Viewpoints, 1974), pp. 23-49.

(٢٥) Arcadius Kahan, «Continuity in Economic Activity and Policy During the Post-Petrine Period,» in: Blackwell, ed., Ibid., pp. 51-70.

المصانع عدة مرات وزاد متوسط حجمها. وأصبحت صناعة الحديد الروسية، لأكثر من عقد، أكبر صناعات الحديد في العالم، كما حدث توسع ضخم في صناعة المنسوجات والسكّر وفي بعض فروع الصناعات الكيميائية(٢٦). وسيطر عدد من رجال الأعمال، ومعظمهم ممن كانوا في ما سبق من التجار وبعضهم ممن كانوا من العبيد، على المشروعات الصناعية الكبرى في الأورال وموسكو وغيرها. وواكب ذلك التوسع الاقتصادي قدر كبير من الابتكار. وتعطينا قائمة الابتكارات الروسية في مجال العلوم التطبيقية والصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر صورة مؤثرة حتى بعد أن نستبعد ادعاء السوفيات الريادة في كل المجالات من اختراع العجلات إلى معجزات القرن الحادي والعشرين(٢٧).

وكان هناك أيضاً تقدّم فكري ضخم. فأُقيمت أول مطبعة في عام ١٥٥٣ وإن ظل إنتاجها محدوداً. وكان بطرس الأول في ما يتعلق بالتعليم عملياً إلى حد بعيد، فافتتح مدارس الهندسة والبحرية والمدفعية وعلوم الرياضيات، وأسس جريدة في عام ١٧٠٣ تحمل اسم «أخبار الجيش والشؤون الأخرى التي تستحق المعرفة والتذكر»، كما أسس أكاديمية العلوم التي افتتحت عقب وفاته مباشرة في عام ١٧٢٥. وقد أجبر الأشراف (النبلاء) على إرسال أبنائهم إلى المدارس الحكومية. وقد تأسست جامعة موسكو في عام ١٧٥٥ وتبعتها أربع مدارس ثانوية (Gymnasia)(٢٨). وفي بداية القرن التاسع عشر أنشئت جامعتان إضافيتان وأعقبتها أربعون مدرسة ثانوية. وهكذا فقد وُضع الأساس للتقدم الفكري الروسي الهائل في القرن التاسع عشر.

ومن المفيد أن نتتبع التطورات في مجال الفكر الاجتماعي. فحتى قبل عهد بطرس الأول أبدى كثيرون من الاقتصاديين فهماً جيداً للأوضاع في روسيا، خاصة أوردين ناشوكين (١٦٠٥ - ١٦٨٠) وبوسوشكوف (١٦٥٢ - ١٧٢٦). وقد وضع هذا الأخير كتاباً هاماً عن «الفقر والثروة». وفي عام ١٧٣٨، صدر أول كتيّب عن الاقتصاد الزراعي. وطرح عقل لومونوسوف (١٧١١ - ١٧٦٥) الموسوعي تساؤلات في مجال التاريخ واللغويات والعلوم الطبيعية أيضاً. وفي عام ١٧٦٥، تأسست جمعية الاقتصاد الحر، ونُشر «القاموس التجاري»، وهو أول موسوعة اقتصادية في روسيا ما

---

(٢٦) لمزيد من التفاصيل والأرقام انظر: Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia*, pp. 292-304 and 329-339, and Kahan, Ibid., pp. 61-63.

(٢٧) Lyashchenko, Ibid., pp. 328-329 and 425-426, and Roger Portal, «The Industrialization of Russia,» in: Postan and Rich, eds., *The Çambridge Economic History of Europe*, vol.6 (1965), pp. 801-863.

(٢٨) Joseph Slabey Roucek, ed., *Slavonic Encyclopaedia* (New York: Philosophical Library, 1949), p. 267, and Richard Pipes, *Russia under the Old Regime*, History of Civilization (New York: Scribner, °1974), p.123.

بين عامي ۱۷۸۷ و ۱۷۹۲[٢٩]. ومن الجدير بالذكر أن الترجمة الروسية لكتاب آدم سميث ثروة الأمم ظهرت بين عامي ۱۸۰۲ و ۱۸۰٦، أي بعد ٢٦ عاماً فقط من ظهور الطبعة الانكليزية. . . وقد كتب نيكولاي نوفيكوف (١٧٤٤ - ١٨١٨) في عهد كاترين بعض الانتقادات الشديدة الحدة للمجتمع الروسي. ونشرت دار النشر الخاصة به حوالى ٩٠٠ كتاب، في الوقت الذي ألف فيه الكسندر راديشيف (١٧٤٩ - ١٨٠٢) كتابه الشهير رحلة من بطرسبرج إلى موسكو[٣٠]. ودعوني أضيف فقط أنه في عام ١٨٢٠، كان في المكتبة الامبراطورية في بطرسبرج ٣٠٠ ألف مجلد، وهو رقم لم تتخطه في ذلك الوقت المكتبة الملكية في باريس، ومكتبة بودليان في اكسفورد، والمكتبة الوثائقية في ميونيخ[٣١].

وبمعنى آخر، تخمرت العجينة الروسية الثقيلة بالتقدم الفكري والاقتصادي، وسرعان ما أمكن رؤية النتائج التي تمثلت، من ناحية، في الازدهار الثقافي لروسيا، وفي النهضة الصناعية التي حدثت ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٥٠، من ناحية أخرى[٣٢]. وقد سهّل إلغاء القنانة في عام ١٨٦١ حدوث تطور رأسمالي سريع سجل أعلى معدلات النمو الصناعي في العالم وأدى إلى تأسيس ثانية أضخم شبكة سكك حديد في العالم وبدأ في تحسين حيازات الأراضي والأساليب الزراعية، ونشر التعليم حتى ارتفعت نسبة الإلمام بالقراءة والكتابة بين المجندين من ٣٠ بالمئة في عام ١٨٨٨ إلى ٦٨ بالمئة في عام ١٩١٣[٣٣]. وإذا استبعدنا الآثار المدمرة للحرب العالمية الأولى لربما كان هذا التطور الرأسمالي قد حوّل روسيا إلى شكل من أشكال الحكم البرجوازي الدستوري.

٤ ـ البلقان

يمكننا أن نتحدث بإيجاز عن أحوال البلقان، فهذه المنطقة تسبق اليوم منطقة الشرق الأوسط بكل المعايير الاقتصادية والاجتماعية. لقد كانت قبل الحرب العالمية الأولى تسبقها كثيراً في المجال الاجتماعي وفي بعض المجالات الاقتصادية مثل التصنيع

(٢٩) Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia*, pp. 837-841.
وانظر أيضا: «Lomonosov,» «Ordin - Nashchokin,» and «Pososhkhov,» in: *Bol'shaia Sovetskaia Entsiklopedia*, 2nd ed. (Moscow: [n.pb.], 1949-1957).

(٣٠) Joseph Schumpeter, *History of Economic Analysis* (New York: Oxford University Press, 1954), p.193, and Pipes, Ibid., pp. 256-258

(٣١) Cipolla, *Literacy and Development in the West*, p. 109.

(٣٢) V.K. Yatsumsky, «The Industrial Revolution in Russia,» in: Blackwell, ed., *Russian Economic Development from Peter the Great to Stalin*, pp. 109-136, and Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia*, pp. 327-339.

(٣٣) Cipolla, Ibid., p.118.

واتساع السكك الحديد، ولكنها لم تكن تفوقها في بعض المجالات الأخرى مثل الدخل الفردي أو التجارة الخارجية.

غير أنه في حوالى عام ١٨٠٠، لم تكن منطقة البلقان أفضل حالاً من معظم أجزاء الشرق الأوسط بكل المؤشرات تقريباً. فكانت محاصيل الحبوب أكثر ارتفاعاً على نحو طفيف[٣٤]. ومن الأرجح أن النقل لم يكن أفضل حالاً، فكانت تستخدم عدداً أكبر من عربات الجر، كما كان فيها عدد أكبر من الأنهار الصالحة للملاحة. ولكن التضاريس كانت أكثر وحولة ووعورة. ولم تكن الإبل تستعمل في النقل. وفي بعض المناطق، خاصة بلغاريا، كانت الحِرف اليدوية أكثر انتشاراً؛ لكن المنطقة افتقرت إلى الحِرف الرفيعة التي وُجدت في اسطنبول والقاهرة وحلب وأصفهان[٣٥]، كما كان هناك درجة أعلى من الإلمام بالقراءة والكتابة وإن كانت ليست أعلى بكثير. أما مستويات التحضر، فكانت أقل بكثير: إذ سكن مدينة سالونيكا ـ أكبر المدن في تلك المنطقة ـ أقل من ٧٠ ألف نسمة، وظلت هذه المدينة بيد العثمانيين حتى عام ١٩١٢.

وتتمتع منطقة البلقان بميزة طبيعية واحدة هامة تميزها عن الشرق الأوسط، وهي حصولها على كميات أوفر وأكثر انتظاماً من الأمطار، مما أدى إلى وجود الغابات وإلى توافر طاقة مائية أكبر وأنهار أكثر قابلية للملاحة. غير أن السر في الإنجاز الأفضل لتلك المنطقة إنما يكمن في المجالات السياسية والاجتماعية. فبادىء ذي بدء، حصلت أولاً منطقة البلقان على استقلالها في مرحلة مبكرة عن الشرق الأوسط؛ وعلى الرغم من أن الحكومات في تلك المنطقة كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار أو الاستنارة، إلا أنها كانت أكثر استجابة للمطالب الوطنية. فقد عززت الاقتصاد ودعمته عن طريق تقديم الحماية وإقامة البنية التحتية وتوسيع الائتمان وإقامة بعض التصنيع في الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى. ثانياً، وهو الأهم، أن المجتمعات في منطقة البلقان كانت سليمة بدرجة أكبر من مثيلاتها في الشرق الأوسط، ويمكن ملاحظة ذلك في الكثير من المجالات.

أ ـ وقبل كل شيء، أصبح بإمكان السواد الأعظم من الفلاحين أن يمتلكوا

---

(٣٤) انظر الأرقام عن الفترة من عام ١٨٦٢ حتى عام ١٩١٢ في:

John R. Lampe and Marvin Jackson, *Balkan Economic History, 1550-1950: From Imperial Borderland to Developing Nations,* Joint Committee on Eastern Europe Publications Series; no.10 (Bloomington: Indiana University Press, 1982), p.188.

(٣٥) انظر: Doreen Warriner, ed., *Contrasts in Emerging Societies: Readings in the Social and Economic History of South - Eastern Europe in the Nineteenth Century* (Bloomington: Indiana University Press, 1965), p.3 and passim.

وانظر أيضاً: *La Révolution industrielle dans le sud-est européen* (Sofia: Institut d'études balkaniques, 1976), pp. 146-150 and passim.

أراضيهم. وبما أن الكثافة السكانية كانت ضئيلة فترة طويلة، فقد كانت الحيازات الفلاحية مناسبة. وجاء توزيع الأرض في الصرب واليونان («القديمة» وتساليا) وبلغاريا مع الاستقلال ورحيل الطبقة الحاكمة التركية. أما في كرواتيا فجاء مع الإصلاح النمساوي في عام ١٨٤٨. وكانت رومانيا فقط هي التي تعاني من طبقة كبيرة وطفيلية من ملّاك الأرض في مقابل طبقة من الفلاحين الشديدي الحرمان. وذلك رغم قانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في عام ١٨٦٤، وغيره من الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الرومانية(٣٦). وقد نتج من ذلك أن كانت تعليقات الأجانب على مستويات المعيشة وما يرتبط بها من مساواة اجتماعية تعبّر عن استحسان وإعجاب(٣٧). وهناك نتيجة أخرى لهذه المساواة ولتطور المحاصيل النقدية للتصدير إلى غرب أوروبا ووسطها(٣٨). فقد زادت التعاونيات الريفية التي كانت تفي باحتياجات المزارعين من الائتمان وتساعدهم على تحسين إنتاجهم(٣٩).

ب ـ لقد كان السكان في البلقان أكثر تعلماً من سكان الشرق الأوسط فقد أُرسل الطلاب في القرن السابع عشر والثامن عشر إلى أوروبا وكانت الكتب تُطبع في أوروبا بمختلف اللغات المحلية وترسل إلى منطقة البلقان، كما تم إنشاء الكثير من المدارس في اليونان(٤٠). وفتحت التجارة مع النمسا وإيطاليا الطريق أمام أفكار جديدة وكانت رغوصة (دوبروفنيك الحالية) مركزاً قوياً للتنوير. وبعد الاستقلال، تم افتتاح الكثير من المدارس العامة والفنية والإشرافية. ومع حلول ١٩١٠ كان حوالى ٣٥ بالمئة إلى ٤٠ بالمئة من الأطفال في الفئة العمرية ٥ ـ ١٤ سنة يلتحقون بالمدارس الابتدائية. وكان الالتحاق بالمدارس الثانوية مرتفعاً أيضاً. بل إن نسبة كبيرة من أولئك الذين كانوا في التعليم العالي والثانوي كانت تتلقى كذلك تدريباً فنياً(٤١). ومع مجيء عام ١٩٠٧، كانت اليونان قد وصلت في مجال الإلمام بالقراءة والكتابة إلى نسبة ٣٩ بالمئة وبلغاريا ٣٤ بالمئة بالمقارنة بـ ٧ بالمئة في مصر أو النسب الأكثر انخفاضاً في بقية أجزاء الشرق الأوسط. ومع مطلع عام ١٩٢٧ كانت النسبة في بلغاريا واليونان قد وصلت

---

(٣٦) Warriner, Ibid., pp 3-16 and passim; Leften Stavros Stavrianos, *The Balkans Since 1453* (New York: Dryden Press, 1958), pp. 296-297 and 478-479, and Lampe and Jackson, Ibid., pp. 184-189.

(٣٧) لمزيد من التفاصيل عن الصرب، انظر: Warriner, Ibid., pp. 302-308.
وعن بلغاريا، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ و٢٧٣ ـ ٢٧٥.

(٣٨) Bruce McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe, 1600-1800* (Cambridge, Eng.; New York: Cambridge University Press, 1981), and Lampe and Jackson, Ibid., pp. 159-201.

(٣٩) McGowan, Ibid., pp. 198-200, 305-306 and 369-375, and Lampe and Jackson, Ibid., pp. 264-267 and 363

(٤٠) Stavrianos, *The Balkans Since 1453*, pp. 146-148.

(٤١) انظر الجدول في: Lampe and Jackson, Ibid., pp. 502-504.

إلى ٦٠ بالمئة بالمقارنة بـ ١٥ بالمئة في مصر، و٨ بالمئة في تركيا[٤٢].

ج ـ بدأت معدلات المواليد تنخفض قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومع بداية العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، كانت قد وصلت إلى مستويات منخفضة[٤٣].

د ـ استفادت دول البلقان من هجرات مئات الآلاف من أبنائها إلى العالم الجديد وروسيا ومصر وغيرها من المناطق الأخرى. فتم تحويل الأموال، واكتساب المهارات والعودة بأفكار جديدة. ولم يتمتع بهذه الميزة من دول الشرق الأوسط إلا لبنان وإن كان ينبغي أن نذكر الإيرانيين في القوقاز.

تبقى كلمة وجيزة يجب ذكرها عن اليونان، فهي أقل البلدان من حيث الموارد، وقد اشترك سكانها دائماً في التجارة والملاحة. وفي مطلع القرن الثامن عشر كان اليونانيون يضطلعون بالفعل بنسبة هائلة من التجارة والملاحة العثمانية إضافة إلى تجارة روسيا الجنوبية. وتم تشغيل اليونانيين بكثافة في البيروقراطية العثمانية. ونشأت البرجوازية اليونانية في مرحلة مبكرة ومثلت دوراً هاماً في التطور السياسي والثقافي والاقتصادي لليونان ولجيرانها على حد سواء.

٥ ـ أمريكا اللاتينية

إن منطقة أمريكا اللاتينية أعقد من أن تتم مناقشتها هنا، ولكن ينبغي لي أن أذكر بعض النقاط عن دولتين هما الأرجنتين والمكسيك، الأولى تمثل الإقليم الجنوبي الخصب المعتدل غير المأهول، والثانية تمثل المنطقة الشمالية الأكثر كثافة والتي وُجدت فيها الحضارات القديمة.

في القرن الثامن عشر، أصبحت بوينس أيرس مدينة يسكنها أكثر من ٥٠ ألفاً وبوابة الدخول إلى مركز استخراج الفضة من المناجم في بوتوسي (بوليفيا الحالية). وبعد الاستقلال، تحولت بوينس ايرس إلى مركز لتصدير الجلود والأصواف وبعض المنتجات الحيوانية الأخرى. وبعد عام ١٨٦٠ بدأت في اجتذاب كميات كبيرة من رؤوس الأموال والمهاجرين، الأمر الذي مكّن الأرجنتين من تأسيس شبكة خطوط السكك الحديد بلغ طولها ٣٥ ألفْ كلم مع مطلع عام ١٩١٤، وأن تصبح من أكبر الدول المصدرة للقمح واللحوم. وفي عام ١٩١٤ كانت بوينس ايرس مدينة فيها ١,٥ مليون نسمة، وكانت الأجور فيها أعلى بنسبة ٢٥ بالمئة من باريس. وقد بدأ التصنيع

(٤٢) UNESCO, *Progress of Literacy in Various Countries* (Paris: UNESCO, 1953).

(٤٣) Marvin Jackson, «Comparing the Balkan Demographic Experience, 1860 to 1970,» *Journal of European Economic History*, vol.14 (Fall 1985).

على نطاق واسع في ثمانينيات القرن التاسع عشر واستمر بمعدلات سريعة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان الناتج القومي الإجمالي للأرجنتين مرتفعاً بالمقارنة بأستراليا وكندا، كما كانت ثقافتها بمستوى الثقافات الأوروبية نفسه تقريباً. كل هذا بصرف النظر عن نظرية التبعية، لم يمثّل أي مشكلة لعلماء التاريخ الاقتصادي المحافظين الذين يؤمنون بالتنمية التي تقوم على تصدير المنتجات الخام(٤٤) واللغز الحقيقي هو لماذا كان إنجاز الأرجنتين ضعيفاً إلى هذا الحد في مرحلة ما بعد الحرب الأخيرة؟ واعتقادي هو أن للسياسة بوجه عامة ولخوان بيرون بوجه خاص، أهمية كبيرة عند الإجابة عن هذا السؤال. إلا أنه لا ينبغي التقليل من أهمية أثر انخفاض أسعار الصادرات.

ولم تمتلك المكسيك مصادر القوة التي تمتعت بها الأرجنتين من أرض زراعية شديدة الخصوبة وأمطار وفيرة ومنتظمة وأنهار صالحة للملاحة، كما كان تاريخها أكثر تنوعاً بدءاً بانكماش عدد السكان الهنود من ٢٠ مليون تقريباً في عام ١٥٠٠ إلى مليون في عام ١٦٠٠(٤٥). غير أن ما ينبغي التركيز عليه في هذا الإطار هو أنه في عام ١٨٠٠ تقريباً، كانت المكسيك (مثلها مثل معظم دول أمريكا اللاتينية) مكاناً أكثر تحضراً وأفضل حالاً من الشرق الأوسط.

أما في ما يتعلق بالثروة، فقد شهدت المكسيك في القرن الثامن عشر زيادة ضخمة في السكان والإنتاج معاً، بما في ذلك التعدين والزراعة والصناعات اليدوية(٤٦). وتشير الأرقام المتاحة إلى أن متوسط نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي في المكسيك كان يتراوح بين ثلث ونصف قيمته في الولايات المتحدة، ويجب الإشارة هنا إلى أن المكسيك كانت تشتمل على نصف إجمالي عدد السكان ونصف الإنتاج الكلي لأمريكا الإسبانية(٤٧). وكانت تقانة التعدين على درجة عالية من التقدم، بل كانت تتحسن باطراد. ونشطت الحرف اليدوية، وحصلت الضياع الكبيرة على الكثير من الاستثمارات الرأسمالية. وكانت التجارة ـ سواء المشروعة أو غير المشروعة ـ ضخمة للغاية، وكان هناك عدد كبير من التجار الكبار يبلغ رأسمال بعضهم ما يقرب

---

(٤٤) Jonathan C. Brown, *A Socio - Economic History of Argentina, 1776-1860*, Cambridge Latin American Studies; 35 (Cambridge, Mass.; New York: Cambridge University Press, 1979), pp. 225-234 and passim, and Laura Regina Rosenbaum Randall, *An Economic History of Argentina in the Twentieth Century* (New York: Columbia University Press, 1978).

(٤٥) D A. Brading, *Miners and Merchants in Bourbon Mexico, 1763-1810*, Cambridge Latin American Studies; 10 (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1971), pp. 1-3, and James Lockhart and Stuart Schwartz, *Early Latin America* (Cambridge, Mass.; New York: Cambridge University Press, 1983), p. 36.

(٤٦) Brading, Ibid., pp. 14-18, and Lockhart and Schwartz, Ibid., pp. 306-308.

(٤٧) Brading, Ibid., pp. 18-19, and Fernand Braudel, *The Perspective of the World* (New York: Harper and Row, 1984), p.241.

من ٥٠٠ ألف دولار، وكان هؤلاء يتعاملون بقيم إئتمانية هائلة(٤٨).

ولا يعني كل هذا، بالطبع، أن مستوى معيشة الجماهير كان مرتفعاً. **أولاً**: كان هناك استنزاف ضخم دون مقابل للفضة لصالح إسبانيا. فبالنسبة إلى عام ١٧٨٥، كان الإجمالي بالنسبة إلى المستعمرات حوالى ٣٠ مليون دولار بالمقارنة بـ ٦,٥ مليون للهند في العام نفسه(٤٩). ثانياً، كانت هناك درجة عالية جداً من عدم المساواة نتيجة التكوين الاثني والاجتماعي. ففي نهاية القرن الثامن عشر، كان $\frac{1}{5}$ سكان المكسيك من الإسبان و $\frac{1}{5}$ آخر من عناصر كانت مختلطة و $\frac{3}{5}$ من الهنود، وهي نسب لا تضاهيها سوى أجزاء قليلة أخرى من أمريكا الاسبانية، وأعلى بكثير من مناطق أخرى(٥٠). وكانت هناك بعض الملكيات تقدّر بحوالى ٢ أو ٣ مليون دولار(٥١).

وقد ساعدت هذه الثروة على الإنفاق على مؤسسة تعليمية ضخمة. وتم إنشاء المطابع منذ بداية الغزو، وافتتحت الجامعة في فترة مبكرة منذ الخمسينيات من القرن السادس عشر في مدينتي ليما والمكسيك. ومع نهاية الحقبة الاستعمارية، كان هناك أكثر من ٢٠ مؤسسة للتعليم العالي بما في ذلك كلية للتعدين افتتحت في المكسيك في عام ١٧٩٢. وقد منحت هذه المؤسسات ١٥٠ ألف درجة علمية(٥٢). وأقيمت هذه المؤسسات على غرار جامعة «سلمنقة» الاسبانية التي كانت آنذاك من أكبر الجامعات الأوروبية (٧٠٠٠ طالب) وأكثرها نشاطاً(٥٣)، وسافر الكثير من الطلاب إلى الخارج، ليس فقط إلى إسبانيا، وإنما إلى فرنسا وإيطاليا وانكلترا(٥٤). وبالطبع كانت إسبانيا دائماً جزءاً من التيار الثقافي الأوروبي وإن كانت متأخرة عنه بعض الشيء. ونتيجة ذلك، اشترك أبناء أمريكا اللاتينية في حركة التنوير ـ في مجال الفلسفة والطبيعة والرياضيات والأحياء ـ وكانوا على دراية بكل أعمال ديكارت ونيوتن ولوك ولايبنتز وآدم سميث وبوفون وفرنكلين وغيرهم، بل كانوا دائماً من المنتقدين لها. وقد اتضح هذا الأمر بجلاء من خلال الدراسة التي اعتمدت على الرسائل العلمية التي كان يقدمها الطلاب

---

(٤٨) Brading, Ibid., pp. 94-100, 120-125, 131-139 and 216, and Lockhart and Schwartz, Ibid., pp. 142-148.

(٤٩) Braudel, Ibid., p.421.

(٥٠) Lockhart and Schwartz, Ibid., p. 342, and John K. Chance, *Race and Class in Colonial Oaxaca* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1978), passim.

(٥١) Brading, *Miners and Merchants in Bourbon Mexico, 1763-1810*, pp. 294-298.

(٥٢) John Tate Lanning, *The University in the Kingdom of Guatemala* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1955), p.3.

انظر أيضاً: «Mejico,» and «Peru,» in. *Enciclopedia Universal Illustrada:* (Barcelona; Madrid).

(٥٣) John Huxtable Elliott, *Imperial Spain, 1469-1716* (London: Edward Arnold, 1963), p.118.

(٥٤) Lockhart and Schwartz, *Early Latin America*, p. 411.

في جامعة سان كارلوس في غواتيمالا، وهي إحدى الجامعات الصغرى(٥٥). وإضافة إلى ذلك، فقد انكّب المثقفون على المشكلات المحلية بدءاً من علوم الطب والنبات وحتى الاقتصاد(٥٦).

ومن الواضح أن أمريكا اللاتينية كانت قد سبقت الشرق الأوسط في عام ١٨٠٠ كثيراً. غير أن التدمير الهائل والفوضى الشديدة التي عمّت البلاد بعد الاستقلال أدت إلى تراجع المنطقة. ولنأخذ مثالين على ذلك: لم يتم استعادة مستوى إنتاج الفضة الذي كان سائداً في عام ١٨١٠ إلا في عام ١٨٨٠ تقريباً، وقد أغلقت جامعة المكسيك على نحو متكرر بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٦٥، إلى أن تم إغلاقها نهائياً في عام ١٨٦٥. ومن ثم، كان على المنطقة أن تبدأ في صعود السلّم مرة أخرى بمشقة في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.

٦ ـ الصين

لا أملك الجرأة على عرض تاريخ الصين، ولكنني أشير فحسب إلى أنه حتى نهاية القرن الثامن عشر كانت الصين دائماً في المقدمة في ما يتعلق بالتقدم الاقتصادي والتقاني، بل والعلمي أيضاً. كما أنها أفرزت مجتمعاً مثقفاً للغاية. فوجدت الطباعة على نطاق واسع منذ القرن السابع، وكان حوالى ٣٠ ـ ٤٥ بالمئة من الذكور و٢ ـ ١٠ بالمئة فقط من الإناث يتمتعون بمقدرة ما على القراءة والكتابة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(٥٧)، وإن كان هذا يبدو تقديراً شديد المبالغة. وبعد سلسلة من الصدمات الداخلية والخارجية المدمرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إنهار المجتمع، وشهدت الصين قرناً ونصف قرن تقريباً من التمزق والفوضى، غير أنها تبدو الآن وقد اتخذت موقعها من جديد ضمن أكثر مجتمعات العالم دينامية.

أتمنى أن تكون الفكرة التي أحاول أن أعرضها قد اتضحت الآن: لقد دخل الشرق الأوسط القرن التاسع عشر وهو يعاني ظروفاً اجتماعية واقتصادية معوقة مقارنة بالمناطق التي تعرّضنا لها. ولكن يبقى لنا أن نتساءل لماذا لم يلحق الشرق الأوسط بركب التقدم في القرنين التاليين؟ تكمن الأسباب في مجموعتين من العوامل الداخلية والخارجية.

---

(٥٥) John Tate Lanning, *The Eighteenth Century Enlightenment in the University of San Carlos de Guatemala* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1956).

(٥٦) Lockhart and Schwartz, Ibid., pp. 344-346.

(٥٧) Evelyn Sakakida Rawski, *Education and Popular Literacy in Ching China,* Michigan Studies on China (Ann Arbor: University of Michigan Press, °1979), p.23.

رابعاً: العوامل الخارجية

١ ـ في ما يتعلق بالعوامل الخارجية، خضع الشرق الأوسط لتأثير أوروبي قوي المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية[٥٨]. وكان لذلك الكثير من النتائج الإيجابية، فقد تضاعفت التجارة الخارجية عدة مرات، وحدث توسع كبير في الإنتاج الزراعي، وتم جلب محاصيل جديدة، وأنشئت الموانىء وخطوط السكك الحديد، وتحسنت الأوضاع الصحية على نحو ملحوظ، وتم وضع الأساس لإقامة تعليم حديث. وقد بدأت المنطقة في التحديث بمعدلات متسارعة. ولكن إضافة إلى التفكك المؤلم الذي قد يواكب أي تغيّر، كان هناك بعض التطورات المضادة وإن كانت لا تقارن باستنزاف الذهب في أمريكا اللاتينية والهند وتصدير العبيد من افريقيا وحرب الأفيون وما أعقبها في الصين. فبادىء ذي بدء، أدى تحسُّن الأحوال الصحية وتطور النقل الآلي، الذي حد من خطر المجاعات، إلى ازدياد السكان من خلال هبوط معدلات الوفيات. غير أن معدلات المواليد قد بدأت في الانخفاض في الشرق الأوسط في مرحلة متأخرة عن أي منطقة أخرى. وفي كثير من بلدان الشرق الأوسط، لا يبدو عليها أي علامات للانخفاض حتى الآن. وكانت النتيجة انفجاراً سكانياً شكل ضغطاً على الموارد.

٢ ـ مرة أخرى عانت الحِرف اليدوية، مثل كل مناطق العالم، منافسة البضائع المصنعة آلياً، فانهار معظمها. وعلى أي حال، بدأت عملية إعادة التصنيع ـ أي بناء مصانع حديثة ـ في مرحلة متأخرة في الشرق الأوسط بل وأكثر بطئاً عنها في روسيا والبلقان وأمريكا اللاتينية واليابان والهند، وفي كثير من الأوجه في الصين. ويرجع ذلك، من ناحية إلى صغر الأسواق المحلية وندرة الموارد الطبيعية والبنى التحتية ورؤوس الأموال والمهارات، ومن ناحية أخرى إلى الأثر القاتل للمعاهدات التجارية التي حرّمت الحماية الجمركية. ويعود ذلك إلى عدم اكتراث الحكومات سواء الوطنية (باستثناء حكومة محمد علي) أو الأجنبية، ومن ناحية ثالثة لم تبدأ المنطقة في التصنيع بالفعل إلا بعد الثلاثينيات من القرن العشرين، وبالتحديد بعد الحرب العالمية الثانية.

٣ ـ كان هناك الحجم الهائل من الديون العامة التي تم تبديد معظمها على الأرجح. ومرة أخرى فالشرق الأوسط لا ينفرد بهذه المعاناة، إذ يؤكد تاريخ البلقان وأمريكا اللاتينية الأداء السيّء نفسهُ (ولكن ليس روسيا والهند واليابان). إن مسألة ما إذا كان الشرق الأوسط قد عومل بقسوة أكبر من المناطق الأخرى في ما يتعلق بشروط السداد موضع نقاش. فمن المحتمل أن يصدق ذلك على مصر، ولكنه لا يصدق على

---

(٥٨) Issawi, *The Economic History of the Middle East and North Africa*, passim

تركيا. أما الكمية الضخمة من رأس المال الخاص التي كانت تتدفق إلى الداخل فكان يتم استخدامها إجمالاً على نحو منتج.

٤ ـ قامت التنمية الاقتصادية في الشرق الأوسط على أكتاف الأجانب إلى حد كبير جداً، وظلت محصورة في جيوب. ولم تكن المنطقة تستورد رأس المال والتقانة فقط من الخارج، وإنما استوردت أيضاً الطبقة البرجوازية والطبقة العاملة الماهرة. وباستثناء أبناء الأقليات الدينية، شاركت قلة من أبناء الشرق الأوسط في القطاعات الاقتصادية الحديثة: التجارة الخارجية، المالية، النقل الآلي، التعدين ثم الصناعة فيما بعد، إذ كان يديرها ويمولها الأوروبيون. ونتيجة لذلك، تطورت الموارد الطبيعية للشرق الأوسط دون الموارد البشرية. بل إنه بالمقارنة بروسيا والبلقان وأمريكا اللاتينية، لم يندمج الأجانب في النهاية في سكان البلاد الأصليين عن طريق الزواج أو الإقامة الدائمة، ولم تظهر برجوازية وطنية مسلمة إلا في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

وربما ينبغي لي أن أضيف نقطة واحدة أخرى. فقد جمع الشرق الأوسط بسبب وضعه السياسي بين الأسوأ في كل من العالمين. فعلى عكس اليابان وروسيا والبلقان وأمريكا اللاتينية لم تتمتع بلدان الشرق الأوسط بالاستقلال وما يتبعه من فرصة للعمل والتعلم من الخطأ. ولم تكن بلدان الشرق الأوسط كذلك خاضعة لذلك النوع من السيطرة الذي أدى إلى تنمية كبيرة قام بها البريطانيون في الهند، أو الروس في أذربيجان، أو اليابانيون في تايوان، أو الأمريكان في الفليبين. على العكس، كان هناك دائماً نفوذ القوى الخارجية المتصارعة التي يراقب كل منها الأخرى بعناية وغيرة مما حرم الامبراطورية العثمانية وإيران من قيام خطوط سكك حديد، بل أدّى إلى إحباط خطط تنموية أخرى. وبالطبع، تشير تجربة شمال افريقيا إلى أن السيطرة الأجنبية المباشرة يمكن أن تؤدي إلى الكثير من تطور الموارد، وإن كانت تعود بفائدة ضئيلة للغاية على السكان الأصليين.

خامساً: العوامل الداخلية

ولا بد أن نضيف إلى هذه العوامل الخارجية عاملاً داخلياً هاماً يتمثل أفضل وصف له بأنه الافتقار إلى الاهتمام المطرد بالتنمية الاقتصادية. فصحيح أن الحكومات كانت معوقة إلى حد كبير بالامتيازات الأجنبية والاتفاقات التجارية والضغوط الخارجية ونقص الأموال؛ غير أنه لا يمكن الادعاء أنه لم يكن باستطاعتها عمل المزيد لتقوية الاقتصاد وخاصة التعليم. والأدهى من ذلك، في الواقع، هو عدم مبالاة الناس أنفسهم. ففي النهاية لا يكلف تعليم الأطفال ـ أو حتى الكبار ـ القراءة والكتابة كثيراً، ولكنه في الواقع يحتاج إلى جهد شاق. وتجدر الإشارة إلى أن المعدلات المرتفعة

للإلمام بالقراءة والكتابة التي سجلتها أوروبا الغربية واليابان ومناطق أخرى التي وصلت إلى ٤٠ ـ ٥٠ بالمئة لم تكن لتتحقق عن طريق الدولة وإنما قامت بها أساساً الكنائس وغيرها من الهيئات الاجتماعية. ويمكننا هنا مقارنة المجهودات المحدودة للغاية التي قام بها الأتراك والعرب والإيرانيون ليس فحسب إزاء جيرانهم وغيرهم ولكن أيضاً إزاء أقلياتهم؛ اليونانيين والأرمن واليهود والعرب المسيحيين. فقد كانت الأقليات أكثر نجاحاً من الناحية الاقتصادية بفضل المساعدة والحماية الأجنبية لها. ويعود ذلك أيضاً إلى إنشائها العديد من المدارس وطلبها التعليم الفني والمتخصص[٥٩]. ويمكن هنا أيضاً أن نشير إلى نقطة أخرى باختصار. فالأغلبية العظمى من أبناء الشرق الأوسط الذين ذهبوا للدراسة في الخارج لم يدرسوا العلوم أو الاقتصاد أو، باستثناء قلة قليلة، الهندسة أو التقانة. فقد درس معظمهم القانون، ودرس القليل منهم الطب والآداب. ولا بد أن هذا كان له كذلك أثر عكسي في التنمية الاقتصادية.

في الخمسين عاماً الأخيرة تقريباً، تغيرت هذه الصورة الكئيبة على نحو واضح. فقد انتشر التصنيع بسرعة، وشجعه كثيراً ظهور النفط الذي نتج عنه وجود دخول هائلة ومهارات كبيرة وموارد لإمداد عملية التصنيع بالمواد الخام والوقود. كما تم التوسع في البنى التحتية على نحو هائل حتى أنها اقتربت الآن من مرحلة الكفاية. وقد غيّر الإصلاح الزراعي الهيكل الزراعي السيّء. وتم استعادة الاقتصاد من أيدي الأجانب وأصبح يدار الآن بأيدٍ وطنية.

كما تحسنت الأحوال الصحية على نحو ملحوظ، وازداد متوسط عمر الإنسان إلى ٦٠ عاماً. وقد شرعت المنطقة الآن في اجتذاب الإمكانات الضخمة لنصف عدد سكانها (التي لم تكن مستغلة حتى الآن) إذ تشارك المرأة الآن على نحو أكثر فاعلية في النشاط الاقتصادي والاجتماعي. وربما يكون الأكثر إيجابية من ذلك كله التقدم في مجال التعليم الذي يعبّر عنه أفضل تعبير ازدياد نسبة التعليم بين الكبار من حوالى ٢٠ بالمئة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى ٥٠ بالمئة أو ما يزيد. وفي المنطقة الآن عشرات الآلاف من الرجال والنساء المدربين في مجالات العلوم والتقانة والاقتصاد والإحصاء. ويقوم بعضهم بتقديم أعمال ممتازة. ويمكن تتبع التقدم في مجال التعليم بصورة مقارنة ومسلسلة تاريخياً من خلال جداول ريتشارد ايسترلين الرائعة التي توضح معدلات الالتحاق بالمدارس لكل ١٠ آلاف نسمة[٦٠]. وإذا اعتبرنا أن مستوى التعليم

---

(٥٩) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:

Issawi, «The Transformation of the Economic Position of the Millets in the Nineteenth Century».

(٦٠) Richard Easterlin, «Why Isn't the Whole Developed?» *Journal of Economic History,* vol.41 (March 1981), pp. 1-17.

الابتدائي الذي يسمح لبلد ما أن يستوعب التقانة ثم ينطلق في مجال التنمية الاقتصادية هو رقم (ألف)، فإننا نجد أن بلدان الشرق الأوسط الكبرى الثلاث ـ مصر وإيران وتركيا ـ قد بلغت هذا المستوى في عام ١٩٦٠. غير أنه حتى عام ١٩٣٠، كان المستوى في تركيا يقف عند ٣٠٠ فقط، بينما وجد مستوى أقل في مصر، ومستوى أقل بكثير في إيران. وبالمقارنة، وصلت أوروبا الغربية إلى هذا المستوى في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بينما وصلت إليه الولايات المتحدة في فترة سبقت هذا التاريخ، وبلغته كل من اليابان وروسيا مع نهاية القرن، وتبعتهما أمريكا اللاتينية في العشرينات والثلاثينيات من القرن العشرين.

ولا شك في أن الشرق الأوسط لا يزال محاطاً بمشكلات ضخمة: مثل الانفجار السكاني والتضخم الحضري وتدهور الانتاج الزراعي والسيطرة الخانقة للحكومة على الاقتصاد. ومن المحزن، في الواقع، أن نشهد استمرار تبديد الموارد والحروب التي لا نهاية لها والتراكم الشديد للتسلح. إلا أنه لا يكون من قبيل التفاؤل المبالغ فيه أن نقول إنه قد تم أخيراً وضع أسس التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وأود أن أخلص في النهاية إلى ملاحظة أخرى. فحتى الآن، اقتصر تحليلي الاداء الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة على العوامل المادية والاجتماعية. وأود أن أقوم هنا برحلة قصيرة داخل ملكوت الذهنية المحير. فإذا قمت بالتعميم والتبسيط بدرجة مفرطة، فإنه يمكن القول إنه في الوقت الذي اهتم فيه اليونانيون بالأفكار، والرومانيون بالتنظيم، والصينيون واليابانيون بالأشياء والتنظيم، والأوروبيون بالأشياء والأفكار، اهتم الشرق أوسطيون بالكلمات وبالله أيضاً. وكما ذكّرنا أحد أبناء الشرق الأوسط، كانت الكلمة هي الله، ولم تكن هذه الاهتمامات لتدفع بعملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية. ولكن انظر ما قدمته هذه الاهتمامات من إنجاز للمنطقة: بدأ السومريون والمصريون العملية الكاملة للحضارة، واخترع الفينيقيون الأبجدية وكانوا أول من أقام اقتصاد المدينة المستقلة التجارية، الذي كان أهم تطور اقتصادي ـ كما يشير هيكس ـ منذ أن توطدت الزراعة[٦١]. وقد قدّم اليهود والفرس والعرب أعظم الديانات البشرية، إضافة إلى أرقى الآداب والفنون. وتفوق قيمة هذه الإسهامات ـ بالتأكيد ـ العجز في المجالات التقانية والاقتصادية والاجتماعية خاصة أنه ليس ثمة ما يدل على أن المنطقة لن تتحسن في هذه المجالات أيضاً في المستقبل. بل أبعد من ذلك، فنحن نعيش في عصر أدرك فيه الكثيرون أن النمو الاقتصادي والتطور التقاني ليسا أهم ما في الوجود.

---

(٦١) John Richard Hicks (Sir), *A Theory of Economic History* (Oxford: Clarendon Press, 1969), p.39.

المراجع

١ ـ العربية

الكتب

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن. **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. بيروت: [د.ن.]، ١٩٧٨.

حسن، محمد سلمان. **التطور الاقتصادي في العراق: التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي، ١٨٦٤ ـ ١٩٥٨**. صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٦٥.

الخوري، رئيف. **الفكر العربي الحديث: أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي**. بيروت: دار المكشوف، ١٩٤٣.

الدوري، عبد العزيز. **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**. بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨.

المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. **إغاثة الأمة بكشف الغمة**. القاهرة: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال، ١٩٤٠.

الدوريات

لبيب، صبحي. «التجار الكارميون.» **مجلة الجامعة المصرية للدراسات التاريخية** (القاهرة): أيار/مايو ١٩٥٢.

٢ ـ الأجنبية

Books

Abu Hakima, Ahmad M. *History of Eastern Arabia, 1750-1800: The Rise and Development of Bahrain and Kuwait.* Beirut: Khayats, 1965.

Adams, Robert McCormick. *Land Behind Baghdad: A History of Settlement*

on the Diyala Period Plains. Chicago, Ill.: Chicago University Press, 1965.

Ahrweiler, Hélène. *Byzance et la mer, la marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux viie-xve siècles*. Paris: Presses universitaires de France, 1966. (Bibliothèque byzantine, études; 5)

Allen, George Cyril. *A Short Economic History of Modern Japan, 1867-1937*. London: Allen and Unwin, c1946.

Arnold, Thomas Walker (Sir) and Alfred Guillaume (eds.). *The Legacy of Islam*. Oxford: Clarendon Press, 1931.

Ashtor, Eliyahu. *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval*. Paris: S.E.U.P.E.N., 1969. (Monnaie, prix, conjoncture; 8)

——. *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*. Berkeley, Calif.: University of California Press; London: Collins, 1976.

Atiya, Aziz. *Crusade, Commerce and Culture*. Bloomington: Indiana University Press, 1962.

Babinger, Franz. *Mehmed the Conqueror and His Time*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978.

Baer, Gabriel. *Egyptian Guilds in Modern Times*. Jerusalem: Israel Oriental Society, 1964. (Oriental Notes and Studies; no.8)

Bailey, Frank E. *British Policy and the Turkish Reform Movement: A Study in Anglo-Turkish Relations, 1826-1853*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press; London: H. Milford; Oxford University Press, 1942.

Bairoch, Paul and M. Levy Leboyer. *Disparities in Economic Development Since the Industrial Revolution*. New York: St. Martin's Press, 1981.

Bath, B.H. Slicher van. *Yield Ratios, 1810-1820*. Wageningen: [n.pb.], 1963.

Beck, Hans-Georg, Manoussos Manoussacas and Agostino Pertusi (eds.). *Venezia Centro di Mediazione Oriente e Occidente, Secoli xv-xvi*. Florence: L. Olshki, 1977.

Beloch, Julius. *Die Bevölkerung der Griechisch - Römischen Welt*. Leipzig: [n.pb.], 1886.

Berdiâev, Nickolaĭ Aleksandrovich. *The Origins of Russian Communism*. London: C. Scribner, 1937.

Bermant, Chaim I. and Michael Weitzman. *Ebla: A Revelation in Archeology*. New York: Times Books, c1979.

Blachère, Régis. *Un Poète arabe du ive siècle de l'hégire (xe siècle de J.C.): Abou t-Tayyib al Motanabbî*. Paris: Adrien-Maisonneuve, 1935. (Essai d'histoire littéraire)

Black, Cyril Edwin [et al.]. *The Modernization of Japan and Russia*. New York: Free Press, c1975.

Blackwell, William L. (ed.). *Russian Economic Development from Peter the Great to Stalin*. New York: New Viewpoints, 1974. (Modern Scholarship European History)

Blum, Jerome. *The End of Old Order in Europe.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978.

Bol'shaia Sovetskaia Entsiklopedia. 2nd ed. Moscow: [n.pb.], 1949-1957.

Bouchier, E.S. *Spain under the Roman Empire.* Oxford: [n.pb.], 1914.

Boxer, Charles Ralph. *The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800.* London: Hutchinson, 1965. (History of Human Society)

Brading, D.A. *Miners and Merchants in Bourbon Mexico, 1763-1810.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1971. (Cambridge Latin American Studies; 10)

Braude, Benjamin and Bernard Lewis (eds.). *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society.* New York: Holmes and Meier Publishers, 1982.

Braudel, Fernand. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II.* Paris: Colin, 1949.

——. *The Perspective of the World.* New York: Harper and Row, 1984.

Brown, Jonathan C. *A Socio-Economic History of Argentina, 1776-1860.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1979. (Cambridge Latin American Studies; 35)

Brunt, Peter. *Italian Manpower: 225 B.C. -A.D. 14.* London: Oxford University Press, 1971.

Cahen, Claude. *Pre - Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, C. 1071-1331.* Translated form the French by Jones Williams. London: Sidgwick and Jackson, 1968.

Carter, Thomas Francis. *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward.* Reviewed by L. Carrington Goodrich. New York: Ronald Press, 1955.

Chance, John K. *Race and Class in Colonial Oaxaca.* Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1978.

Chardin, John (Sir). *Voyages du chevalier Chardin en Perse, et autres lieux de l'Orient.* 4 vols. Amsterdam: Aux dépens de la compagnie, 1735.

Chevalier, Louis. *Le Problème démographique nord - africain.* Paris: Presses universitaires de France, 1947. (Institut national d'études démographiques, travaux et documents, cahier no.6)

Childe, Gordon. *What Happened in History.* Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, c1942. (A Pelican Book)

Cipolla, Carlo M. *Clocks and Culture, 1300-1700.* New York: Walker, 1967.

——. *Literacy and Development in the West.* Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, 1969. (A Pelican Book; A 1027)

—— (ed.) .*The Fontana Economic History of Europe.* London: Fontana, 1972.

Clapham, John Harold. *A Concise Economic History of Britain from the Earliest Times to 1750.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1949.

Cockcroft, James D. [et al.]. *Dependence and Underdevelopment: Latin America's Political Economy.* Garden City, N.Y.: Anchor Books, 1972.

Cook, M.A. *Population Pressure in Rural Anatolia, 1450-1600.* London; New York: Oxford University Press, 1972. (London Oriental Series; v.27)

—— (ed.). *Studies in the Economic History of the Middle East: From the Rise of Islam to the Present Day.* London: Oxford University Press, 1970.

Coupland, Reginald (Sir). *East Africa and Its Invadors from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856.* Oxford: Clarendon Press, 1938.

Cromer, Evelyn.Baring. *Ancient and Modern Imperialism.* London: John Murray, 1910. (Questions of the Day Series)

——. *Modern Egypt.* New York: Macmillan, 1908.

Crouchley, Arthur Edwin. *The Investment of Foreign Capital in Egyptian Companies and Public Debt.* Cairo: Govt. Press, 1936. (Technical Paper; no.12)

Curzon, George N. *Persia and the Persian Question.* 2 vols. London: Longman, 1892.

Daniel, D. *Islam and the West: The Making of an Image.* Edinburgh: [n.pb.], 1960.

Darrāj, Ahmad. *L'Egypte sous le règne de Barsbay, 825-841 /1422-1438.* Damas: [s.n.], 1961.

Dasgupta, Ashin. *Malabar in Asian Trade.* Cambridge: [n.pb.], 1967.

Daumas, Maurice (ed.). *Histoire générale des techniques.* Publiée sous la direction de Maurice Daumas. Paris: Presses universitaires de France, 1962; 1965.

The Dawn of Modern Banking. New Haven, Conn.: [n.pb.], 1979.

Dawson, Raymond (ed.). *The Legacy of China.* Oxford: [n.pb.], 1964.

De Bary, W.T. *Approaches to the Oriental Classics.* New York: Columbia University Press, 1959.

De Goeje [et al.]. *Al-Tabarī Ta'rikh.* Leiden: [n. pb.], 1879-1901.

Decline and Fall.

Des Noëttes, Lefebvre. *La Force motrice animale à travers les âges.* Paris: [s.n.], 1924.

Dols, Michael W. *The Black Death in the Middle East.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, ©1977.

Eickhoff, Ekkehard. *Seekrieg und Seepolitik Zwischen Islam und Abendland: Das Mittelmeer unter Byzantinischer und Arabischer Hegemonie, 650-1040.* Berlin: De Gruyter, 1966.

Eldem, Vedat. *Osmanli Imparatorugunun Iktisadi Şartlari Hakkinda bir Tetkik.* Ankara: Türkiye Is Bank asi Kültür Yayinlari, 1970.

Elliott, John Huxtable. *Imperial Spain, 1469-1716.* London: Edward Arnold, 1963.

Enciclopedia Universal Illustrada. Barcelona; Madrid.

Encyclopaedia of Islam. 2nd ed.

Encyclopaedia Britannica.

Erdkunde xi. 1957.

Faludy, György. *Erasmus of Rotterdam.* London: Eyre and Spottiswoode, 1970.

Farnie, D.A. *East and West of Suez: The Suez Canal in History, 1854-1956.* Oxford: Clarendon Press, 1969.

Finley, Moses I. *Aspects of Antiquity: Discoveries and Controversies.* New York: Viking Press, 1968.

Food and Agriculture Organization (FAO). *FAO Mediterranean Development Project.* Rome: FAO, 1959.

Forster, Edward Morgan. *Alexandria: A History and* a *Guide.* 3rd. ed. Garden City, N.Y.: Anchor Books, 1961. (A Doubleday Anchor Original; A 231)

—— (trans.). *The Turkish Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq.* Oxford: [n.pb.], 1927.

Frank, Tenney (ed.). *An Economic Survey of Ancient Rome.* 6 vols. Baltimore, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1930-1940.

Fridman, Leonid Abramovich. *Kapitalistichiskoye Razvitiye Yegipta.* Moscow: [n.pb.], 1963.

Fück, J.W. *Die Arabische Studien in Europa.* Leipzig: [n.pb.], 1955.

Furber, Holden. *John Company at Work.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1948.

Garraty, John Arthur and Peter Gay (eds.). *The Columbia History of the World.* New York: Harper and Row, 1972.

Gautier, Emile Felix. *Mœurs et coutumes des musulmans.* Préface de Jacques Berque. Paris: Club du meilleur livre, 1949. (Collection historia; 19)

Ghirshman, R. *Iran.* London: [n.pb.], 1954.

Gibb, Hamilton Alexander Rosskeen and Harold Bowen. *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East.* 2 vols. London; New York: Oxford University Press, 1950.

Glamann, Kristof. *Dutch - Asiatic Trade, 1620-1740.* Copenhagen: Danish Science Press, 1958.

Goitein, Solomon Dob Fritz. *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza.* Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1967.

——. *Studies in Islamic History and Institutions.* Leiden: Brill, 1966.

Gomme, Arnold Wycombe. *The Population of Ancient Athens.* Chicago, Ill.: [n.pb.], 1927.

Goodblatt, Morris S. *Jewish Life in Turkey in the xvith Century as Reflected in the Legal Writings of Samuel de Medina.* New York: Jewish Theological Seminary of America, 1952.

Goode's World Atlas. 1960.

Graig, Albert M. and Donald H. Shively (eds.). *Personality in Japanese History.* Berkeley, Calif.: University of California Press, 1970.

Gran, Peter. *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840.* Foreword by Afaf Lutfi al Sayyid - Marsot. Austin, Texas: University of Texas Press, ©1979. (Modern Middle East Series; no.4)

Great Britain. *Accounts and Papers 1881.*

——. Admiralty War Staff. *A Handbook of Arabia.*

Grenier, Albert. *Les Gaulois.* Paris: Payot, 1945.

Gurney, Oliver Robert. *The Hittites.* London; Baltimore, Mad.: Penguin Books, 1954.

Habib, Irfan. *The Agrarian System of Moghul India, 1556-1707.* Bombay; New York: Asia Pub. House, 1963.

Hall, John Whitney and Marius B. Jansen (eds.). *Studies in the Institutional History of Early Modern Japan.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1968.

Halsband, Robert (ed.). *The Complete Letters of Lady Mary Wortley Montague.* Oxford: Clarendon Press, 1965-.

Hansen, Roger and Valeriane Kallab (eds.). *U.S. Foreign Policy and the Third World.* New York: Praeger, ©1982.

Hasan, Hadi. *A History of Persian Navigation.* London: Methuen, 1928.

Headrick, Daniel R. *The Tools of Empire: Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century.* New York: Oxford University Press, 1981.

Herodotus. *The Persian Wars, IV-42.* Translated by George Rawlinson with an introduction by Francis R.B. Godolphin. New York: Modern Library, 1947. (Modern Library; 255)

Heyd, Wilhelm von. *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge.* 2 vols. Leipzig: O. Harrassowitz, 1923.

Hicks, John Richard (Sir). *A Theory of Economic History.* Oxford: Clarendon Press, 1969.

Hill, Donald Routledge. *The Book of Knowledge of Ingenious Mechanical Devices,* by Ibn al-Razzāz al-Jazarī. Dordrecht: [n.pb.], 1974.

Hitti, Philip K. *History of Syria Including Lebanon and Palestine.* 2nd ed. London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1957.

——. *History of The Arabs from the Earliest Times to the Present.* London: Macmillan, 1943.

Hobsbawm, Eric J. *Industry and Empire: An Economic History of Britain Since 1750*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1968.

Hodgson, Marshall G.S. *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*. 3 vols. Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1974.

Hollingsworth, Thomas Henry. *Historical Demography*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1969. (Sources of History, Studies in the Uses of Historical Evidence)

Holt, P.M. (ed.). *Political and Social Change in Modern Egypt*. London: [n.pb.], 1968.

——, Ann K.S. Lambton and Bernard Lewis (eds.). *The Cambridge History of Islam*. Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1970.

Hopkins, Anthony G. *An Economic History of West Africa*. New York: Columbia University Press, 1973. (Columbia Economic History of the Modern World)

Hoskins, Halford Lancaster. *British Routes to India*. New York: Longman, 1928.

Hourani, Albert Habib. *Europe and the Middle East*. London: Macmillan, 1980. (Macmillan Series)

—— and S.M. Stern (eds.). *The Islamic City*. Oxford: Bruno Cassirer Publishers, 1970.

Hourani, George Fadlo. *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1951.

Hume, David. *Essays: Moral, Political and Literary*. London: Oxford University Press, 1963.

Ibn Khaldūn. *Prolégomènes d'Ebn Khaldoun*. Texte arabe publié d'après les manuscrits de la bibliothèque impériale par M. Quatremère. Paris: Institut impérial de France, 1858.

Ibrahim, Ibrahim (ed.). *Arab Resources*. Washington, D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, 1983.

Imlah, Albert Henry. *Economic Elements in the Pax Britannica: Studies in British Foreign Trade in the 19th Century*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1958.

Inalcik, Halil. *The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300-1600*. Translated by Norman Itzkowitz and Colin Imber. London: Weidenfeld, 1973; New York: Praeger Publishers, 1973. (Praeger History of Civilization)

Indzhikyan, O.G. *Burzhuaziya Osmanskoĭ Imperii*. Erevan: [n.pb.], 1977.

Initiation à l'Algérie. Paris: [s.n.], 1957.

Initiation à la Tunisie. Paris: [s.n.], 1950.

International Monetary Fund (IMF). *International Financial Statistics*.

Issawi, Charles Philip. *The Arab World's Legacy*. Princeton, N.J.: Darwin Press, 1981.

—— *The Economic History of the Middle East and North Africa*. London: Methuen; New York: Columbia University Press, 1982.

——. *Economic History of the Middle East and North Africa Since 1800*. (Under Press).

——. *The Economic History of Turkey, 1800-1914*. Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1980. (Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.13)

——. *Egypt at Mid-Century: An Economic Survey*. London; New York: Oxford University Press, 1954.

—— (ed.). *An Arab Philosophy of History*. London: John Murray, 1950.

——. *The Economic History of Iran, 1800-1914*. Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1971. (Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.8.)

—— *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*. Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1966.

—— and Mohammed Yeganneh. *The Economics of Middle Eastern Oil*. New York: Praeger; London: Faber and Faber, 1963.

Jha, Shiva Chandra. *Studies in the Development of Capitalism in India*. Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1963.

Jones, Arnold Hugh Martin. *Ancient Economic History: An Inaugural Lecture Delivered at University College*. London: H.K. Lewis, 1948.

Jones, Eric L. *The European Miracle: Environments, Economies and Geopolitics in the History of Europe and Asia*. Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1981.

Karal, Enver Zia. *Osmanli Impartorlugunda ilk Nüfus Sayimi, 1831*. AnKara: [n.pb.], 1943. (Nesriyat; no.195, Tetkikler Series; no.87)

Kedourie, Elie (ed.). *The Middle Eastern Economy: Studies in Economics and Economic History*. London: F. Cass., 1977.

Keene, Donald. *The Japanese Discovery of Europe, 1720-1830*. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1969.

Khalfin, N.A. and A.A. Muradian. *Yanki na Vostokye*. Moscow: [n.pb.], 1966.

Labib, Subhi Y. *Handelsgeschichte Ägyptens im Spätmittelalter, 1171-1517*. Wiesbaden: F. Steiner, 1965.

Lammens, Henri. *La Syrie: Précis historique*. 2 vols. Beyrouth: Imprimerie catholique, 1921.

Lampe, John R. and Marvin Jackson. *Balkan Economic History, 1550-1950: From Imperial Borderland to Developing Nations*. Bloomington: Indiana University Press, c1982. (Joint Committee on Eastern Europe Publications Series; no.10)

Lane, Frederic Chapin. *Venice: A Maritime Republic*. Baltimore, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1973.

Lanning, John Tate. *The Eighteenth Century Enlightenment in the University of San Carlos de Guatemala.* Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1956.

——. *The University in the Kingdom of Guatemala.* Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1955.

Lapidus, Ira Marvin. *Muslim Cities in the Later Middle Ages.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967. (Harvard Middle Eastern Studies; 11)

—— (ed.). *Middle Eastern Cities: A Symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism.* Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1969.

Laroui, Abdallah. *L'Histoire du Maghreb: Un Essai de synthèse.* Paris: Maspéro, 1970.

Le Strange, G. *The Lands of the Eastern Caliphate.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1930.

Lewis, Archibald Ross. *Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1951. (Princeton Studies in History; 5)

Lewis, Bernard. *The Arabs in History.* London: Hutchinson University Library, 1958.

——. *The Emergence of Modern Turkey.* London; New York: Oxford University Press, 1961.

——. *Islam in History: Ideas, Men and Events in the Middle East.* London: Alcove Press, 1973.

——. *The Muslim Discovery of Europe.* New York: W.W. Norton, ©1982.

—— and P.M. Holt (eds.). *Historians of the Middle East.* London; New York: Oxford University Press, 1962. (Historical Writing on the People of Asia)

Lewis, C.S. *The World Last Night.*

Lewis, William Arthur. *The Evolution of the International Economic Order.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, ©1978.

——. *Growth and Fluctuations, 1870-1913.* London; Boston: G. Allen and Unwin, 1978.

Lockhart, James and Stuart Schwartz. *Early Latin America.* Cambridge, Mass.; New York: Cambridge University Press, 1983.

Lockwood, William Wirt. *Economic Development of Japan.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1954.

—— (ed.). *The State and Economic Enterprise in Japan: Essays in the Political Economy of Growth.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1965. (Studies in the Modernization of Japan)

Lopez, Robert Sabatino. *The Birth of Europe.* Translated from the French by the author. London: Phoenix House, 1967.

—— and Irving W. Raymond. *Medieval Trade in the Mediterranean World: Illustrative Documents*. New York. Columbia University Press, 1955. (Records of Civilization, Sources and Studies; 52)

Lorimer, J.G. *Gazeteer of the Persian Gulf.* Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1908-1915.

Lot, F. *La Gaule.* Paris: [s.n.], 1947.

Lyashchenko, Peter. *History of the National Economy of Russia.* New York: Macmillan, 1949.

Mantran, Robert. *Istanbul dans la seconde moitié du xviie siècle: Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale.* Paris: Maisonneuve, 1962.

Mardin, Serif. *The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1962. (Princeton Oriental Studies; v.21)

Marshall, Alfred. *Principles of Economics.* 8th ed. [n.p.: n.pb.], 1920.

Marx, Karl. *Pre-Capitalist Economic Formations.* Translated by Jack Cohen; edited and with introduction by Eric J.Hobsbawm. New York: International Publishers, 1965.

Massignon, Louis (ed.). *Annuaire du monde musulman.* Paris: [s.n.], 1955.

Masson, Paul. *Histoire du commerce français dans le Levant au xviie-siècle.* Paris: Hachette, 1896.

——. *Histoire du commerce français dans le Levant au xviiie siècle.* Paris: Hachette, 1911.

McGowan, Bruce. *Economic Life in Ottoman Europe, 1600-1800.* Cambridge, Eng.; New York: Cambridge University Press, 1981.

Meigs, Peveril. *World Distribution of Arid and Semi-Arid Homoclimates.* Paris: UNESCO, 1952. (UNESCO Mimeographed Document; NSI/A21 /37 /Rev.)

Meilink-Roelofsz, Marie Antoinette Petronella. *Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago Between 1500 and About 1630.* The Hague: Nijhoff, 1962.

Meyerhoff, Hans (ed.). *The Philosophy of History in Our Time.* New York: Doubleday Anchor Books, 1959.

Miège, Jean-Louis. *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894.* Paris: Presses universitaires de France, 1961.

Minorsky, Vladimir Fedorovich. *Tadhkirat al-Mulūk.* London: Luzac, 1943.

Mitchell, Brian R. and Phyllis Dean (eds.). *Abstract of British Historical Statistics.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1971.

Monroe, A.E. *Early Economic Thought.* London: [n.pb.], 1924.

Moreland, William Harrison. *From Akbar to Aurangzeb: A Study in Indian Economic History.* London: Macmillan, 1923.

——. *India at the Death of Akbar: An Economic History.* London: Macmillan, 1920.

Morris, Nan [Ivan]. *The Life of an Anormous Woman.* London: [n.pb.], 1964.
Moscati, Sabatino. *The World of Phoenicians.* Translated from the Italian by Alastair Hamilton. New York: Praeger, 1968. (Praeger History of Civilization)
Muir, William (Sir). *The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall.* Edinburgh: J. Grant, 1924.
Mukerjee, Radhakamal : *The Economic History of India, 1600-1800.* London; New York: Longman, 1945.
Al-Mutanabbi. Beyrouth: [s.n], 1936. (Mémoires de l'institut français de Damas)
Naima, Mustafa. *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era.* Translated by Charles Fraser. London: John Murray, 1832-.
Nakamura, James I. *Agricultural Production and the Economic Development of Japan, 1873-1922.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1966. (Studies of the East Asian Institute Columbia University)
Needham, Joseph. *Science and Civilization in China.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1954-
Nicolson, Harold George. *The Evolution of Diplomacy.* New York: Collier Books, 1962.
Oates, Joan. *Babylon.* London: [n.pb.], 1979.
Olmstead, Albert Ten Eyck. *History of the Persian Empire: Achaemenid Period.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1948.
Oppenheim, A. Leo. *Ancient Mesopotamia.* Chicago, Ill.: Chicago University Press, 1964.
Owen, Roger. *Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914. A Study in Trade and Development.* Oxford: Clarendon Press, 1969.
Oxford Atlas. 1958.
Parry, John Horace. *The Spanish Seaborne Empire.* New York: Knopf, 1966. (History of Human Society)
Parsons, Abraham. *Travels in Asia and Africa.* London: Longman, 1808.
Passin, Herbert. *Society and Education in Japan.* New York: Columbia University, Teachers' College, 1965. (Columbia University Comparative Education Series)
Pederson, Johannes. *The Arabic Book.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1984.
Phlanhol, Xavier de. *The World of Islam.* Ithaca, N.Y.: [n.pb.], 1957; 1959.
Pidal, R. Menendez. *Historia de España.*
Pipes, Richard. *Russia under the Old Regime.* New York: Scribner, c1974. (History of Civilization)
Polanyi, Karl, Conrad M. Arensberg and Harry W. Pearson (eds.). *Trade*

and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory. Glencoe, Ill.: Free Press, 1957.
Polk, William Roe and Richard L. Chambers (eds.). *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968. (Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no.1)
Postan, Moissey and E.E. Rich (eds.). *The Cambridge Economic History of Europe.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1952.
Pritchard, Evans. *The Sanusi of Cyrenaica.* Oxford: [n.pb.], 1949.
Quatremère, Etienne Marc (ed.). *Ibn Khaldūn: Al-Muqaddimah.* Paris: Institut impérial de France, 1858.
Rabie, Hassanein. *The Financial System of Egypt, A.H. 564-741, A.D. 1169-1341.* London; New York: Oxford University Press, 1972. (London Oriental Series; v.25)
Randall, Laura Regina Rosenbaum. *An Economic History of Argentina in the Twentieth Century.* New York: Columbia University Press, 1978.
Rawski, Evelyn Sakakida. *Education and Popular Literacy in Ching China.* Ann Arbor: University of Michigan Press, c1979. (Michigan Studies on China)
Raymond, André. *Artisans et commerçants au Caire auxviiiė siècle.* 2 vols. Damas: Institut français de Damas, 1973.
Reischauer, Edwin O. and John K. Fairbank. *East Asia: The Great Tradition.* Boston: Houghton, 1960.
Retti, Ladislo. *The Unknown Leonardo.* New York: [n.pb.], 1974.
La Révolution industrielle dans le sud-est européen. Sofia: Institut d'études balkaniques, 1976.
Richards, Donald Sidney (ed.). *Islam and the Trade of Asia.* Oxford, Eng.: B. Cassirer; Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1970. (Papers on Islamic History; 2)
Rivlin, Helen Anne B. *The Agricultural Policy of Muhammad Ali in Egypt.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1961. (Harvard Middle Eastern Studies; 4)
Rodinson, Maxime. *La Fascination de l'Islam.* Paris: Maspéro, 1980. (Petite collection Maspéro; 243)
Roll, Eric. *A History of Economic Thought.* London: Faber and Faber, 1961.
Rosenthal, Franz (trans.). *Ibn Khaldun: The Muqaddimah: An Introduction to History.* 2nd ed. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1967.
Rostovtŝev, Mikhail Ivanovich. *The Social and Economic History of Hellenistic World.* 3 vols. Oxford: Clarendon Press, 1941.
Roth, Cecil. *The House of Nasi: The Duke of Naxos.* Philadelphia: Jewish Publ. Society of America, 1948. (Gitelson Library)
Roucek, Joseph Slabey (ed.). *Slavonic Encyclopaedia.* New York: Philosophical Library, 1949.

Rycaut, Paul (Sir). *The History of the Present State of the Ottoman Empire.* London: Printed by T.N. for Starkey, 1682.

Saggs, H.W.E. *The Greatness that was Babylon: A Sketch of the Ancient Civilization of the Tigris -Euphrates Valley.* New York; London: Sidgwick and Jackson, 1962.

Said, Edward W. *Orientalism.* New York: Pantheon Books, c1978.

Salzman, Louis Francis. *Edward I.* London: Constable, 1968.

Sauvaget, Jean. *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du xixe siècle.* Paris: Geuthner, 1941.

—— and Philip K. Hitti. *History of Syria.* London: Macmillan, 1957.

Schaube, Adolf. *Handelsgeschichte der Romanischen Völker.* Munich: [n.pb.], 1906.

Schumpeter, Joseph. *History of Economic Analysis.* New York: Oxford University Press, 1952; 1954.

Shaw, Stanford J. *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1958. (Princeton Oriental Series; no.19)

Singer, Charles (ed.). *A History of Technology.* Oxford: Clarendon Press, 1956-1957.

Sinha, Narendra Krishna. *Economic History of Bengal: From Plassey to the Permanent Settlement.* Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1956.

Smith, Thomas Carlyle. *The Agrarian Origins of Modern Japan.* New York: Atheneum, c1959. (Atheneum Paperback; 94)

Southern, Richard William. *Western Views of Islam in the Middle Ages.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1962.

Statesman's Yearbook.

Stavrianos, Leften Stavros. *The Balkans Since 1453.* New York: Dryden Press, 1958.

Thapar, Romila. *A History of India.* Harmondsworth, Eng.: Penguin, 1966. (Pelican Books; A 769)

Thobie, Jacques. *Intérêts et impérialisme français dans l'empire ottoman, 1895-1914.* Préface de Jean-Baptiste Duroselle. Paris: Impr. national, 1977. (Série sorbonne;4)

Thottathil, Pelis. *Statistical Abstract Relations to British India, 1841-1911.*

Tomara, M.L. *Ekonomicheskoye Polozheniye Persii.* Petersburg: [n.pb.], 1895.

Thomas, Lewis Victor. *A Study of Naima.* Edited by Norman Itzkowitz. New York: New York University Press, 1972. (Studies on Near Eastern Civilization; no.4)

Tocqueville, Alexis de. *L'Ancien Régime et la révolution.*

Toussaint, Auguste. *History of the Indian Ocean.* Translated form the French by June Guicharnaud. London: Routledge and Kegan Paul, 1966.

Toynbee, Arnold Joseph. *A Study of History*. London: Oxford University Press, 1934.
The Travels of Marco Polo. New York: Modern Library, 1926.
Trevelyan, George. *History of England.* London; New York: Longman, 1947.
Ülgener, S. *Iktisadi Tarihimizin Ahlak ve Zihniyet Meseleleri.* Istanbul: [n.pb.], 1951.
Ubbelohde, Alfred René. *Man and Energy.* Baltimore, Mad.: Penguin Books, 1963. (Pelican Books; A 600)
Udovitch, Abraham L. *Partnership and Profit in Medieval Islam.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1970. (Princeton Studies on the Near East)
—— (ed.). *The Islamic Middle East, 700-1900: Studies in Economic and Social History.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1981.
UNESCO. *Progress and Literacy in Various Countries.* Paris: UNESCO, 1953.
United Nations (UN). *Capital Movements During The Interwar Period.* New York: UN, 1950.
——. *The Determinants and Consequences of Population Trends.* New York: UN, 1953.
——. *The Direction of Trade.*
——. *Statistical Yearbook.*
Valensi, Lucette. *Le Maghreb avant la prise d'Alger, 1790-1830.* Paris: Flammarion, 1969. (Questions d'histoire; 10)
Van Leur, Jacob Cornelis. *Indonesian Trade and Society: Essays in Asian Social and Economic History.* The Hague: Van Hoeve, 1955.
Veblen, Thorstein Bunde. *Essays in Our Changing Order.* New York: Viking Press, 1943.
Volney, C.E. *Œuvres.* Paris: [s.n.], 1825.
Vryonis, Speros. *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Century.* Berkeley, Calif.; Los Angeles: University of California Press, 1971. (Publications of the Center for Medieval and Renaissance Studies; UCLA; 4)
Wachter, Michael and Susan Wachter (eds.). *Removing Obstacles to Economic Growth.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1984.
Wallerstein, Immanuel Maurice. *The Modern World System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World Economy in the Sixteenth Century.* New York: Academic Press, 1974. (Studies in Social Discontinuity)
Warriner, Doreen (ed.). *Contrasts in Emerging Societies: Readings in the Social and Economic History of South-Eastern Europe in the Nineteenth Century.* Bloomington: Indiana University Press, 1965.

Watson, Andrew M. *Agricultural Innovation in the Early Islamic World.* New York; Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1983. (Cambridge Studies in Islamic Civilization)

White, K.D. *Greek and Roman Technology.* London: Thames and Hudson, 1984.

White, Lynn Townsend. *Medieval Technology and Social Change.* Oxford: Clarendon Press, 1962.

Wilson, Arnold Talbot (Sir). *The Persian Gulf: An Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the Twentieth Century.* Oxford: Clarendon Press, 1928.

Wood, Alfred Cecil. *A History of the Levant Company.* London: Frank Cass, 1935.

Wulff, Hans E. *The Traditional Crafts of Persia: Their Development, Technology and Influence on Eastern and Western Civilization.* Cambridge, Mass.: M.I.T. Press, c1966.

Al-Zāhirī, Khalīl. *Kitab Zubdat Kashf al-Mamālīk.* Edited by Paul Ravaisse. Paris: [s.n.], 1894.

Ziadeh, Nicola Abdo. *Urban Life in Syria under the Early Mamlūks.* Beirut: American Press, 1953. (Oriental Series; no.24)

Periodicals

Akbal, F. «1831... Taksimat ve Nüfus.» *Belleten:* vol. 15, 1951.

Ashtor, Eliyahu. «The Number of Jews in Mediaeval Egypt.» *Journal of Jewish Studies:* vols. 18 and 19.

Baer, Gabriel. «Administrative, Economic and Social Functions of Turkish Guilds.» *International Journal of Middle East Studies:* vol.2, no.1, January 1970.

Barkan, Omar Lutfi. «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire ottoman aux xve and xvie siècles.» *Journal of the Economic and Social History of the Orient:* vol.1, part 1, 1957.

——. «La Méditerranée de Fernand Braudel.» *Annales:* vol.9, January -March 1954.

——. «The Price Revolution of the Sixteenth Century: A Turning Point in the Economic History of the Near East.» *International Journal of Middle East Studies:* vol.6, no.1, January 1975.

Bolin, Sture. «Mohammed, Charlemagne and Ruric.» *Scandinavian Economic History Review:* vol.1, 1953.

Boulakia, Jean David. «Ibn Khaldun: A Fourteenth Century Economist.» *Journal of Political Economy:* vol. 79, no. 5, September -October 1971.

Brown, Leon Carl. «Color in North Africa.» *Daedalus:* Spring 1967.

BP Statistical Review of the World Industry (British Petroleum) (Annual).

Cavaignac, E. «Notes de démographie antique .» *Journal de la société statistique de Paris:* vol. 76, 1935.

Citarella, Armand O.«The Relations of Amalfi with the Arab World before the Crusades.» *Speculum:* April 1967.

«Crusades and Current Crises in the Near East: A Historical Parallel.» *International Affairs:* July 1957.

Easterlin, Richard. «Why Isn't the Whole Developed?» *Journal of Economic History:* vol. 41, March 1981.

Fletcher, Max. «The Suez Canal and World Shipping, 1869-1914.» *Journal of Economic History:* December 1958.

Gibb, Hamilton Alexander Rosskeen. «The Community in Islamic History.» *Proceedings of the American Philosophical Society:* vol. 107, April 1963.

Hahn, W. «Die Verpflegung Konstantinopels durch Staatliche Zwangswirtschaft.» *Beihefte zur Vierteljahrschrift für Sozial und Wirtschaftsgeschichte:* vols. 4 and 7, 1926.

Hartwell, Robert. «Markets, Technology and the Structure of Enterprise in the Development of the Eleventh-Century Chinese Iron and Steel Industry.» *Journal of Economic History:* March 1966.

Heckscher,Eli. «A Plea for Theory in Economic History.» *Economic Journal:* Economic History Series; no.4. January 1929.

Issawi, Charles Philip. «The Bases of Arab Unity.» *International Affairs:* vol. 3, no.1, January 1955.

——. «The Christian -Muslim Frontier in the Mediterranean: A History of Two Peninsulas.» *Political Science Quarterly:* December 1961.

——. «Comment on Professor Barkan's Estimate...» *Journal of the Economic and Social History of the Orient:* vol. 1, 1958.

——. «Economic History and the Middle East.» *Middle East Studies Association Bulletin:* vol. 8, no.1, 1974.

——. «Economic History of the Middle East to 1914.» *Middle East Studies Association Bulletin:* vol. 2, no.2, 1968.

——. «Europe: The Middle East and the Shift in Power: Reflections on a Theme by Marshall Hodgson.» *Comparative Studies in Society and History:* vol. 22, no.4, October 1980.

«The Impact of Money.» *Arab Studies Quarterly:* Special Issue, Winter-Spring 1984.

Inalcik, Halil. «Capital Formation in the Ottoman Empire.» *Journal of Economic History:* 1960.

Jackson, Marvin. «Comparing the Balkan Demographic Experience, 1860 to 1970.» *Journal of European Economic History:* vol. 14, Fall 1985.

Jennings, Ronald. «Loans and Credit in Early Seventeenth Century Ottoman Judicial Records.» *Journal of the Economic and Social History of the Orient:* 1973.

Journal of the Economic and Social History of the Orient: 1957-1958.

Journal of European Economic History: vol. 2.

Kashdan, A.P. «Novye Issledovaniya po Vizantiiskoi Demografii.» *Vizantiiskii Vremennik:* vol. 29, 1968.
Kortepeter, Carl M. «Ottoman Imperial Policy and the Economy of the Black Sea Region in the Sixteenth Century.» *Journal of the American Oriental Society:* vol. 86, no.2, April -June 1966.
Kuznets, Simon. «Economic Growth and Income Inequality.» *American Economic Review:* vol. 45, no.1, March 1955.
Labib, Subhi Y. «Geld und Kredit.» *Journal of the Economic and Social History of the Orient:* vol.2, 1959.
Lane, Frederic Chapin. «Venetian Shipping during the Commercial Revolution.» *American Historial Review:* vol.38, no.2, January 1933.
Latin American Research Review: vol.15, no.1, 1980.
Lewis, Bernard. «Gibbon on Muhammad.» *Daedalus:* Summer 1976.
——. «The Islamic Guilds.» *Economic History Review:* 1937.
——. «Some Reflections on the Decline of the Ottoman Empire.» *Studia Islamica:* 1958.
Lo, Jung - Pang. «The Emergence of China as a Sea Power during the Late Sung and Early Yüan Periods.» *Far Eastern Quarterly:* August 1955.
Lopez, Robert Sabatino. «Market Expansion: The Case of Genoa.» *Journal of Economic History:* December 1964.
McGowan, Bruce. «Food Supply and Taxation on the Middle Danube, 1568-1579.» *Archivum Ottomanicum:* vol.1, 1969.
Miyamoto, M. [et al.]. «Economic Development in Pre -Historical Japan.» *Journal of Economic History:* December 1965.
——. «Economic Development in Pre-Industrial Japan.» *Journal of Economic History:* December 1965.
Nashaat, M.A. «Ibn Khaldun: Pioneer Economist.» *L'Egypte contemporaine:* vol. 38, 1944.
North, Douglass. «Markets and Other Allocation Systems in History: The Challenge of Karl Polanyi.» *Journal of European Economic History:* vol.6, no.3, 19-.
Russell, Josiah C. «Late Ancient and Medieval Population.» *Transactions of the American Philosophical Society:* vol. 48, 1958.
——. «Late Medieval Balkan and Asia Minor Population.» *Journal of the Economic and Social History of the Orient:* vol. 3, 1960.
——. «The Population of Medieval Egypt.» *Journal of the American Research Center in Egypt:* 1966.
——. «Recent Advances in Mediaeval Demography.» *Speculum:* vol. 40, 1965.
Al-Sayyid -Marsot, Afaf Lutfi. «The Political and Economic Functions of the Ulamã in the 18th Century.» *Journal of the Economic and Social History of the Orient:* vol. 26, 19-.
Stein, E. «Introduction... .» *Traditio:* vol. 7, 1949-1951.

Stoianovich, Traian. «The Conquering Balkan Orthodox Merchant.» *Journal of Economic History:* vol. 20, no.2, June 1960.

——. «Factors in the Decline of Ottoman Society in the Balkans.» *Slavic Review:* December 1962.

Vanacker, Claudette. «Géographie de l'Afrique du Nord.» *Annales:* vol. 28, 1973.

Walek-Czernicki, T. «La Population de l'Egypte à l'époque saite.» *Bulletin de l'institut d'Egypte:* 1940-1941.

Watson, Andrew M. «The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion, 700-1100.» *Journal of Economic History:* vol. 34, no.1, March 1974.

Wiet, Gaston. «Les Marchands d'épice sous les sultans mamlouks.» *Cahiers d'histoire égyptienne:* vol. 7, 1955.

Yamamato, T. «On Tawalisi Described by Ibn Batuta.» *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko:* 1936.

Papers:

Quataert, Donald. «Ottoman Reform and Agriculture in Anatolia, 1876-1908.» (Unpublished Dissertation, U.C.L.A., 1973).

Wedley, William C. «Manpower Policies for Development Planning in Libya.» (Unpublished Doctoral Dissertation, Columbia University, 1971).

Conferences

Démographie historique: Congrés international de la population. Paris: [s.n.], 1937.

Thirteenth International Congress of Byzantine Studies, Oxford, 1966. London: [n.pb.], 1967.

United States 96th Congress, 2nd Session, Joint Economic Committe. *The Political Economy of the Middle East.* Washington, D.C.: [n.pb.], 1980.

فهرس

(أ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

شارل عيساوي

- تلقى علومه في جامعة أكسفورد
- أستاذ فخري لدراسات الشرق الأدنى في جامعة برنستون
- أستاذ سابق في جامعة كولومبيا. ومستشار سابق لدى منظمة الأغذية والزراعة الدولية.
- نشر العديد من الكتب والأبحاث في دوريات أجنبية حول اقتصاد الشرق الأوسط وتاريخه الاقتصادي والثقافي.

من مؤلفاته بالانكليزية:

- **مصر في ثورة: تحليل اقتصادي، (١٩٦٣)**
- **اقتصادات نفط الشرق الأوسط (بالاشتراك مع محمد يقانة)، (١٩٦٣)**
- **التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط، ١٨٠٠ - ١٩١٤ (محرر)، (١٩٦١)**
- **النفط، الشرق الأوسط والعالم، (١٩٧٢)**
- **التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠ - ١٩١٤** (ترجمه الى العربية د. رؤوف عباس حامد) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠).



مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص. ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٦٩١٦٤
برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي. فاكسيميلي: ٨٠٢٢٣٣